كتاب كوكتيل

روايات مصرية للجيب

أرزاق

الجزء الثالث

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

إهـــداء

إلى الصديق ..

إلى الفنـان ..

إلى المخرج التليفزيونى الراحل (حسن سيف الدين) ؟

د. نبيل فاروق

أزراق

رواية اجتماعية طويلة

من قلب الليل يأتى النهار ..
ومن قلب الظلم تأتى الرحمة ..
ومن المحال أن نأمل دوام الحال ..

د. نبيل فاروق

١ ـ لقاء هناك ..

ازدحم مطار (أورلى) فى (باريس) فى ذلك اليوم ، على غير العادة ، بسبب الطقس الردىء ، الذى أدّى إلى تأخر هبوط عدد من الطائرات ، التى اضطرت كلها فيما بعد ، إلى الهبوط فى وقت واحد تقريبًا ..

ووسط جموع المستقبلين ، وقفت حسناء فاتنة تلتقط أنفاس سيجارتها ، وتنفثها فى شىء من العصبية ، وعيناها تتطلعان إلى بوّابة خروج القادمين ، بنظرة خاصة ، تجمع ما بين اللهفة والتوتر والضجر ..

كان من الواضح أنها ليست باريسية ، على الرغم من أناقتها الواضحة ، وجمالها المثير ، إلا أنها نجحت فى جذب أنظار العديدين ، بشعرها الأسود الفاحم الناعم ، وشفتيها الجميلتين الممتلئتين ، وثوبها الذى لا يقل ثمنه عن ثمن سيارة جديدة ، والذى يشفّ عن الثراء وأناقة الذوق فى الوقت ذاته ..

وفجأة تبدّلت نظرة الفاتنة ..

لقد تلاشى منها التوتر والضجر ، واتسعت فيها مساحة اللهفة ، لتملأ عينيها الساحرتين كلهما ، وهى تتحرّك إلى الأمام ، وتلوّح بيدها ، هاتفة :

ـ (حسين) .. (حسين) .. أنا هنا .

انتقلت الأعين منها إلى ذلك الشاب الوقور ، ذى البشرة السمراء والشارب الكث ، والذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، بدت أكثر وضوحًا فى عينيه ، اللتين احتوتا الحسناء فى لحظة واحدة ، وهو يتقدَّم نحوها ، وسط نظرات الحسرة والحسد ، التى أطلَّت من عيون الجميع ، وخاصة عندما اختطفت الفاتنة كف الشاب ، واحتضنتها بأصابعها فى لهفة ، وهى تهتف به باللغة العربية ، التى يجهلونها تمامًا :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (حسين) .. أوحشتنى كثيرًا .. لقد طال غيابك هذه المرة .

ابتسم (حسين البنهاوى) فى نشوة واضحة ، وهو يحتضن أصابع الأميرة (عايدة) بدوره ، هامسًا فى وجد :

ـ أنت أوحشتنى أكثر .

ثم مال يطبع قبلة على خدها البض ، فتهلَّلت أساريرها ، وتأبطت ذراعه فى لهفة .. أو أنها احتضنتها فى شوق ، وهى تسأله :

ـ لماذا تأخَّرت هذه المرة ؟.. ألم تفكِّر فى رؤيتى مرة واحدة ، طوال أربعة أشهر كاملة .

ربَّت على كفها ، وهو يقول :

ـ أنت تعلمين أننى لا أستطيع القدوم إلى (باريس) وقتما أشاء ، بل أضطر إلى انتظار أية فرصة ، تسمح لى بالقدوم إلى مكتبنا هنا ؛ لأنعم بقربك .

أطلقت ضحكة تموج بالدلال ، وهى تقوده إلى سيارتها ، قائلة :

ـ من يصدِّق هذا ؟.. كنا يومًا عدوين لدودين ، فكيف صار كل منا يعشق الآخر هكذا ؟

ابتسم وهو ينقد عامل المطار أجره ، بعد أن وضع أمتعته فى حقيبة السيارة المكشوفة ، ثم جلس على المقعد المجاور لها ، وهو يقول :

ـ أنا عشقتك دائمًا .

هزَّت كتفيها ، وهى تقود السيارة ، قائلة :

ـ هذا أمر طبيعى .. الجميع يعشقوننى من النظرة الأولى .

انعقد حاجباه فى ضيق ، فعادت تضحك ، وهى تستدرك فى سرعة :

ـ ولكننى لا أعشق سواك .

أرضت العبارة شيئًا فى نرجسيته ، فانبسطت أساريره ، واسترخى فى مقعده ، وهو يسألها :

ـ كيف حالك هنا ؟.. هل أجريت التجديدات التى أخبرتنى بها ، فى متجر الأزياء الذى تمتلكينه ؟

أجابته فى زهو :

ـ نعم .. إنه لم يعد متجرًا عاديًا ، بل صار واحدًا من أرقى متاجر الأزياء فى (باريس) كلها .

ثم سألته فى اهتمام :

ـ كيف حالك أنت ؟!.. أما زالت علاقتك برئيسك (مراد صقر) متوترة .

مطَّ شفتيه ، وتنهَّد وهو يقول :

ـ إنها كذلك دائمًا .. المشكلات لا تنتهى أبدًا ، ولكننا يهادن بعضنا البعض فى الوقت الحالى ، وإن كنت واثقًا من أنه ينبش خلفى طوال الوقت ، بحثًا عن الخطأ ، الذى يتيح له فرصة التخلص منى .

ضحكت فى خبث ، قائلة :

ـ مثلما تفعل أنت .

صمت لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ لست أنكر هذا .. أنا أيضًا أتحيَّن الفرصة للقضاء عليه ، إذا ما اضطرنى إلى هذا .

سألته فى شغف فضولى :

ـ وماذا عن (إبراهيم مكى) .. رجل البوليس السياسى السابق ، الذى رويت لى قصته ، والذى صار اليوم زميلك فى العمل .. لأى الجانبين ينحاز .. لك أم لرئيسك ؟

هزَّ كتفيه ، وهو يقول :

ـ لا أحد يمكنه إجابة هذا السؤال سوى (إبراهيم مكى) نفسه .

وشرد ببصره لحظات ، قبل أن يستطرد :

ـ إنه رجل غامض للغاية ، وخبير محنَّك فى مجاله ، ولا يمكنك أبدًا استنتاج ما يفكِّر فيه ، أو ما يدور فى ذهنه ، مهما بلغت درجة قربك منه .

وتنهَّد مضيفًا :

ـ إننى أعامله بحذر شديد طوال الوقت .

ضحكت قائلة :

ـ يا لها من حياة !.. كيف تطيق التعامل طوال الوقت مع من لا تأمن شرهم .

قلب كفه ، وهو يقول فى شىء من الأسى :

ـ إنه قدرى .

شعرت أن حديثها حول عمله قد بدَّد الكثير من بهجة اللقاء ، فأدارت الدفة بسرعة وذكاء ، وهى تسأله :

ـ وكيف حال عائلتك ؟

اعتدل ، وهو يجيب :

ـ أحوالهم لم تبدَّل كثيرًا عما أخبرتك به فى زيارتى الأخيرة .. (نعيمة) تعيش راضية مستكينة مع زوجها (عمر) ، على الرغم من زواجه من (فاتن) ، ابنة (شاهين الحبروك) ، التى أنجب منها ولدين ، أطلق على أحدهما اسم (نجيب) ، والآخر اسم (فاروق) .

ضحكت بشدة ، وقالت ساخرة :

ـ وهل سيطلق على الثالث اسم (جمال) ؟!

لم ترق له سخريتها ، فتابع وكأنه لم يسمعها :

ـ أما (توحيدة) فهى مستقرة كعادتها مع زوجها (عبد الحكيم) ، الذى شارك (عمر) و (رضا) ابن (على العبد) ، فى مصنع للغزل والنسيج ، فى (المحلة الكبرى) ، ويبدو أن أعمالهم فى رواج .

رفعت حاجبيها فى دهشة ، وهى تقول :

ـ أعمالهم ؟!.. عجبًا !.. هل تخلَّت ثورتكم المجيدة عن ميولها الشيوعية ، وقرَّرت أن تسمح للمصريين بأن يصبحوا رجال أعمال ؟

عقد حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

ـ وما صلة الثورة بالشيوعية ؟

هتفت ساخرة :

ـ ماصلتها ؟!.. يبدو أننى مخطئة ، فكل ما فعلته ثورتك المباركة ، هو أنها ألغت الألقاب ، وصادرت الممتلكات ، وفرضت الحراسات ، و ...

قاطعها فى صرامة :

ـ أهذا كل ما تذكرينه عن الثورة ؟.. أنسيت أنها أعادت الحقوق لأصحابها ، وأنشأت مجتمعًا ديموقراطيًا ، و ...

صاحت فى تهكم شديد :

ـ ديموقراطيًا ؟!.. أأنت الذى يقول هذا ؟

ثم انفجرت ضاحكة ، على نحو فجّر غضب الدنيا فى أعماقه ، فقال فى حدة :

ـ (عايدة) .. سبق أن أخبرتك أكثر من مرة ، أننى أرفض سخريتك من (مصر) وإنجازاتها .. لا تنسى أبدًا أنك مصرية مثلى .

أجابته فى عصبية :

ـ نصف مصرية .. إننى أنتمى إلى أعرق الأسر التركية .

قال فى صرامة :

ـ لم يعد هذا مثار فخر أو زهو الآن ، بل ربّما ..

أمسك لسانه فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن تنطلق منه عبارة غاضبة ، لم تبد أبدًا لائقة ، ولكن الأميرة (عايدة) فهمت ما يعنيه ، فاحتقن وجهها فى شدة ، وانفجرت هاتفة :

ـ ربّما ماذا ؟.. هه .. قل ما كان يدور بذهنك .. ربما كان هذا يدعو للخجل .. أليس كذلك ؟

ضمّ شفتيه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وأشاح بوجهه عنها ، وهى تواصل غاضبة :

ـ ربما كان هذا صحيحًا ، فى (مصر) فقط ، بعد أن غسلتم عقول الناس ، وأقنعتوهم بأن الفخر ، كل الفخر هو أن تكون فقيرًا معدمًا ،

خاضعًا للسلطة والمتسلطين .. كلّا يا (حسين) ، يا ابن (محمد البنهاوى) .. أنا أميرة تركية ، وسأظل أفخر بهذا ، حتى آخر رمق ، وحتى ...

التفت إليها بغتة ، وصاح :

ـ (عايدة) .

أدهشتها حدته الشديدة ، وتلك النظرة المشتعلة فى عينيه ، فانعقد لسانها فى حلقها ، وسرى شىء من الخوف فى عروقها ، جعلها تحدّق فى وجهه صامتة ، وهو يتابع :

ـ إننا لن نفعل هذا فى كل مرة نلتقى فيها .. أنت تكرهين الثورة .. فليكن .. لن أحاول إقناعك بالعكس ، أو حتى مناقشتك فى الأمر ، ولكننى سأظل أحبها ، وأحب كل ما فعلته .. هذا شأنى .

دفعت عنادها كله إلى لسانها ، لتقول بصوت مختنق :

ـ هذا أمر طبيعى .. لقد استفدت منها كثيرًا .

قال فى حدة :

ـ هذا صحيح .. ولكننى لن أناقشه أيضًا ، فالوقت لا يكفى للتشاحن .

فجأة ، شعرت بقلبها يخفق فى صدرها بقوة ، مع عبارته الأخيرة ، فسألته فى جزع أنساها كل حديثهما العصبى :

ـ الوقت لا يكفى ؟!.. ماذا تقول يا (حسين) ؟.. إننى لم أرك منذ أربعة شهور ، ثم تأتى لتقول : إن الوقت لا يكفى .. قل لى : كم ستبقى هنا ؟

أجابها فى اقتضاب ، وبصوت لم يتخلّص من عصبيته بعد :

ـ أربعة أيام .

صرخت :

ـ ماذا ؟

ومع صرختها ، ضغطت دوّاسة الفرامل بكل قوتها ، فأطلقت الإطارات صريرًا مخيفًا ، وانحرفت السيارة فى عنف ، فصاح هو بها :

ـ ماذا تفعلين أيتها المجنونة ؟

أوقفت السيارة على جانب الطريق ، وسط أبواق التنبيه المعترضة ، والأصوات الغاضبة المستنكرة ، والتفتت إليه تهتف :

ـ هل ستقضى معى أربعة أيام فحسب ؟!.. أى قول هذا ؟.. ما الذى يضطرك إلى العودة مبكرًا هكذا ؟

أجاب فى توتر :

ـ ضروريات العمل ، و ...

بتر عبارته بغتة ، فمالت نحوه ، حتى امتلأ صدره كله بأنفاسها العطرة ، وهى تسأله فى همس ملهوف :

ـ وماذا ؟

تطلّع إلى وجهها لحظة فى صمت ، وتركّزت عيناه على شفتيها الممتلئتين ، فخفق قلبه فى عنف ، إلا أنه قاوم رغبته ، وأشاح بوجهه عنها ، وهو يجيب فى خفوت :

ـ ثم إنه عيد ميلاد (طارق) .

تراجعت وهى تصرخ فى غضب :

ـ عيد ميلاد من ؟!

امتلأت نفسه بالضيق أكثر وأكثر ، وهو يجيبها فى حدة :

ـ عيد ميلاد (طارق).. ابن شقيقى (حافظ) وزوجته

(فاطمة) .. أنت تعلمين كم أحبه ، ثم إننى لم أتخلّف عن حضور عيد مولده قط ، طوال السنوات الخمس الماضية ، ولن أتخلّف عنه هذه المرة .

حدّقت فى وجهه بدهشة كبيرة ، وتصاعد فى أعماقها غضب بلا حدود ، جعل أصابعها ترتجف ، ووجهها يعود إلى احتقانه ، الذى زاد بشرتها تورّدًا ..

كانت تعلم كم يحب هذا الطفل ، على الرغم من كراهيته لأمه ، واستهانته بأبيه ، ولكنها لم تكن لتقبل أبدًا أن يتركها رجل ، أى رجل ، من أجل شخص آخر ..

حتى ولو كان هذا الشخص هو (طارق) ..

وعلى الرغم من الثورة العارمة ، التى تفجّرت فى أعماقها ، إلا أنها لم تصرخ ، أو تبكى ، أو حتى تبدى اعتراضًا ..

لقد تراجعت فى مقعدها فى بطء ، وقد امتلأ وجهها بملامح الكبرياء والعناد ، ثم أعادت إدارة محرّك السيارة ، فغمغم (حسين) :

ـ (عايدة) .. حاولى أن تفهمينى .

سألته فى حزم :

ـ أيهما تفضّل .. فندق (ريتز) ، أم (هيلتون) ؟

انعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا السؤال يا (عايدة) ؟.. إننى أقيم عادة فى فيلتك .

أدارت المقود ، وهى تقول :

ـ ليس هذه المرة .

لم يرق له أسلوبها ، وهو الذى اعتاد أن يأمر فيطاع ، فقال فى حدة :

ـ (عايدة) .. لن أقبل هذا الأسلوب .

صاحت به فى غضب :

ـ اقبله أو ارفضه .. هذا لا يعنينى فى كثير أو قليل .. ما دمت ستتركنى من أجل طفل تافه ، فلم يكن هناك من داع لقدومك .

تصاعد غضبه ، وهو يقول :

ـ (عايدة) .. إياك أن تنسى أننى (حسين البنهاوى) .

صرخت فى ثورة جنونية :

ـ وأنا (عايدة) .. الأميرة (عايدة) .

ثم ضغطت فرامل السيارة ثانية ، وعلى نحو أزعج رواد الطريق كلهم ، قبل أن تتابع صارخة :

ـ ولا أريدك فى سيارتى .. هيا .. أخرج .

صدمه قولها ، فاتسعت عيناه دهشة واستنكارًا ، وهو يهتف :

ـ (عايدة) !

صرخت كالمجنونة ، وهى تضرب المقود بقبضتيها :

ـ قلت لك اخرج .. اخرج قبل أن أنادى أحد رجال الشرطة .

ثم التفتت إليه بعينين تحملان غضب الدنيا كله ، مستطردة :

ـ ولا أعتقد أن رجال الشرطة هنا يدخلون ضمن نطاق سلطتك أيضًا .. أليس كذلك ؟

احتقن وجهه بشدة ، وانعقد حاجباه حتى كادا يمتزجان ، وهو يقول :

ـ ستدفعين ثمن هذا يا (عايدة) .. ستدفعينه غاليًا .

أشاحت بوجهها فى ازدراء ، فتضاعف احتقان وجهه ، حتى خُيِّل إليه أنه سينفجر ، وهو يدفع باب السيارة ، التى لم يكد يغادرها ، حتى انطلقت بها (عايدة) مبتعدة ، دون حتى أن تعيد إليه أمتعته ، وتركته يقف هناك وحيدًا ..

فى قلب (باريس) ..

★ ★ ★

لم تتغيَّر القرية كثيرًا ، فى السنوات الثلاث الماضية ..

كل شىء بقى على هيئته ، وفى نفس موضعه ، كما لو أن يد الزمن قد نسيته ، فلم تمرّ عليه بأصابع التغيير والتبديل ، أو حتى التطوير ..

الوحدة الصحية مازالت تحتل مكانها ، فى مدخل القرية ، وعلى قيد أمتار منها موقف السيارات الصغير ، الذى تطلّ عليه مباشرة قهوة (جودة) ..

والقهوة لم تتغيَّر قط ..

كل ما حدث هو أن مقاعدها وموائدها ازدادت قدمًا وتهالكًا ، وأصبح هناك صبيان يعاونان (جودة) فى القهوة صباحًا ، وفى ترويج مخدراته ليلًا ..

الشىء الوحيد ، الذى ربما يلفت انتباهك ، لو أنك من المترددين على المكان ، هو (مفيد البنهاوى) ..

لقد كان فى الماضى يكتفى بالمرور بالقهوة ، عندما يتوجَّه من سراى والده الراحل إلى الموقف ، أو العكس ، أما الآن فقد صار زبونًا دائمًا فى المقهى ، يقضى فيه معظم يومه ، وجزءًا من ليله ..

ولكن ، لو أنك لم تتردَّد على المكان منذ فترة طويلة ، لكان من الصعب عليك أن تنتبه لوجود (مفيد) ..

ربما لأنه ـ بطبعه ـ هادئ رصين ، لا تكاد تشعر بوجوده ، إلا لو تحدَّث إليك مباشرة ..

أو لما أصابه من تغير ..

لقد ازداد نحولًا ، حتى بدا أشبه بهيكل عظمى ، يكسوه بعض الجلد ، دون شحم أو لحم ، ولم يعد يهتمّ بمظهره ، أو تصفيف شعره ، أو حتى حلاقة لحيته ..

هكذا رآه الحاج (سعفان) ، عمدة القرية الجديد ، فى ذلك الصباح ، فتنهَّد فى أسى ، وهو يقول لشيخ الخفراء (بسيونى) :

ـ ماذا أصاب (مفيد) بك ؟.. لقد صار أشبه بشخص محطَّم .

أجابه (بسيونى) فى حزن :

ـ إنه كذلك بالفعل .. لقد صار زبونًا مستديمًا عند ذلك الشيطان (جودة) ، الذى علَّمه تدخين المخدرات ، حتى يستنزف أمواله أوَّلًا فأوَّلًا .

ضرب الحاج (سعفان) كفًّا بكف ، وهو يقول :

ـ المخدرات ؟!.. (مفيد) ابن (محمد البنهاوى) يدخن المخدرات ؟!.. يالها من مصيبة !.. من يصدِّق هذا ؟.. لقد كنت أتصوَّر أن (مفيد) هذا بالذات لا يمكن أن يسير فى طريق الخطأ أبدًا .. ماذا أصابه ؟

هزَّ (بسيونى) رأسه فى أسى ، وهو يقول :

ـ إنه بشر من لحم ودم يا جناب العمدة .. كيف تتوقع منه أن يحتمل كل ما أصابه .. فقد (مديحة) ، بنت عم (إسماعيل) ، ثم خطيبته الطنطاوية .. ولم يستطع منع شقيقه من تدمير (فاطمة) وأبيها ، و ...

قاطعه الحاج (سعفان) فى توتر شديد :

ـ لا تتحدَّث عن هذا يا (بسيونى) .. لا شأن لنا بعائلة (البنهاوى) .. إنهم يديرون شئونهم بأنفسهم .

كاد (بسيونى) يطلق ضحكة كبيرة ، ولكنه كتمها فى أعماقه ، وهو يتطلَّع إلى قفا الحاج (سعفان) ، ويغمغم فى نفسه :

ـ بالطبع يا جناب العمدة .. بالطبع .. فمن لدغه الثعبان يخشى الحبل ، ومن لم يتعلَّم مما أصاب اثنين من العمداء قبلك ، فهو أعمى البصر والبصيرة .

قال هذا فى أعماقه ، ثم أضاف بصوت مسموع :

ـ أنت على حق يا جناب العمدة .. مالنا نحن وعائلة البنهاوية .. إنهم يديرون شئونهم بأنفسهم ، وربما أفضل مما سنفعله نحن .

أجابه الحاج (سعفان) فى سرعة :

ـ بل أفضل بكثير .. إن (حسين) بك وحده يـ ...

بتر عبارته بغتة ، وانتفض جسده فى عنف ، فهتف (بسيونى) ، وهو ينتزع بندقيته من كتفه بسرعة :

ـ ماذا حدث ؟

صاح الحاج (بسيونى) ، وهو يعدو نحو قهوة (جودة) :

ـ (مفيد) بك .. (مفيد) بك ..

اتسعت عينا (بسيونى) ، وهو يحدِّق فى القهوة ، حيث سقط (مفيد) أرضًا ، والتفَّ حوله عدد من رواده ، وقد بدأت هيئته المزرية وملامحه الشاحبة وكأنه قد انهار أو ..

أو مات ..

* * *

٢ ـ الضيـاع ..

ضربت (نعيمة) صدرها براحتيها ، وهى تندفع داخل السراى ، وتصرخ فى هلع وجزع :

ـ (مفيد) .. أخى (مفيد) .. ماذا أصابه ؟.. كيف هو ؟

استقبلتها (فاطمة) بعينين دامعتين ، وهى تقول :

ـ بخير يا (نعيمة) .. بخير بإذن الله .. لقد أصابه التعب فى مقهى (جودة) ، ولكنهم حملوه إلى الوحدة الصحية ، و ...

لطمت (نعيمة) صدرها مرة أخرى ، وهى تهتف مستنكرة :

ـ الوحدة الصحية ؟!.. أخى أنا يُعالج فى الوحدة الصحية ؟!.. ماذا يقول الناس ؟!.. لماذا لم ترسلى فى استدعاء أكبر طبيب فى (طنطا) يا ابنة الكلاب .

انعقد حاجبا (فاطمة) الكثين فى غضب ، وقالت بصوتها الأجش فى حدة :

ـ لست ابنة كلاب ، بل أنا زوجة شقيقك .

صاحت (نعيمة) وهى تلوّح بذراعيها :

ـ زوجة البؤس والندامة .. كان يومًا أسود .

حبست (فاطمة) دموعها فى عينيها ، وهى تشيح عنها ، قائلة :

ـ أسود أو أبيض .. إنها القسمة والنصيب ، ولا فائدة فى الولولة على هذا الآن .. المهم أن ينهض (مفيد) بالسلامة ..

قالتها ، وغادرت المكان كله ، متجهة إلى حجرتها ، فصاحت بها (نعيمة) :

ـ أين تذهبين أيتها اللعينة ؟.. كيف تنصرفين من هنا ، قبل أن أسمح لك بهذا ؟.. كيف ؟

هرعت إليها (شريفة) ، وهى تقول متوترة :

ـ ماذا حدث يا (نعيمة) ؟.. الطبيب طالبنا بالتزام الهدوء ، وأنت تملئين الجو صراخًا .. ألا تخافين على صحة (مفيد) ؟

تذكَّرت (نعيمة) بغتة أنها هنا لرؤية (مفيد) ، فاستعادت جزعها كله دفعة واحدة ، وهى تقول :

ـ أين هو ؟.. ماذا حدث ؟

تنهَّدت (شريفة) ، وهى تجيب :

ـ إنه لم يتناول طعامًا منذ أسبوع كامل ، ويذهب كل يوم ليدخِّن ذلك السم ، فى مقهى (جودة) ، ولم يحتمل جسده كل هذا ، ففقد الوعى .

قالت (نعيمة) غاضبة :

ـ يا لـ (جودة) وقهوته اللعينة !.. إلى متى سيبقون ذلك الشيطان هنا ؟

أجابتها (شريفة) فى حزم :

ـ سأبلغ (حسين) بأمره ، عندما يعود من السفر غدًا .

سألتها (نعيمة) فى دهشة :

ـ هل أخبرك أنه سيعود غدًا ؟

هزَّت رأسها ، وهى تقول :

ـ كلَّا ، ولكن عيد ميلاد (طارق) غدًا ، و (حسين) لا يتخلَّف عن عيد ميلاد (طارق) أبدًا .

مطَّت (نعيمة) شفتيها ، وعقدت حاجبيها ، وهى تقول فى سخط :

ـ (طارق) .. (طارق) .. دائمًا هذا الولد .. إننى أكرهه بسبب أمه الحقيرة ، التى تصرّ دائمًا على التعامل معنا وكأنها واحدة منا .

زفرت (شريفة) ، وهى تقول :

ـ ماذا أفعل أنا إذن ؟.. إننى أقيم معها فى منزل واحد ، ومشاجراتنا ومشاحناتنا لا تنتهى أبدًا .

هتفت (نعيمة) :

ـ يا للحقيرة !.. لا تينسى يا (شريفة) .. كل هذا سينتهى عندما تتزوَّج.....

بترت عبارتها دفعة واحدة ، قبل أن تنطق الكلمة ..

ولكن (شريفة) فهمت ..

وانقبض قلبها فى مرارة ..

فهمت أن شقيقتها تعنى أن كل شىء سينتهى عندما تتزوَّج .. هذا لو تزوَّجت ..

وسالت دموع قلبها اليائس فى مرارة ، وهى تسترجع أحداث المرتين ، اللتين تقدَّم فيهما من يطلبانها للزواج ..

مرة طلب (فؤاد) يدها ، ثم تركها ليتزوَّج شقيقتها (ناهد) ..

ومرة أحبَّت (أمجد) ، زميل (حسين) ، ولكن الأخير رفض الموافقة على هذا الزواج ..

رفض بشدة ..

، (شريفة) .. أنا لم أقصد هذا .. ،

قطعت (نعيمة) أفكارها بهذا القول ، فحاولت أن تبتسم ، إلا أن ابتسامتها جاءت حزينة مضطربة ، وهى تقول :

ـ لا بأس يا (نعيمة) .. لا بأس يا شقيقتى .

وكمحاولة لكبح دموعها ، أبدلت مسار الحديث ، وسألت (نعيمة) :

ـ أين (عمر) ؟

لم تدر لماذا اختارت هذا السؤال بالذات ، من دون الأسئلة جميعها ، فقد ارتبكت (نعيمة) ، وهى تقول :

ـ إنه مشغول بشدة فى المصنع ، ولكنه سيأتى بإذن الله لرؤية (مفيد) ، بعد أن ...

لم تتم عبارتها ، ولم تحاول (شريفة) أن تسألها عن بقيتها ، فهى تعلم أن (عمر) قد أقسم ألا يطأ أرض السراى بقدمه قط ، منذ أجبره (حسين) يومًا على أن يطلّق زوجته (فاتن) ، ابنة (شاهين الحبروك) ، وأن يعيد (نعيمة) إلى عصمته ..

وحتى بعد أن استسلمت (نعيمة) للأمر ، ورضيت بأن يتزوّج (عمر) أخرى ، حتى لا يحيا معها كارهًا ، لم يتراجع (عمر) عن قسمه ..

ولم يدخل السراى قط ..

وفى توتر ، قالت (نعيمة) ، وهى تتجه إلى سلم السراى الداخلى :

ـ هل (مفيد) نائم أم مستيقظ ؟

أجابتها فى خفوت :

ـ بل مستيقظ ، ومعه (توحيدة) و (عبد الحكيم) فى حجرته .

قالت (نعيمة) ، وهى تصعد فى درجات السلم بسرعة :

ـ سأنضم إليهم إذن .

هتفت بها (شريفة) :

ـ سأعدّ الشاى ، وألحق بكم .

وراقبت (نعيمة) ، حتى اختفت فى الدور العلوى ، ثم أطلقت دموعها الحبيسة فى مقلتيها ، وتركتها تنحدر على وجنتيها ..

ولكن هذه الدموع لم تكن تحمل حزنها على شقيقها (مفيد) ، وإنما كانت تحمل توقيعًا آخر ..

توقيع (أمجد) ..

★ ★ ★

انهمك (مراد صقر) فى مراجعة بعض التقارير الواردة من (سوريا) ، والتى تحوى الكثير من المعلومات عن تنظيم جديد مناهض للوحدة ، التى أقامتها معها (مصر) ، فى عام (١٩٥٨م) ، وانعقد حاجباه وهو يراجع الأسماء والوظائف ، قبل أن يرتفع أزيز منخفض من جهاز الاتصال فوق مكتبه ، فضغط زره فى آلية ، وهو يقول :

ـ نعم .

أتاه صوت مدير مكتبه ، قائلًا فى احترام :

ـ سيادة العقيد (إبراهيم مكّى) يطلب مقابلتك يا سيادة المدير .

اعتدل (مراد صقر) فى اهتمام واضح ، وهو يقول :

ـ دعه يدخل فورًا .

واكتسى وجهه بذلك القناع الجامد ، الخالى من المشاعر ، الذى يستقبل به مرءوسيه فى المعتاد ، وشبك أصابع كفيه على سطح مكتبه ، وهو يتطلّع إلى الباب ، الذى انبعثت منه ثلاث طرقات خافتة ،

قبل أن يفتحه (إبراهيم مكى)، ويدلف إلى الحجرة، قائلًا بابتسامته الهادئة، التى تمنحك شعورًا سخيفًا بأنه يستهين بك دائمًا :

ـ صباح الخير يا (مراد) بك .

أشار إليه (مراد صقر)، قائلًا :

ـ ادخل يا (إبراهيم) .

أغلق (إبراهيم) الباب فى هدوء شديد، وتقدَّم نحو المكتب فى بطء، وكأنه يتعمَّد إثارة لهفة رئيسه وتوتره، ثم جلس على المقعد، وترك جسده يغوص فيه فى استرخاء، قبل أن يقول :

ـ أعتقد أننا نقترب من الهدف يا (مراد) بك .

سأله (مراد) فى اهتمام واضح :

ـ ألديك أخبار جديدة ؟

أخرج (إبراهيم) من جيبه مظروفًا، ناوله لرئيسه، وهو يقول :

ـ هذه الصور أرسلها (حلمى) من (باريس) .

التقط (مراد صقر) المظروف، وهو يقاوم لهفته، التى تلح فى اختطافه خطفًا، وفضه بأصابع لم تنجح فى كتمان انفعالها، وأخرج الصور .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

كانت مجرَّد مجموعة من الصور، تجمع (حسين) بالأميرة (عايدة)، وهما يلتقيان فى (باريس)، ثم وهما يستقلَّان سيارتها معًا ..

ولم يدر (مراد صقر) كيف يمكن أن تُستخدم مثل هذه الصور، لتحطيم (حسين البنهاوى) ..

إنها مجرَّد صور ..

صحيح أن (عايدة) أميرة سابقة، من أميرات العهد الملكى البائد ..

ولكن ماذا فى هذا ؟..

لقد ثبتت الجمهورية أقدامها جيدًا، ولم تعد تحمل تلك الحساسيات القديمة للأسرة المالكة كذى قبل ..

وفى شىء من الغضب، ترجم (مراد صقر) أفكاره إلى كلمات مسموعة، وهو يقول :

ـ ما الذى تعنيه هذه الصور ؟

أجابه (إبراهيم) فى هدوئه المستفز :

ـ إنها تثبت وجود علاقة وثيقة، بين (حسين البنهاوى)، والأميرة (عايدة) .

تراجع (مراد صقر)، وحاول أن يسيطر على أعصابه، حتى لا ينفجر فى وجه (إبراهيم مكى)، وعلى الرغم من هذا، فقد بدت عبارته أشبه بالرصاصة، وهو يقول :

ـ وبِمَ يمكن أن يفيدنا هذا ؟

هزَّ (إبراهيم) رأسه، وبدت ابتسامته لـ (مراد صقر) بغيضة، وهو يقول :

ـ فى الوقت الحالى، لن يفيدنا بأى شىء .

التقى حاجبا (مراد صقر) فى شدة، حتى كادا يمتزجان، وهمَّ بقول شىء ما، لولا أن أضاف (إبراهيم) بسرعة :

ـ أما فيما بعد، فسيفيدنا كثيرًا .

بقى (مراد صقر) صامتًا لحظات، وهو يتطلَّع إلى وجه (إبراهيم مكى)، محاولًا استشفاف ما يدور فى ذهنه ..

ولكنه لم ينجح أبدًا ..

وفى أعماقه ، وعلى الرغم من قوة منصبه ، ومن أنه الرئيس الأعلى لـ (إبراهيم مكى) ، شعر ببعض الرهبة تجاهه ..

إنه يعلم جيدًا أن (إبراهيم مكى) ليس بالرجل الهيّن ..

إنه مزيج من ثعلب ماكر ، وذئب مفترس ، فى ثوب آدمى نصف معتم ، لا يمكن أن تتبين ما خلفه قط ، إلا لو مزّقته ..

وربما كان هذا هو السر فى بقاء (إبراهيم) طوال هذه الفترة ، من البوليس السياسى فى العهد الملكى ، إلى ذلك الجهاز الأمنى الخطير فى عصر الجمهورية ..

وفى بطء ، قال (مراد صقر) :

ـ ومتى يأتى (فيما بعد) هذا ؟

رفع (إبراهيم) حاجبيه وخفضهما ، وهو يجيب :

ـ عندما تكتمل أركان القضية ، ونثبت التهمة على الأميرة السابقة (عايدة) .

سأله (مراد صقر) فى حذر :

ـ أية قضية ؟

اتسعت ابتسامة (إبراهيم) قليلًا ، وهو يميل نحو رئيسه ، ويجيب فى لهجة عجيبة يسيل منها الدهاء سيلًا :

ـ قضية التجسّس لحساب دولة أجنبية .

انعقد حاجبا (مراد صقر) ، وهو يتراجع فى مقعده فى بطء ، وعيناه تحدقان فى وجه (إبراهيم مكى) ، وابتسامته المخيفة ..

لقد فهم ما يدبّره (إبراهيم) لـ (حسين البنهاوى) ..

فهمه ، وتضاعفت فى أعماقه مشاعر الرهبة تجاه (إبراهيم) ..

تضاعفت ألف مرة ..

★ ★ ★

أخيرًا ، أصبح (مفيد) وحده ..

فمنذ استعاد وعيه فى حجرته ، لم يخل المكان لحظة واحدة من الزائرين ، الذين أتوا للاطمئنان عليه ، من أفراد أسرته وأبناء القرية ، الذين بدا جزعهم واضحًا ، ممتزجًا بأسفهم على ما آل إليه حاله ، مما ملأ نفسه بالألم والمرارة ، وجعل الدموع التى كبتها فى عينيه ، تسيل أنهارًا فى قلبه ، ويغصّ بها حلقه ، فلم يستطع النطق بكلمة واحدة ، على الرغم من وجود الجميع حوله ..

كان يشعر أن شفتيه تطبقان على دموعه ، وتسجنانها خلفهما ، ولو أنه فتحهما ليتكلّم ، ستنهمر الدموع من عينيه دون انقطاع ..

حتى الابتسامة ، كان يعجز عن تزييفها على شفتيه ، ولكن الجميع التمسوا له العذر ، باعتبار أنه مريض منهك ، واكتفوا بحديثهم الحنون المجامل له ، فلم يجد أمامه سوى التظاهر بالنوم ، حتى يصمتوا ، أو ينصرفوا عنه ..

وأخيرًا ، تحقّق له ما أراد ، وانصرف الجميع على أصابعهم ، بناءً على نصيحة زوج شقيقته (عبد الحكيم) ، وأغلقوا عليه باب حجرته ، بعد أن أطفئوا الأنوار ، لينام ملء جفنيه ..

وفى تلك اللحظة فقط ، أطلق (مفيد) سراح دموعه ، وتركها تنهمر لتغرق وجهه النحيل ..

ما الذى أصابه ؟!..

كيف وصل به الحال إلى هذا ؟!..

أهو فشله المتكرّر فى علاقاته العاطفية ؟!..

لقد أحب (مديحة) حبًا لا يمكن وصفه فى صباه ، وتعاهدا على أن يتزوّجا ، عندما ينتهى من دراسته الجامعية ..

ولكن (حسين) لم يرض بهذا ..

لقد انتزعها منه ..

بل انتزع منه قلبه ، دون شفقة أو رحمة ، وألقاه أمام عينيه فى أتون ملتهب ، من الحزن والمرارة والعذاب ..

ولم ينس قلبه هذا ..

لم ينسه أبدًا ..

لقد ظلّ ينزف بحب (مديحة) طوال عام كامل ، قضاه فى البحث عنها ، حتى أنهكت روحه ، وتحطّم أمله ، والتهمه اليأس القاتل ..

ثم ظهرت (سوسن) ..

تلك الرقيقة الجميلة الهادئة ، التى ضمّد حبها جراح قلبه ، وداواه ببلسم شاف ، فعاد يخفق مرة أخرى بالحب ..

ولكن القدر كان له بالمرصاد ..

أو هو قلبه ، الذى لم يقنع بذلك الحب العظيم ، الذى منحته إياه (سوسن) ، فلم يكد يلمح (مديحة) ذات يوم ، حتى ألقى كل مشاعره خلفه ، وركض يحتضن ذكرياته ..

وفى هذه المرة ، خسر (سوسن) ..

خسرها ؛ لأن قلبه لم يخرج من سجن (مديحة) بعد ..

لم يستطع نسيانها ، على الرغم من فيض الحب والحنان ، الذى غمرت به (سوسن) قلبه ..

ولو أنه صادق مع نفسه ، لاعترف بأنه لم ينسها حتى الآن ..

حتى هذه اللحظة ..

ولكنه لم يعد يبحث عنها ..

بل ، وصار يتمنى لو أن عينيها لا تلتقيان قط بعينيه ..

وخاصة وهو على هذه الصورة ..

لم يكد يبلغ هذا القدر من تفكيره ، حتى اختنق بغصة كبيرة فى حلقه ، وامتلأت أعماقه بمرارة لا حدّ لها ، فتحامل على نفسه ، ونهض من فراشه ، وسار مترنحًا عبر الحجرة ، حتى توقف أمام المرآة الصغيرة ، وتطلّع إلى وجهه فيها ..

ولولا أنه واثق من أن هذه الصورة ، التى تطالعه فى المرآة ، هى صورته شخصيًا ، لاستنكر واستهجن بشدة هذا الوجه البشع ، الذى يطلّ عليه ..

وجه نحيل أشعث الشعر ، نمت لحيته على نحو عشوائى ، وتجعّدت ثيابه تحتها بشكل بشع ..

ولثوان ، وقف (مفيد) يحدّق فى وجهه فى المرآة ، قبل أن يتمتم :

- لا فائدة .. لا فائدة .

ومن عينيه انهمرت الدموع فى غزارة مرة أخرى ، وفى ذهنه ، بدا له وجهه أشبه بوجه مسخ رهيب ، أو عفريت من الجن ، فخفض عينيه ، وهو يبكى ، ويتمتم فى ألم وأسى :

- ماذا أصابنى ؟.. ماذا أصابنى ؟

ولم يدر لماذا امتلأ ذهنه لحظتها بصورة واحدة ..

صورة (حسين) ..

لقد بدأت كنقطة صغيرة فى أعماقه ، ثم راحت تتعاظم وتتعاظم ، حتى أصبحت لوحة عملاقة ، تحتل تفكيره كله ..

وفى بطء ، انحنى (مفيد) يفتح الدرج الصغير أسفل المرآة ، والتقط منه موسى حلاقة جديدًا ، وتطلع مرة ثانية إلى لحيته وشعره الأشعث ، ثم قال فى أسى :

ـ سامحينى يا (مديحة) .. سامحينى يا (سوسن) .. سامحونى جميعًا .

وانتزع الموسى من غلافه ، و ...

وقطع شريان معصمه الأيسر .

* * *

٣ ـ طـارق ..

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه (صلاح) ، لم تنجح فى إخفاء شىء من ملامحه الغليظة ، ولا من أمارات الخبث المحفورة فى قسماته ، وهو يستقبل (حسين) فى المطار ، ويهتف فى لهجة يقطر منها النفاق :

ـ (حسين) بك .. حمدًا لله على سلامتك يا (حسين) بك ..

صافحه (حسين) فى تعال ، وهو يقول :

ـ كيف حالك يا (صلاح) ؟.. وكيف حال الجميع فى الإدارة ؟

سار (صلاح) إلى جواره فى خطوات سريعة ، أقرب إلى العدو ، مع قامته القصيرة الممتلئة ، وهو يجيب لاهثًا :

ـ كل شىء على ما يرام يا (حسين) بك .. لقد افتقدناك كثيرًا .

ثم تلفت حوله ، وسأل :

ـ ولكن أين حقائبك يا (حسين) بك ؟

بدا الضيق على وجه (حسين) ، وأجاب فى شىء من الصرامة ، وهو يلوّح بالحقيبة التى يحملها :

ـ لقد اكتفيت بهذه .

هتف (صلاح) :

ـ ولكن ...

كان يرغب فى القول بأنه شاهده يسافر وبصحبته ثلاث حقائب ، إلا أنه أدرك بسرعة أنه ليس من حقه دس أنفه فى مثل هذا الأمر ، فاستدرك بسرعة ، وهو يفتح باب السيارة :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (حسين) بك .

دلف (حسين) إلى السيارة، ودسّ (صلاح) نفسه إلى جواره، وهو يشير إلى السائق، الذى انطلق على الفور، فاعتدل (حسين)، وسأل فى هدوء :

ـ هل وصلت المعلومات المطلوبة من (سوريا) ؟

أومأ (صلاح) برأسه إيجابًا، وهو يقول :

ـ وصلت يا (حسين) بك، ولكنها ليست جيِّدة كما كنا نتمنى .

سأله (حسين) فى اهتمام :

ـ ماذا تعنى بأنها ليست جيِّدة ؟

أجابه (صلاح)، وهو يقلب كفه بحركة سخيفة :

ـ إنهم لا يميلون للوحدة هناك، وبعضهم يهاجمها، ويطالب بالانفصال .

رفع (حسين) حاجبيه فى دهشة، وهو يقول :

ـ عجبًا !.. السوريون يطالبون بفصم الوحدة ؟!.. من يصدّق هذا ؟.. أليسوا هم من حملوا سيارة الرئيس (جمال عبد الناصر) بأيديهم، عندما زارهم هناك، إثر إعلان الوحدة، عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين .

أجابه (صلاح) فى خبث :

ـ هذا صحيح يا (حسين) بك، ولكن الأمور تغيّرت كثيرًا منذ ذلك الحين .

سأله (حسين) فى شىء من الحدة :

ـ أية أمور ؟

تراجع (صلاح)، ولوّح بكفيه، وهو يقول :

ـ ليس هذا رأيى الشخصى، ولكننى سأنقل إليك ما تقوله التقارير، عما يردّدونه هناك .

ثم عاد يميل عليه، شأن من يهم بكشف سر خطير، وهمس :

ـ إنهم يقولون هناك : إن المصريين يتعاملون فى (سوريا) وكأنهم جيش احتلال، وليس باعتبار البلدين مندمجين فى وحدة شاملة، والبعض يشير إلى أن (عبد الحكيم) يتصرّف هناك كإمبراطور، وليس كحاكم عادى ديموقراطى، و ...

قاطعه (حسين) فى حزم :

ـ هراء .. كل هذا كذب وافتراء .. لقد تعاملت مع المشير (عبد الحكيم) بنفسى، وهو رجل طيب القلب، مباشر وصريح، ومثله لا يتحوّل أبدًا إلى ديكتاتور .

ارتسمت على شفتى (صلاح) ابتسامة خبيثة، وهو يقول :

ـ الطيبة لا تصلح لصنع قائد ناجح .

التفت إليه (حسين) غاضبًا، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى يا (صلاح) ؟.. هه .. ماذا تعنى ؟

تراجع (صلاح) فى سرعة، وهو يجيب :

ـ ناقل الكفر ليس بكافر يا (حسين) بك .. إننى أردّد ما ورد فى التقارير فحسب .

كان كأى داهية، يعلم جيدًا متى يتراجع، متى ينحنى أمام العاصفة، ولكن (حسين) لم ينتبه إلى هذه المناورة الخبيثة، وإنما تراجع عن غضبه بسرعة، وعاد يسترخى فى مقعده، وهو يقول :

ـ فليكن .. عندما نصل إلى الإدارة، سأراجع هذه التقارير فى سرعة، قبل أن أسافر إلى قريتى .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، تحمل شيئًا من الحنان ، وهو يستطرد :

ـ إنه عيد ميلاد (طارق) كما تعلم .

تنحنح (صلاح) ، وهو يقول :

ـ أعلم يا (حسين) بك .. أعلم .. ولكن ..

وتردَّد لحظة ، جعلت (حسين) يعتدل ، ويسأله فى قلق :

ـ ولكن ماذا ؟

خفض (صلاح) صوته ، وهو يجيب :

ـ ولكننى أعتقد أنه من الأفضل أن تتجه إلى القرية مباشرة .

وثب قلب (حسين) فى عنف ، عندما سمع هذا القول ، الذى يحمل معنى مزدوجًا ، يكفى كل من طرفيه لتوجيه ضربة قاصمة إليه ..

هل يعنى (صلاح) أنه من الأفضل أن يتجه إلى القرية مباشرة ؛ لأنه لم يعد من المسموح له أن يدخل مبنى الإدارة ، أم أنه يعنى أن كارثة قد حدثت فى القرية ؟!

قارن الأمرين فى رأسه بسرعة ، ووجد نفسه يتمنى لو أن المعنى الثانى هو الصحيح ، وحمل صوته توتره وقلقه ، وهو يسأل :

ـ لماذا ؟.. ماذا حدث ؟

خفض (صلاح) عينيه ، وهو يقول :

ـ إنه أمر يتعلق بـ (مفيد) بك .. شقيق سيادتكم .. أمر محزن ، و ...

ولم يتم (صلاح) عبارته ، مع الدهشة العارمة التى ملأت نفسه ، إزاء رد الفعل المباشر ، الذى بدر من (حسين) ..

وكان رد الفعل هذا يقتصر على تنهيدة ..

تنهيدة ارتياح ..

★ ★ ★

انهمرت دموع (فاطمة) غزيرة ، وهى تتكمش فى ركن سريرها ، فى الحجرة التى تجمعها بزوجها (حافظ) وابنها (طارق) فى السراى ، ومدَّ الأخير يده الصغيرة ، يربّت بها على كتفها ، وهو يهمس فى حنان طفولى عذب :

ـ لا تبكى يا أمى .. سأضربهم جميعًا .. سأضرب كل من أساء إليك .. لا تبكى .. أرجوك .

ضمته إلى صدرها فى حنان ، لم يمنعها من التحدّث بنبرة قاسية ، وهى تقول :

ـ نعم يا (طارق) .. ستضربهم جميعًا .. سيأتى يوم تصبح فيه على رأس الجميع ، وعندئذ لا ترحمهم .. لا ترحمهم أبدًا .

رفع (حافظ) عينيه الحزينتين إليها ، وهو يقول :

ـ لا تزرعى روح الانتقام فى أعماق الولد يا (فاطمة) .

أجابته فى حدة ، وهى تضمّ (طارق) إلى صدرها أكثر وأكثر :

ـ وما الذى أزرعه سواها يابن (البنهاوى) ؟.. هل يرضيك ما آل إليه حالنا ، منذ حرمنا (حسين) من نصيبنا فى إيراد الأرض ؟.. ألم تنتبه أبدًا إلى أننى لم أبدل ثوبى هذا ، منذ عامين على الأقل ؟!.. لقد نفَذ تهديده ، ولم يعد يمنحنا إلا طعامنا وشرابنا فحسب ، وحتى هذان تتحكَّم فيهما تلك العقربة (شريفة) .

قال فى ضعف :

ـ ولكنه يبتاع الثياب الجديدة لـ (طارق) باستمرار .

هتفت فى حنق :

ـ يا لفرحتى وسعادتى .. يحرموننا من الخبز والماء ، ويبتاعون لابننا أفخر الثياب !.. ماذا دهاك يا رجل ؟.. هل فقدت شعورك وإحساسك ؟!.. لماذا لا تطالب شقيقك بنصيبك الشرعى من إيراد الأرض ؟.. أليس هذا حقك ؟.. أليس حقنا جميعًا ؟!

خفض عينيه ، قائلًا فى مرارة :

ـ لا يمكننى أن أطالب (حسين) بهذا .

صرخت فى غضب ساخط :

ـ أعلم .. أعلم أنك لا تستطيع مطالبة أى مخلوق بأى شىء .. أعلم أن نصيبى فى الدنيا هو أن أعيش فى كنف رجل ضعيف .. ظل رجل .. بل ربما كنت أقل من هذا .

ارتجفت شفتاه ، وهو يقول :

ـ لو أن أبى لم يمت ..

قاطعته صائحة :

ـ هل ستعود لتكرار هذا القول السخيف ؟.. لقد مات والدك يا سيِّد الرجال .. مات ولن يعود من قبره قط .. حاول أن تفهم هذا .. حاول ..

تفجَّرت الدموع من عينيه بغتة ، وراح يبكى وينتحب فى مرارة ، كطفل صغير أساء إليه والداه ، أو فقد أعزّ لعبة إليه ..

والعجيب أن دموعه هذه كانت تهزمها دائمًا ..

كانت تبغض ضعفه واستسلامه ، وتتمنى لو أنه يتحوَّل إلى أسد هصور ، يواجه (حسين) وعائلة (البنهاوى) كلها ؛ ليستعيد حقوقه ، ويدافع عنها وعن ابنهما ..

ولكنه ، ما إن يبكى ، حتى ينقلب شعورها تجاهه على الفور .. إنها تفقد الشعور بأنه زوجها ، وتقبل عليه كما لو كان ابنًا لها .. بل تشعر وكأنه ابنها البكرى ، من قبل أن تنجب (طارق) ..

وفى حنان ، أزاحت الصغير جانبًا ، وهرعت إلى (حافظ) ، واحتوته بين ذراعيها ، وضمَّته إلى صدرها ، وراحت تمسح رأسه فى حنان ، هامسة :

ـ كفى .. كفى يا (حافظ) .. صدقنى .. أنا لم أقصد كل هذا ، ولكن أختك (نعيمة) استفزتنى لليوم الثانى على التوالى ، بإصرارها على أن تتعامل معى كما لو كنت خادمة ، وليس باعتبارى زوجة شقيقها .

بكى أكثر ، وكأنما يشعر بضعفه وهوانه ، ويتحسَّر على نفسه ، فضمَّته إلى صدرها أكثر ، وشاركته بدموعها ، وهى تتابع :

ـ إنها تمنعنى حتى من الاطمئنان على (مفيد) .. الوحيد من بين أشقائك ، الذى أشعر بأنه يحبنا ويحنو علينا دائمًا .

قاوم دموعه ، وانتحب وهو يسألها :

ـ وكيف حاله الآن ؟

أجابته وابتسامتها تمتزج بدموعها :

ـ لقد نجا .. حمدًا لله .. (طارق) هو الذى أنقذه .

رفع عينيه الدامعتين إليها ، وقال فى دهشة :

ـ (طارق) ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تقول :

ـ نعم ، فبعد انصراف الزائرين ، أصرَّ على رؤية عمه .. أنت تعلم كم يحبه .. واصطحبته (شريفة) لرؤية (مفيد) فى حجرته ،

ففوجئت به واقفًا أمام المرآة ، والدماء تسيل من معصمه ، فلم يكن منها إلا أن راحت تصرخ وتولول ، وجرت حافية إلى الوحدة الصحية ، فهرع معها الطبيب إلى هنا ، وأنقذه من الموت .

خفض (حافظ) رأسه ودفعه فى صدرها أكثر ، وكأنما يشعر معها بالأمان ، وهو يردد :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى بلغت مسامعهما جلبة واضحة ، من ناحية مدخل السراى ، وتحرّك (طارق) بغتة ، فانتبهت أمه إليه ، بعد أن ظلّ صامتا طوال الوقت ، يراقب ما يدور بين والديه برهبة عجيبة ، واتجه نحو الباب ، وهو يهتف بطفولته البريئة :

ـ لقد وصل عمى (حسين) ، وصل عمى (حسين) .

وانعقد حاجبا (فاطمة) الكثين فى شدة ، مع هذا الهتاف ..

إذن ، فقد وصل (حسين) إلى السراى ، وهذا سيعنى أيامًا جديدة من التعب ..

ومن المهانة ..

★ ★ ★

، كيف فعلت بنفسك هذا ؟!.. ، .

صرخ (حسين) بالعبارة فى وجه (مفيد) ، الذى رقد فى فراشه صامتًا شاحبًا ، فى هيئة تدعو للرثاء ، ولكن (حسين) تابع فى صرامة وغضب ..

ـ ماذا يقول الناس ، عندما يعرفون أن ابن (البنهاوى) قد مات منتحرًا ؟!.. كيف يكون موقفى أمام رؤسائى ؟

رمقه (مفيد) بنظرة حانقة ، وهو يقول فى ضعف :

ـ أهذا كل ما يهمك ؟

كان يعلم الجواب مسبقًا ، إلا أنه تمنى من أعماقه لو أن شقيقه استنكر هذا ، وأعلن أنه إنما يفعل هذا من أجله ..

ولكن (حسين) لم يفعلها ..

لقد أجابه فى قسوة ، لا تحمل ذرة من المجاملة :

ـ بالطبع .. هذا كل ما يهمنى .. لو أن حماقتك بلغت ذلك الحد ، الذى يجعلك تقدم على الانتحار ، فهذا شأنك .. ألق نفسك فى التهلكة لو أردت ، ولكن لا تجعل هذا يمس عملى أو مستقبلى ، أو سمعتى .

عضّ (مفيد) شفتيه فى مرارة ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا (حسين) بك .. فى المرة القادمة سأحرص على أن يبدو الأمر كحادث عادى ، لا يسىء إلى سمعتك ومستقبلك .

رمقه (حسين) بنظرة قاسية ، وهو يقول :

ـ أهذا كل ما أمكنك قوله ؟!.. أهذا هو اعتذارك عما فعلته .. ألم تدرك أنك بفعلتك هذه ، قد تفسد الاحتفال بعيد ميلاد (طارق) ، الذى هو عيد ميلادك فى الوقت ذاته ؟!

بدت الدهشة على وجه (مفيد) ، وهو يغمغم :

ـ عيد ميلاد (طارق) .. كيف لم أنتبه إلى هذا ؟!

صاح (حسين) ، وهو يلوّح بذراعه فى وجهه :

ـ إنك لم تعد تنتبه إلى شىء .. لم تعد تدرك ما تفعله بنفسك وبعائلة (البنهاوى) .. هل رأيت وجهك فى المرآة .. إنك تبدو أشبه بمتسوّل مخبول ، وليس بواحد من أكبر عائلات هذه القرية ، وشقيق (حسين البنهاوى) نفسه .

خفض (مفيد) عينيه هذه المرة ، دون أن يعترض أو يستنكر ، فقد كان يعلم أن (حسين) على حق تمامًا هذه المرة ..

لقد أخطأ فى حق نفسه ..

وفى حق عائلته كلها ..

وفى صرامة ، تابع (حسين) :

ـ ولكننى درست هذا فى عقلى ، طوال الطريق ، من (القاهرة) إلى هنا ، وأظننى وضعت أصابعى على أصل المشكلة .

رفع (مفيد) عينيه إليه فى تساؤل حقيقى ، فأضاف فى حزم :

ـ إنه الفراغ .

وأصابت الكلمة قلب (مفيد) فى الصميم ..

نعم .. إنه الفراغ ..

فراغ القلب ، الذى لم يعد يمتلئ بالحب كذى قبل ..

وفراغ الوقت ، بعد أن ترك عمله فى (طنطا) ، ولم يعد له من هم سوى الجلوس فى مقهى (جودة) ، وتدخين تلك السموم ، التى تغيِّب عقله ، وتنتزعه من عالمه .....

ولكنها لم تحل أبدًا مشكلته ..

بل ربما أضافت إلى حياته مشكلة جديدة ، أشد خطرًا وضررًا ..

مشكلة تدخين المخدرات ، وحشو جسده بتلك السموم ، التى لم تلبث أن أفسدت حياته تمامًا ..

وفى لهفة واهتمام حقيقيين ، تابع (مفيد) حديث (حسين) الذى يقول :

ـ والحل الوحيد لهذه المشكلة هو أن تجد عملًا مناسبًا ، يشغل معظم وقتك ، ويمنعك من تدمير نفسك .

ثم واجهه بنظرة صارمة ، مستطردًا :

ـ وسأجد لك هذا العمل .

تمنى (مفيد) لو أن شقيقه فعل هذا ..

لأول مرة ، منذ فترة طويلة ، يتمنى لو أن (حسين) تدخَّل فى حياته ، وانتزعه من تلك الحفرة ، التى يرقد فى قاعها منذ فترة طويلة ..

وفى حزم ، قال (حسين) ، قبل أن يغادر الحجرة :

ـ والآن ، انهض من فراشك ، واحلق لحيتك ، وصفف شعرك ، وارتد ثوبًا نظيفًا ، وتعال لتلحق بنا ، فسنحتفل جميعًا بعيد ميلاد (طارق) .

رفع (مفيد) رأسه إليه ، وهو يسأل :

ـ جميعًا ؟!

التقى حاجبا (حسين) فى صرامة شديدة ، وهو يفتح الباب ، قائلًا :

ـ نعم .. جميعًا .

ثم استدرك بسرعة :

ـ فيما عدا (حافظ) و (فاطمة) .

وصفق الباب خلفه فى عنف ..

★ ★ ★

لم يكد (حسين) يهبط من الطابق العلوى ، حتى نهض الجميع لاستقباله ، فى مزيج من الرهبة والاحترام ..

كل العائلة كانت هناك تقريبًا .

(توحيدة) وزوجها (عبد الحكيم)، و(ناهد) و(فؤاد)، و(نعيمة)، و(شريفة)، وكل أحفاد (البنهاوى) .. (نادرة) ابنة (نعيمة)، و(عماد)، و(وحيد)، و(رأفت)، أبناء (توحيدة)، و(خيرى)، و(محمد)، و(دلال)، أبناء (ناهد) ..

و(طارق) .. ابن (حافظ) ..

وفى سعادة ، اندفع (طارق) نحو عمه ، الذى رفعه عن الأرض ، وطبع على خده قبلة كبيرة ، وهو يبتسم قائلًا :

ـ كل سنة وأنت طيب أيها (البنهاوى) الصغير .

بادله (طارق) قبلته بقبلة صغيرة ، وهو يقول :

ـ وانت طيب يا عمى .

ظل (حسين) يحمله ، ويضمه إلى صدره فى حنان ، وهو يصافح الجميع ، وسألته (شريفة) فى لهفة :

ـ كيف حال (مفيد) الآن ؟

أجابها فى حزم :

ـ سيلحق بنا بعد قليل .

هتفت (نعيمة) :

ـ حقًا ؟!.. حمدًا لله .. حمدًا لله .

وتنهد (عبد الحكيم) ، وهو يقول فى أسف :

ـ ماذا أصاب (مفيد) ؟.. لقد كان خيرة شباب القرية كلها .

هتفت (شريفة) فى سخط :

ـ كله من ذلك الإبليس (جودة) .

التفت إليها (حسين) ، وهو يسألها فى اهتمام :

ـ مَنْ (جودة) هذا ؟

ابتسم (فؤاد) فى سخرية تمتلئ بالغيظ ، وهو يقول :

ـ عجبًا !.. كنت أظنكم تعرفون كل شىء يا (حسين) بك .

رمقه (حسين) بنظرة نارية ، انكمش لها (فؤاد) فى مقعده ، على نحو أثار شفقة الجميع ، قبل أن يكرِّر (حسين) سؤاله :

ـ مَنْ (جودة) هذا ؟

أجابته (شريفة) بسرعة :

ـ إنه أصل البلاء فى القرية ، منذ افتتح مقهاه فى مدخلها .. إنه يلهى الشباب بلعب الطاولة والدومينو فى الصباح ، ثم يغيِّب عقولهم بمخدراته فى المساء .

هتف (حسين) فى غضب :

ـ مخدرات ؟!.. هل تعنين أن (مفيد) ... ؟!

لم يتم سؤاله ، ولكنها فهمت ، وأجابته مرتجفة :

ـ نعم يا (حسين) .. لقد كان زبونًا دائمًا فى مقهى (جودة) صباحًا ومساءً .

صرخ (حسين) فى غضب هادر :

ـ مخدرات ؟!.. هل بلغ الأمر هذا الحد ؟.. لماذا لم تخبرينى من قبل ؟!.. لماذا أخفيتم الأمر عنى جميعًا ؟!

باغته صوت من خلفه ، يقول :

ـ كل شىء يمكن إصلاحه يا (حسين) بك ؟

بدت الدهشة فى عيون الجميع ، فى حين استدار (حسين) بسرعة إلى مصدر الصوت ، فارتطم بصره بآخر شخص يتمنى رؤيته ، فى مثل هذا الموقف ..

بـ (إبراهيم) ..

(إبراهيم مكى) ..

* * *

٤ ـ الانتقام ..

نفثت الأميرة (عايدة) دخان سيجارتها فى قوة وعنف ، حتى بدت أشبه ببركان ثائر ، وهى تهتف غاضبة :

ـ يا للوغد !

تطلّع إليها صديقها الثرى الفرنسى (جان) فى دهشة ، وهما يجلسان فى ملهى (الليدو) ، ومال نحوها يسألها :

ـ ماذا دهاك ؟.. كنت تضحكين فى مرح منذ لحظات ، فماذا أصابك هكذا بغتة ؟!

أطفأت سيجارتها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ تذكّرت ما فعله بى ذلك الحقير (حسين البنهاوى) .. تصوّر .. أنا (عايدة) .. الأميرة التركية ، التى تتمنى نصف (باريس) تقبيل أناملها ، يرفض مصرى ريفى حقير أن يقضى معى وقته كله ؛ لأنه يرغب فى العودة إلى (القاهرة) ، لحضور حفل عيد ميلاد ابن شقيقه .

سألها فى حيرة :

ـ ولكنك أخبرتنى أنك تعلمين أنه يحب هذا الصغير جدًا .

أشارت إلى صدرها ، قائلة فى حدة :

ـ فليحبه كما يحلو له ، ولكن عندما تحين لحظة المفاضلة ، فلا ينبغى أبدًا أن يفضّله علىّ .

ضحك (جان) ، وهو يتراجع بمقعده ، قائلًا :

ـ لا داعى لكل هذا الغضب .. إنه لم يتركك من أجل امرأة أخرى .

صرخت فى غضب :

ـ وهل يجرؤ ؟!

التفتت إليها أنظار الجميع فى دهشة ، وشعر صديقها الفرنسى بالحرج ، فهمس وهو يميل نحوها متوترًا :

ـ (عايدة) .. انتبهى .. إنك تتصرفين بعصبية زائدة ، وهذا يلفت إلينا الأنظار .

قالت فى حدة ، وهى تشعل سيجارة أخرى :

ـ هذا لا يؤرقنى ، فقد اعتدت أن تلتفت كل الأنظار إلىّ ، أينما ذهبت .

تطلّع إليها لحظات ، قبل أن يهزّ رأسه ، قائلًا :

ـ من العسير علىّ أن أفهمك بالفعل يا (عايدة) .. قديمًا كنت تعتبرين هذا الرجل خصمًا لدودًا لك ، وفجأة ، أصبحت غارقة فى هواه ، وتركتنى من أجله ، والآن عدت تتاصبينه العداء .. ما طبيعة علاقتكما بالضبط ؟

نفثت غضبها وسخطها وتوترها ، مع دخان سيجارتها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ ليس هذا من شأنك .

ثم تراجعت بمقعدها ، وأشاحت بوجهها محنقة ..

نعم .. ما طبيعة علاقتها بـ (حسين البنهاوى) ؟!..

لقد بدأت علاقتهما وهى تبغضه ، بحكم ارتباطه برجال الثورة ، التى صادرت أموالها ومجوهراتها وسطوتها ..

ولكنها كانت تحتاج إليه ..

تحتاج لمن يعاونها على مغادرة (مصر) ؛ للتمتع بما أخفته من أموالها فى (باريس) ، قبيل المصادرة وفرض الحراسات ..

ولقد نجحت فى استغلاله ، كما خطّطت تمامًا ..
وهربت إلى (باريس) ..
ولم يغفر لها (حسين) هذا أبدًا ..
لقد بذل قصارى جهده ، واستغل إمكانيات الجهاز الذى يعمل به ، حتى تمكّن معاونوه من اختطافها ، من قلب (باريس) ، وشحنها إلى (مصر) فى صندوق ديبلوماسى ..
ولم تشعر فى حياتها كلها بمثل هذه المرارة ..
ولا بكل هذا الخزى والعار ..
وكانت تتوقع انتقامًا عنيفًا قاسيًا من (حسين البنهاوى) ..
ولهذا كانت دهشتها عظيمة ، عندما حدث العكس تمامًا ..
لقد عاملها (حسين) معاملة راقية ومهذبة للغاية ، وأسكنها شقة فاخرة فى حى (جاردن سيتى) ، وأرسل إليها الخدم والحشم ، ثم لم يلبث أن أعادها إلى (باريس) ، وهو يعلن أنه غارق فى حبها ، إلى الحد الذى منعه من أن يمسّ شعرة واحدة من رأسها ..
ومنذ تلك اللحظة ، شعرت أنها أسيرة لحبه ..
وفى (باريس) ، التقت به كحبيب ، منذ عامين ، بعد مراسلات استغرقت عامًا كاملًا ، بثته فيها حبها ، واستقبلت منها غرامه وهيامه بها ..
ولكن أبدًا لم تكن علاقتهما بسيطة أو مستقرّة ..
كانا فى كل مرة يلتقيان فيها يتشاحنان كثيرًا ، ثم يقضيان بعض الأوقات الممتعة ، ويعودان للشجار والنقار ..
هكذا فى كل مرة ..
ثم كانت الطامة الكبرى ، عندما رفض البقاء معها ، للحاق بحفل عيد ميلاد (طارق) هذا ..

وفى هذه المرة ، تفجّر كل الغضب فى أعماقها ..
غضب أنثى نرجسية أنانية ، لم تعتد أن يرفضها أحد ..

لم تعتد هذا قط ..
« أدفع مليون فرنك ، لأعرف فيم تفكرين الآن .. » .
نطقها (جان) بابتسامة كبيرة ، فانتزعها من شرودها وأفكارها ، وجعلها تلتفت إليه فى حدة ، فتابع :
ـ أراهن على أنك تفكرين فيه .
أطفأت سيجارتها الثانية ، وهى تقول فى عصبية :
ـ هذا صحيح .. كنت أفكّر فى ذلك الحقير ، وفى الطريقة المناسبة للانتقام منه .

تراجع فى دهشة ، قائلًا :

ـ الانتقـام ؟!

أجابته فى حدة :

ـ بالطبع .. وهل كنت تتوقع أن يعامل أحدهم الأميرة (عايدة) بهذا الاحتقار ، ثم لا تسحقه بانتقامها .

بدت الدهشة عليه لحظات ، وهو يتطلّع إلى وجهها ، الذى بدا وكأنه قد فقد كل جماله وفتنته ، مع القسوة التى نطقت بها عبارتها ، ثم لم يلبث أن ابتسم فى ارتباك ، وهو يسألها :

ـ وأى انتقام هذا ، الذى يمكن أن يسحق رجلًا مثله ، تقولين : إنه من رجال السلطة فى (مصر) ؟

أشعلت سيجارة جديدة ، نفثت دخانها فى عصبية ، وهى تجيب :

ـ أنت لم تر الوجه الآخر من الأميرة (عايدة) بعد ، وعندما يتحقق انتقامى ، ستدرك أننى أستطيع سحق من هم أعظم من (حسين البنهاوى) .

وعندما نطقت عبارتها الأخيرة هذه ، كان عقلها الشيطانى قد استقرّ على خطة للانتقام ..

خطة رهيبة ..

رهيبة بحق ..

★ ★ ★

من المؤكّد أن ظهور (إبراهيم مكّى) فى سراى (البنهاوى) ، كان مفاجأة مذهلة بكل المقاييس ..

مفاجأة بدت واضحة فى عينى (حسين) وملامحه ، وهو يحدّق فى (إبراهيم) ، الذى واصل تقدّمه نحوه فى هدوء ، وشفتاه تحملان ابتسامة يعرفها (حسين) جيدًا ..

ابتسامة تجمع ما بين الخبث والدهاء والسخرية والظفر ..

ابتسامة ذئب ، صار واثقًا من قدرته على الظفر بفريسته ..

أما الباقون ، فقد كان تأثير المفاجأة عليهم يختلف كثيرًا ..

لقد رأوا شخصًا غريبًا يدخل السراى ، ويتحدّث مع (حسين) فى هدوء وثقة ، مما أوحى إليهم بأنه وثيق الصلة به ، ويساويه تقريبًا فى منصبه وسلطاته ..

وبحركة تلقائية ، نهضوا لتحيته ومصافحته والترحيب به ..

فيما عدا (شريفة) ..

هى وحدها تعرّفت (إبراهيم) ، لحظة أن وقعت عيناها عليه ..

تعرّفت فيه رجل البوليس السياسى ، الذى دخل السراى منذ ما يزيد على الثمانية أعوام ، ليعتقل والدها وشقيقها ..

وفى عنف ، لطمت (شريفة) صدرها براحتها ، وانطلقت من حلقها شهقة ذعر ، أثارت دهشة وحيرة الجميع ، فالتفت إليها (حسين) ، وقال فى صرامة :

ـ (شريفة) .

لم يكد ينطق اسمها ، حتى تزلزل كيانها كله ، وارتجفت ركبتاها ، حتى كادت تسقط فاقدة الوعى ، لولا أن أشاح (حسين) بوجهه عنها ، وقال فى سرعة :

ـ أهلًا (إبراهيم) بك .. مرحبًا بك فى سراى (البنهاوى) .

تصافحا فى قوة ، دون أن يرفع أحدهما عينيه عن الآخر ، وبدت ابتسامة (إبراهيم) أكثر خبثًا وغموضًا ، وهو يقول :

ـ (صلاح) أخبرنى أنك توجّهت إلى هنا مباشرة ، لأن شقيقك مصاب بوعكة صحية ، فأتيت على الفور ، للاطمئنان على كليكما .

صمت (حسين) لحظة ، وهو يتطلّع إلى عينى الذئب ، اللتين تطلّان من وجه (إبراهيم) ، قبل أن يقول :

ـ بيتك ومطرحك يا (إبراهيم) بك .. تفضّل على الرحب والسعة .

كانت عبارته هذه أشبه بإشارة بدء ، فقد اندفع الجميع بعدها يصافحون (إبراهيم مكّى) فى حرارة ، فيما عدا (شريفة) ، التى صافحته فى حذر ، ثم جذبت يدها من بين أصابعه فى سرعة ، وكأنها تخشى أن يقبض عليها ، ويجذبها منهما إلى معتقل جديد ..

وفى هدوء واثق ، جلس (إبراهيم) بين أفراد الأسرة ، وهو يقول :

ـ مشكلة المخدرات هذه أصبحت مشكلة عامة .

عضّ (حسين) شفتيه فى غيظ ، حاول أن يكتمه فى أعماقه ، وهو يجلس بدوره ، قائلًا :

ـ هذا صحيح ، وأعتقد أن الدولة بصدد إصدار تشريع جديد ، يضاعف عقوبة التعامل معها .

استرخى (إبراهيم) فى مقعده ، وهو يعلّق ، قائلًا :

ـ عقوبتها تضاعفت بالفعل ، فى ظل الثورة المباركة ، ولكن البعض يعتقد أن هذا غير كاف ، ولكن الدولة مشغولة كلها الآن بالخطة الخمسية الأولى ، التى بدأت منذ العام الماضى ، فهى وسيلتنا للنهوض اقتصاديًا كما تعلم ..

غمغم (حسين) ، وعقله يعمل فى سرعة :

ـ هذا صحيح ، وأعتقد أنها ستشمل الإقليم الشمالى أيضًا .

كان يتحدّث وعقله يعمل فى توتر بالغ ، فى محاولة للبحث عن

تفسير مقنع ، لإقدام (إبراهيم) على زيارته فى السراى ، فى سابقة تعدّ الأولى من نوعها ، منذ واقعة إلقاء القبض عليه وعلى والده ..

ومن المؤكّد أن هذه الزيارة لا تحمل الخير فى أعماقها ..

إنها أشبه بزيارة استكشافية ..

أو بدراسة لميدان الخصم ..

تلك الدراسة ، التى تسبق الهجوم فى المعتاد ..

وهذا يعنى له الكثير ..

الكثير جدًا ..

ـ « ما الذى تنوى أن تفعله يا (حسين) بك ؟ .. » .

ألقى (إبراهيم) هذا السؤال فى هدوء خبيث ، وهو يتطلّع إلى (حسين) الذى أفاق من شروده وأفكاره ، وسأله :

ـ أفعل ماذا ؟

ابتسم (إبراهيم) تلك الابتسامة الغامضة ، وهو يقول :

ـ أقصد ما الذى ستفعله بشأن (جودة) هذا ومقهاه ؟

شعر (حسين) بحنق ساخط عنيف فى أعماقه ، فقد أدرك على الفور أن (إبراهيم) يشير فى وضوح إلى نقطة الضعف ، التى يظن أنها ستلوى ذراعه ..

نقطة الضعف ، التى تتمثّل فى علاقة شقيقه (مفيد) بالمخدرات ..

وكم تمنى لحظتها لو أنه خنق (مفيد) بيديه ، قبل أن يجلب له هذا العار ..

لقد اختنق بالغضب والحنق ، حتى أنه لم يستطع إجابة (إبراهيم) ، الذى بدا وكأنه لم يكن ينتظر الجواب ، وهو يتابع فى خبث :

- أرجوك يا (حسين) بك .. اترك لى هذه المهمة .. أريد أن أثبت محبتى لك .. أرجوك .

تضاعف ذلك المزيج من الحنق والسخط والغضب ، فى أعماق (حسين) ، وهو يقول :

- لا بأس يا (إبراهيم) بك .. إنها لك .

التقط (إبراهيم) نفسًا عميقًا ، وهو يقول :

- عظيم .

ثم أضاف فى سرعة :

- ولكن أين (مفيد) بك ؟.. كنت أريد الاطمئنان عليه قبل عودتى إلى (القاهرة) .

هتف (عبد الحكيم) فى حماس :

- عودتك إلى (القاهرة) ؟!.. هذا مستحيل !.. ليس قبل أن تتناول معنا طعام الغداء ، وتشرفنا بحضور حفل عيد ميلاد (طارق) .

أجابه (إبراهيم) ، وهو ينهض :

- كنت أتمنى هذا ، ولكنك تعرف طبيعة عملنا .. إنها لا تمنحنا وقتًا كافيًا لأهوائنا قط .. وربما يمنعنى هذا أيضًا من رؤية (مفيد) بك ، فمن المؤكد أنه مرهق الآن ، فالذين يدخنون هذه السموم ، يكونون عادة ...

قاطعه صوت (مفيد) ، وهو يقول فى حزم :

- أنا هنا يا (إبراهيم) بك .

هوى قلب (حسين) بين قدميه ، وهو يلتفت بسرعة إلى مصدر الصوت ، وعقله يصرخ فى أعماقه :

كيف ؟.. كيف يجرؤ (مفيد) على النزول بهيئته الزرية ، فى حضرة (إبراهيم مكّى) ؟!.. كيف ؟

ولكنه عندما أكمل التفاتته ، كانت أمامه مفاجأة ..

مفاجأة مدهشة ..

★ ★ ★

لم تكن الدهشة العارمة من نصيب (حسين) وحده هذه المرة ..

لقد توزّع تأثيرها على الجميع ، فى نفس اللحظة التى وقعت فيها أبصارهم على (مفيد) ، وهو يهبط فى السلم الداخلى للسراى ..

لم يكن ذلك الشخص المنهار ، الذى رأوه فى حجرته منذ ساعة واحدة أو أقل ..

لم يعد كذلك أبدًا ..

لقد تحوّل ، فيما يشبه المعجزة ، إلى شخص آخر يختلف تمامًا ..

صحيح أنه مازال على نحوله وشحوبه ، إلا أنه حلق لحيته ، وصفّف شعره بعناية ، وارتدى قميصًا أبيض نظيفًا ، وسروالًا أسود أنيقًا ، وبدا وقد استعاد الكثير من ثقته بنفسه ، وهو يتقدّم نحو (إبراهيم مكّى) ، ويصافحه فى هدوء ، قائلًا :

- مرحبًا بك هنا يا أستاذ (إبراهيم) .. لم أكن أتوقع مقابلتك مرة ثانية ، فى سراى (البنهاوى) .

ابتسم (إبراهيم) ، وهو يقول :

- عندما يتعلّق الأمر بى ، ينبغى أن تتوقع أى شىء يا فتى .

أما (حسين) ، فقد انتشت نفسه ، وشعر وكأن حملًا ثقيلًا قد انزاح عن كاهله ، حتى أنه هتف فى مرح ، وهو يضع يده على كتف (إبراهيم) :

ـ لماذا لا تبقى لتناول الغداء بالفعل ؟.. العمل يمكن تأجيله .

قال (إبراهيم) فى هدوء ، دون أن تفارقه ابتسامته الخبيثة الواثقة :

ـ لدى بعض الارتباطات .

ولوّح بكفه للصغير (طارق) ، مستطردًا :

ـ عيد ميلاد سعيد يا (طارق) .

ثم عاد يصافح (مفيد) ، وهو يضيف فى خبث :

ـ وعيد ميلاد سعيد لك أيضًا يا (مفيد) بك ..

قال (مفيد) فى شىء من البرود :

ـ عجبًا !.. كنت أتصوّر أن الألقاب قد ألغيت منذ فترة طويلة .

أطلق (إبراهيم) ضحكة ساخرة ، قبل أن يربّت على كتفه ، قائلًا :

ـ لا تصدّق كل ما تقرؤه يا فتى .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ واطمئن بشأن مشكلتك .. سأتولّى أمرها بنفسى .

أجابه (مفيد) فى سرعة وحزم :

ـ لست أعانى أية مشكلات .

أثلج الجواب صدر (حسين) ، فانتفخت أوداجه فى زهو ، وتمنى لو أنه عانق أخاه ، وشكره عما فعل ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ظلّ يشعره بقلق مبهم ، ذاب فيه زهوه ، وتلاشت معه ثقته فى سرعة ..

لماذا يبدو (إبراهيم) هادئًا واثقًا ، على الرغم مما فعله (مفيد) وقاله ؟..

ما الذى يدفعه للضحك على هذا النحو ؟..

بل ما السبب الحقيقى ، الذى جعله يقطع الطريق ، من (القاهرة) إلى هنا ..

تصاعد القلق فى أعماق (حسين) أكثر وأكثر ، وهو يتطلّع إلى ابتسامة (إبراهيم مكّى) ، الذى صافح الجميع ، وهو يقول :

ـ إلى اللقاء .. كنت أتمنى قضاء وقت أطول معكم ، ولكن ظروفى لا تسمح بهذا للأسف .

وعندما صافح (فؤاد) ، شدّ على يده أكثر ، وبدت ابتسامته أكثر خبثًا وغموضًا ، وهو يقول له :

ـ تسعدنى مقابلتك يا (فؤاد) بك ، وأعتقد أننا سنلتقى كثيرًا فيما بعد ..

لم يفهم (فؤاد) ما يعنيه (إبراهيم) بعبارته ، ولم يجد معنى لتلك الغمزة الخفية السريعة ، التى رماه بها ، قبل أن يستدير مزمعًا الانصراف ، ولكنه تمتم فى خفوت :

ـ بإذن الله .

وتحرّك (إبراهيم) نحو باب السراى ، وكأنه يهمّ بالانصراف ، إلا أنه لم يلبث أن توقف بغتة ، والتفت إلى (فؤاد) مرة ثانية ، مستطردًا بصوت مرتفع :

ـ آه .. بالمناسبة يا (فؤاد) بك .. تقبّل تهانئى .

سأله (فؤاد) فى حيرة :

ـ علام ؟!

شحذ (حسين) حواسه كلها ، وهو يتطلّع إلى (إبراهيم) فى اهتمام ، فابتسم هذا الأخير بخبثه المعهود ، قبل أن يجيب :

ـ لقد صدر قرار جمهورى برفع الحراسة عن شقيقك ، وإعادة كل سلطاته إليه .

تألقت عينا (فؤاد) فى شدة ، فى حين انعقد حاجبا (حسين) فى توتر بالغ ..

لقد كان هذا يعنى أن الصراع القديم سيبرز إلى السطح مرة أخرى ..

صراع الأرض ..

أرض (البنهاوى) .

* * *

٥ ـ وعاد الصراع ..

رفع (حافظ) عينيه فى تخاذل ، يتطلّع إلى (فاطمة) ، التى تختلس النظر والسمع ، عبر فرجة الباب ، وقال فى خفوت ، يغلب عليه الحياء والتردّد :

ـ عيب يا (فاطمة) .. لا تسترقى السمع على هذا النحو .

لوّحت بيدها ، قائلة بخشونتها المعتادة :

ـ اسكت يا (حافظ) .

انفرجت شفتاه ؛ لينطق بشىء ما ، إلا أنه لم يلبث أن آثر السلامة ، فأطبقهما مرة أخرى ، واكتفى بمراقبتها ، حتى سمعها تقول فى اهتمام مشوب بالشماتة :

ـ هذا أفضل ما سمعت ، فى الفترة الأخيرة .

أراد أن يسألها عما تعنيه ، إلا أنه لم يحوّل رغبته هذه قط إلى فعل ، ولم تمنحه هى الفرصة ليفعل ، وإنما التفتت إليه ، وتابعت شامتة :

ـ يقولون : إن شقيق (فؤاد) زوج (ناهد) ، قد عاد إلى موقعه فى السلطة .

بدت فى عينيه نظرة متسائلة ، فتابعت متشفية :

ـ وهذا يعنى أن الصراع سيحتدم مرة أخرى ، بين (فؤاد) و (حسين) .

سألها (حافظ) فى تردّد :

ـ أى صراع ؟

جلست على طرف الفراش ، وهى تجيب :

ـ الصراع على أرض (البنهاوى) .. أنسيت ما حدث منذ ثلاث سنوات ، عندما حاول (فؤاد) أن ينتزع نصيب زوجته بالقوة ، مستغلًا سلطة شقيقه ، مما اضطر شقيقك (حسين) إلى أن يسجّل الأرض باسم أبى (رحمه الله) ؟

بدا شىء من الارتياع على وجه (حافظ) ، وهو يقول :

ـ وكيف يمكن نسيان هذا ؟

استعاد ذهنها ، فى لحظة واحدة ، تفاصيل تلك الفترة العصيبة ، عندما سجّل (حسين) الأرض باسم والدها ، ولم تكن هى تعلم بهذا ، حتى دفعت أباها إلى تسجيل الأرض باسم زوجها (حافظ) ، الذى منحها توكيلًا رسميًا شاملًا بدوره ، فأصبحت المتحكّمة الوحيدة فى كل أرض (البنهاوية) ..

ولكن (حسين) لم يسمح بهذا ..

لقد أجبر زوجها (حافظ) على إعادة الأرض إليه ، وحطّم والدها ، وعاقبها مع زوجها أشد العقاب ..

وفى بغض واضح ، أطلقت من أعمق أعماق صدرها زفرة نارية ، قبل أن تقول :

ـ نعم .. كيف يمكننى أن أنسى أن أرض (البنهاوى) كلها ، كانت فى قبضتى يومًا ؟

خفض (حافظ) عينيه ، وهمهم بعبارة غير مسموعة ، ولكنها تجاهلتها تمامًا ، وهى تقول بلهفة شامتة :

ـ أراهنك على أن (حسين) يحترق الآن فى أعماقه ، وتغلى دماؤه فى عروقه ، لأنه يعلم أن (فؤاد) سيعود حتمًا للمطالبة بنصيب (ناهد) من الأرض .

تمتم (حافظ) :

ـ لا أحد يمكنه أن يغلب (حسين) .

اعتدلت فى حدة ، قائلة :

ـ أهذا رأيك ؟!

ثم مصمصت شفتيها متحسرة ، قبل أن تستطرد :

ـ ولكن ما الذى أتوقعه غير هذا ، من رجل استسلم تمامًا لفكرة أن تحتفل أسرته سنويًا بعيد ميلاد ابنه ، دون أن تسمح له أو لزوجته بالحضور ؟

تمتم بعبارة متخاذلة غير مفهومة ، وهو يخفض عينيه ، اللتين أغرقتهما الدموع ، فهتفت (فاطمة) بصوتها الخشن الغليظ :

ـ ألم أقل لك ؟

ثم نهضت مرة أخرى إلى الباب ، مضيفة فى لهفة :

ـ والآن اتركنى استمع إلى ما يقولون ، حتى أعرف كيف سيبدأ الصراع هذه المرة .

قالتها وعادت تسترق السمع والنظر ، وهى تتمنى فى أعماقها أن يحتل (فؤاد) مقعد الفائز هذه المرة .

وإلى الأبد ..

★ ★ ★

خيّم وجوم واضح على عيد ميلاد (طارق) ، فى هذا العام ..

لقد أدرك الجميع أن الأخبار ، التى أتى بها (إبراهيم مكّى) ، قد أشعلت نارًا محرقة فى عقل (حسين) ، وفجّرت كل أطماع الماضى ، فى نفس (فؤاد) ، الذى غرق فى أفكاره ، وهو يعيد دراسة الموقف ، فى صمت وشرود ، حتى أنه لم ينتبه إلى (شريفة) ، التى

توقفت أمامه ، حاملة صينية فضية ، تراصت فوقها فناجين الشاى الأنيقة ، فقالت فى حرج للمرة الثالثة :

ـ تفضّل يا أستاذ (فؤاد) ..

انتفض (فؤاد) ، وكأنه يستيقظ من سبات عميق ، وأسرع يأخذ فنجانه ، وهو يقول :

ـ معذرة .. لقد شردت لحظات .

سأله (حسين) فى سرعة :

ـ فيم ؟!

تطلّع إليه (فؤاد) بنظرة متحدية ، وهو يقول :

ـ فى كل الامتيازات ، التى ستمنحنى إياها عودة شقيقى إلى السلطة .

بدا صوت (حسين) صارمًا للغاية ، وهو يقول :

ـ لا تفكّر فى هذا كثيرًا ، فمن المحتمل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها ، قبل أن تنتهى من تفكيرك .

رفع (فؤاد) أحد حاجبيه ، قائلًا فى شىء من الحدة :

ـ من يدرى ؟.. ربّما تغيّرت أمور أخرى .

اعتدل (حسين) فى حركة عنيفة ، أثارت قلق الجميع ، وهو يقول فى صرامة :

ـ مثل ماذا ؟

ولو أنه أتى هذا التصرّف منذ ساعات محدودة ، لارتجف (فؤاد) من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ، وانكمش فى مقعده مذعورًا ، أما فى تلك اللحظة ، فقد واتته شجاعة عجيبة ، جعلته يهتف فى وجه (حسين) بحدة :

ـ مثل أسلوبك الديكتاتورى فى التعامل معنا .

لم يكد ينطقها ، حتى هبط على المكان كله صمت مطبق ، وتركّزت كل العيون على وجه (حسين) ، الذى احتقن فى شدة ، ثم قطع (مفيد) ذلك الصمت ، وهو ينهض من مقعده ، قائلًا فى قلق متوتر :

ـ إنه عيد ميلاد (طارق) ، ولا داعى لأن نفسده ، أو ...

قاطعه (حسين) فى صرامة مخيفة :

ـ اصمت .

ابتلع (مفيد) لسانه فى توتر بالغ ، وتساءل فى أعماقه عن رد الفعل ، الذى سيقوم به (حسين) ، فى هذا الموقف ..

إنه لن يرضى أبدًا أن يحطّم (فؤاد) هيبته فى العائلة ، ولكنه لن يستطيع ـ فى الوقت ذاته ـ أن يقاتله فى عنف ، حتى لا يضطر فيما بعد لمواجهة شقيقه ..

فما الذى سيفعله (حسين) ؟..

لم يكن ذلك التساؤل قاصرًا على (مفيد) ، وإنما كان يملأ أعماق الجميع ، وعلى رأسهم (فؤاد) نفسه ، الذى شعر أن هذه اللحظات حاسمة للغاية ، فى تحديد موقفه وكيانه وسط أسرة أصهاره ..

وفجأة ، تكلّم (حسين) :

كان الجميع يتوقعون رد فعل عنيف ، ولكنهم فوجئوا به يلتفت إلى الأطفال ، قائلًا :

ـ (خيرى) .. (محمد) .. (دلال) .. ارتدوا ثيابكم ، فستعودون إلى منزلكم الآن .

احتج الأطفال فى حزن ، فى حين ارتسمت الدهشة على وجوه الجميع ، واحتقن وجه (فؤاد) ، على عكس (ناهد) ، التى شحب وجهها فى شدة ، وهى تقول :

ـ هل تطردنا يا (حسين) ؟

نهض (حسين) فى صرامة ، وهو يقول :

ـ إلى اللقاء يا (ناهد) .. اصطحبى أطفالك وزوجك ، فى رحلة عودتك إلى منزلك .

تفجُرت الدموع من عينيها ، وهى تهتف :

ـ هل تطردنى من سراى والدى يا (حسين) ؟

لم يحاول أحد الحاضرين التدخل ، حتى (مفيد) ، الذى خفض عينيه فى أسى ، وشعر بالدوار يعاوده ، مع ذلك الاختناق الذى ملأ عنقه ونفسه ، فى حين قال (فؤاد) فى حدة :

ـ ليس هذا من حقك .. السراى ملك للعائلة كلها .

أجابه (حسين) بصرخة هادرة صارمة :

ـ تقدَم بشكوى لشقيقك إذن .

تضاعف احتقان وجه (فؤاد) ، مع تلك العبارة الأخيرة ، التى تعنى أن (حسين) قرّر خوض المعركة بكل قوته ، وأغرقت الدموع وجه (ناهد) ، وهى تلملم أشياءها ، وتدفع أولادها أمامها ، مغادرة السراى ، وشاركتها شقيقاتها الدموع ، دون أن يرتفع صوت واحد ، محاولًا الاعتراض ، أو حتى الرجاء ..

وقبل أن يعبر باب السراى ، التفت (فؤاد) إلى (حسين) ، وقال :

ـ ستندم على هذا .

صرخ فيه (حسين) :

ـ اخرج .

كان من الواضح أن عيد ميلاد (طارق) قد فسد تمامًا هذه المرة ، ولم يعد من الممكن رتقه ، وامتلأت نفس (مفيد) بالحزن والحسرة ، وهو يراقب سيارة (فؤاد) ، التى حملته مع زوجته وأبنائه بعيدًا ،

وتمنى لو أنه استطاع مواجهة (حسين) ، كما كان يفعل فى الماضى ، إلا أنه لم يجد فى نفسه القدرة على هذا ، فترك دموعه تنهمر فى صمت ، وعقله يتساءل فى حيرة ..

كيف فعل (حسين) هذا ؟..

كيف يتحدّى (فؤاد) بهذه الصورة السافرة ، على الرغم من عودة شقيقه إلى موقعه وسلطاته ..

والواقع أنه لم يكن قرارًا سهلًا أبدًا ، بالنسبة لرجل مثل (حسين البنهاوى) ..

لقد استعاد (فؤاد) قوته ، بعد عودة شقيقه إلى السلطة ، وتحداه علانية وسط العائلة ..

ولم يكن من الممكن أبدًا أن يسكت على هذا ..

فلو فعل ، ستنهار هيبته كلها ، ويدرك الجميع أن (فؤاد) صار أكثر قوة ، فيسرعون بالالتفاف حوله ، وتختل موازين القوة تمامًا من وجهة نظره ..

وهو لن يسمح بهذا قط ..

ثم إن المواجهة كانت آتية لاريب ، ولن يتوانى (فؤاد) لحظة واحدة عن الدخول معه فى صراع عنيف ، لاستعادة الأرض ، التى فشل فى استعادتها من قبل ..

وهكذا لم تكن هناك وسيلة لاتقاء الأمر ، فلا مانع إذن من الهجوم ..

وبكل شراسة ..

وفى توتر ، نهض (عبد الحكيم) ، وأشار إلى زوجته ، وهو يقول :

ـ اسمح لنا بالانصراف يا (حسين) بك، فأنا أشعر بوعكة صحية.

أشار إليه (حسين) فى شرود، قائلًا:

ـ إلى اللقـاء.

انسحب (عبد الحكيم) وعائلته فى هدوء، وبصحبتهما (نعيمة) وابنتها، فى حين بقيت (شريفة) جالسة إلى جوار (حسين)، وهى تهمس مترددة:

ـ هل أعدّ لك بعض الطعام؟

هز (حسين) رأسه نفيًا، وهو يجيب فى شىء من الحدة:

ـ كلا.

ثم التفت إلى (مفيد)، وقال:

ـ أعدّ نفسك جيدًا، فسأجد لك عملًا مناسبًا، قبل نهاية الأسبوع .. هل تفهم؟

كان (مفيد) يشعر بغصة فى حلقه، تمنعه من الكلام، فاكتفى بإيماءة من رأسه، ولم يغادر مكانه، حتى استقل (حسين) سيارته، وغادر المكان ..

أما (حسين) نفسه، فوسط كل الغضب والتوتر، اللذين امتلأت بهما أعماقه، كان هناك تساؤل يبرز على السطح، ويؤرقه فى شدة ..

لماذا قطع (إبراهيم مكّى) كل هذه المسافة، ليلقى خبرًا كهذا؟.. لمـاذا؟!

★ ★ ★

، لتشتيت انتباه الخصم .. » .

نطق (إبراهيم مكّى) هذه العبارة بابتسامة واسعة، تجمع ما بين الخبث والثقة والدهاء، فى مواجهة رئيسه (مراد صقر)، الذى تراجع فى مقعده، ورمقه بنظرة طويلة، قبل أن يشبك أصابع كفيه أمامه، قائلًا:

ـ يا لك من داهية!

جلس (إبراهيم) على المقعد المواجه لرئيسه، وهو يقول:

ـ إنها ليست لعبة عسيرة أو معقّدة يا سيّدى .. إنها بعض القواعد البسيطة، التى نستخدمها فى عملنا .. إننا نعد العدة للإطاحة بـ (حسين البنهاوى)، ومن الطبيعى أن نشتّت انتباهه، ونبعد أنظاره عنا، حتى ننتهى من عملنا، فلا يفيق إلا وهو بين أصابعنا.

سأله (مراد صقر):

ـ أتعتقد أن هذا سيشغله طويلًا؟

هزّ (إبراهيم) كتفيه، وقال:

ـ بالتأكيد، فـ (فؤاد) يتمنى استعادة أرض زوجته، ولقد حاول أن يفعل منذ ثلاث سنوات، ولكن (حسين) هزمه هزيمة نكراء، بعد أن عمل على إزاحة شقيقه من مقعده.

قال (مراد) بسرعة:

ـ بمعاونتك.

ابتسم (إبراهيم)، وهو يقول:

ـ ولى الفخر .. لقد أعددت الخطة كلها، ولم يكن على (حسين البنهاوى) سوى التنفيذ، أما الآن، فقد أصبح علىّ أن أواجه شريكى القديم، وأن ألعب معه اللعبة نفسها.

ثم تلاشتِ ابتسامته ، وانعقد حاجباه فى شدة ، مع استطراداته :

ـ وعندما أنتهى منها ، فإن ما سيتبقى منه ، لن يصلح حتى لترقيع حذاء قديم ..

وازدادت صلابة صوته ، وهو يضيف :

ـ وهذا وعد ..

★ ★ ★

قهقه (عمر) ضاحكًا فى شدة ، حتى ارتجّ جسده كله ، قبل أن يضرب فخذه براحته ، هاتفًا فى شماتة :

ـ إذن فقد عادتِ المواجهة ، بين (فؤاد) وابن (البنهاوى) !.. يا له من زمن دوّار .. لكل شخص يوم ، يعلو فيه شأنه .

قال (عبد الحكيم) :

ـ ولكن (حسين) واجهه فى عنف ، وطرده مع (ناهد) وأبنائهما من السراى .

لوّح (عمر) بكفه ، وقال فى سخط :

ـ وماذا فى هذا ؟.. هل طردهما من الجنة ؟!.. من ذا الذى يرغب فى البقاء فى مكان كهذا .

ابتسم (عبد الحكيم) ابتسامة مشفقة ، وهو يقول :

ـ أنت تقول هذا ؛ لأنك تبغض (حسين البنهاوى) .

هتف (عمر) :

ـ أبغضه ؟!.. ليس هذا هو القول المناسب يا رجل ، فأنا لا أبغض (حسين البنهاوى) فحسب ، وإنما أكرهه كراهية تكفى لقتل نصف أهل الأرض .

أطلق (عبد الحكيم) ضحكة عالية ، وهو يقول :

ـ إلى هذا الحد ؟!

لوّح (عمر) بكفه ، قائلًا فى ازدراء :

ـ دعنا من الحديث عن (حسين البنهاوى) ، وعن كل البنهاوية ، وأخبرنى .. كيف حال الآلات الجديدة فى المصنع ؟

تراجع (عبد الحكيم) فى مقعده ، وهو يقول :

ـ رائعة .. لقد ضاعفت الإنتاج مرتين على الأقل ، و (رضا العبد) يؤكد أن الشركة التى أنتجتها تضمنها لسبع سنوات كاملة .

هتف (عمر) فى سعادة :

ـ عظيم .. عظيم .. هذا يعنى خطوة جديدة ، تبعدنا عن سيطرة (حسين) بك وسطوته ، ولن يمضى عام آخر ، حتى يمكننى أن أواجهه ، دون أن ترتجف أطرافى .

تنهّد (عبد الحكيم) ، وقال :

ـ أما فى الوقت الحالى ، فمن الأفضل أن تظلّ علاقتنا به جيدة ، فقد يمكننا أن نستفيد يومًا من سلطاته .

مطّ (عمر) شفتيه فى كراهية واضحة ، وهو يقول :

ـ كم أتمنى ألّا يأتى أبدًا ذلك اليوم ، الذى أحتاج فيه لشخص مثل (حسين البنهاوى) .

هزّ (عبد الحكيم) كتفيه ، وهو يقول :

ـ لا يمكنك التنبؤ بهذا الأمر قط ، فالبلد يخوض مرحلة جديدة ، ولا أحد يدرى ما الذى يمكن أن تتطوّر إليه الأمور .

أقلقت لهجته (عمر) فسأله متردّدًا :

ـ هل تتوقع شيئًا محدودًا ؟

تنهَّد (عبد الحكيم) ، قبل أن يقولَ فى قلق واضح :

ـ منذ أشهر قليلة ، جمعت الدولة كل أصحاب ورؤساء الصحف ، وأبلغتهم أنها قرَّرت تنظيم الصحافة ، على حد قولها ، ومن هذا المنطق ، أمَّمت صحفهم جميعًا ، وحوَّلتهم إلى موظفين لديها ، تمنحهم الترقيات والعلاوات لو أحسنوا القول ، وتلقيهم وراء الشمس لو خالفوا القواعد .

هبَّ (عمر) من مقعده ، وهو يهتف :

ـ أتعتقد أنه من الممكن أن يحدث هذا لنا ؟

تنهَّد (عبد الحكيم) مرة أخرى ، وشرد ببصره ، وسال القلق مع كلماته ، وهو يتمتم :

ـ من يدرى يا (عمر) ؟.. من يدرى ؟

وكان على حق ..

من يدرى ؟

* * *

٦ ـ موسم الخداع ..

لأوَّل مرة ، منذ فترة طويلة ، استيقظ (مفيد) مع شروق الشمس ، وفتح نافذة حجرته ؛ ليستنشق الهواء النقى ، ويملأ به صدره الضعيف ، ويستعيد معه كل ذكريات الماضى ..

كانت حياته تسير داخل عقله ، كما لو أنها فيلم سينمائى قديم ، بهتت بعض أجزائه ، وبقيت أخرى قوية واضحة ، تحتل مكانها على شاشة الذكريات ..

ومع رائحة الهواء الرطب ، المشبَّع بنسيم الحقول ، وقطرات الندى المتساقطة على الأوراق الخضراء ، استعاد ذهنه ذكرياته مع أوَّل حب ملأ قلبه ..

مع (مديحة) ..

وتداعت أفكاره وذكرياته فى سرعة ، ليستعيد أحداثًا تصوَّر أنها ماتت فى أعماقه ، ولم يعد من الممكن أن يستعيدها عقله ثانية ..

ودون أن يشعر ، انهمرت من عينيه الدموع ، وكاد يمتلئ بالحزن ، عندما تسلَّل إلى مسامعه صوت (فاطمة) الخشن الغليظ ، وهى تقول :

ـ صباح الخير يا (مفيد) بك .

التفت إليها فى بطء ، وهو يمسح دموعه ، وغمغم :

ـ صباح الخير يا (فاطمة) .. ما حكاية (مفيد) بك هذه ؟!.. إنك تخاطبيننى دائمًا بلا ألقاب .

زفرت فى هوان ، قبل أن تقول :
ـ كان هذا فيما مضى .
اقترب منها ، وهو يسألها فى حيرة :
ـ وما الذى تغيَّر ؟!.. هل أسأت معاملتكم يومًا ؟
لم يكد يتمّ سؤاله ، حتى أجابت فى سرعة :
ـ مطلقًا .
قالتها فى حماس شديد ، قبل أن تتراجع مستطردة :
ـ ولكن العين لا تعلو على الحاجب .
قال فى دهشة :
ـ أية عين ، وأى حاجب يا (فاطمة) ؟!.. إننا أسرة واحدة .. أنت زوجة شقيقى ، وهذا يجعلك بمثابة أخت لى ؟
رمقته بنظرة جانبية ، وهى تقول فى خفوت مختنق :
ـ هل تذكَّرت هذا ؟
قالتها ، وانفجرت فى بكاء حار ، وتركت عبارتها تخترق صدره كخنجر مسموم ..
نعم .. أما زال يذكر هذا ، أم أنه نسيه منذ فترة طويلة ؟!..
لقد فهم ما تعنيه (فاطمة) ..
لقد كان المدافع الوحيد عنها فى الماضى ، عندما كانت شخصيته أفضل ، وكان يمنع الجميع من الإساءة الدائمة إليها ، وخصوصًا (شريفة) ، التى لا تكف عن سبها ، أو معايرتها بنسبها ، من الصباح إلى المساء ..
ولكنه ذاب طويلًا وسط سحب الدخان الأزرق ، الذى انتزعه من عالمه ، وألقى به فى بئر عميقة بلا قرار ..

بئر من الخنوع والضياع والاستسلام ..
ولكن لا ..
لقد انتصر على ضعفه ، وخرج من البئر ، ولن يسمح لنفسه بالعيش فى هذا التخاذل طويلًا ..
سيستعيد شخصيته القديمة ..
سيبذل قصارى جهده لاستعادتها ..
وفى حسم ، ربَّت على كتف (فاطمة) ، وهو يقول :
ـ أنا لم أنس أبدًا يا (فاطمة) .. ولن أنسى بإذن الله .
قالها وهو يعنى كل حرف منها ..
كل حرف ..

★ ★ ★

ارتفعت عينا (حسين) فى توتر ملحوظ ، تتطلعان إلى وجه (صلاح) الخبيث المكتئز ، قبل أن يسأله فى لهفة :
ـ هل حصلت على شىء ؟
أخفى (صلاح) ابتسامته فى دهاء ، وهو يهزّ رأسه بأسى مفتعل ، ويجيب فى مسكنة خبيثة :
ـ لا شىء يا (حسين) بك .. لا شىء .. يبدو أن الرجل حريص على تفادى أى شىء ، يمكن أن يسىء إلى مركزه ثانية .
لوَّح (حسين) بذراعيه فى حدة ، وهو يقول :
ـ مستحيل !.. لا يوجد شخص كامل ، وخصوصًا هذا الرجل .. انبش خلفه جيدًا يا (صلاح) ، وستجد حتمًا ما يدينه .. هل نسيت ما كان يفعله فى السابق ؟
أجابه (صلاح) :
ـ إنه حريص تمامًا هذه المرة .

كان الحديث يدور حول شقيق (فؤاد) ، الذى عاد إلى مقعد السلطة ، ولقد بدا (حسين) شديد التوتر والعصبية ، وهو يقول :

ـ الوقت ليس فى صالحنا يا (صلاح) .. لقد طردت (فؤاد) من السراى منذ أسبوعين ، ومن المؤكد أنه أبلغ شقيقه ، وأن هذا الأخير يرثب للإطاحة بى ، ولابد لى من أن أسبقه إلى تدميره .

مال (صلاح) نحوه ، وقال مبتسمًا :

ـ اطمئن يا (حسين) بك .. كل شىء تحت السيطرة .

هتف (حسين) فى حنق :

ـ أية سيطرة ؟!.. هكذا أنت دائمًا .. من يستمع إليك يتصوَّر أنك قادر على صنع المعجزات ، وعندما يتعامل معك ، يكشف أنك مجرَّد خيال مآته ، لا تشفع ولا تنفع .

بدت ابتسامة (صلاح) شديدة الخبث ، وهو يقول :

ـ سترى ما سأفعله هذه المرة يا (حسين) بك .

زفر (حسين) فى توتر بالغ ، وأشاح بوجهه عنه لحظات ، وكأنما يكتم انفعالاته ، ثم عاد يلتفت إليه ، ويسأله :

ـ ماذا فعلت فى أمر وظيفة (مفيد) ؟

أجابه (صلاح) :

ـ كل شىء تم إعداده يا (حسين) بك ، وكل ما على (مفيد) بك هو أن يذهب ليتسلَّم عمله الجديد .

تمتم (حسين) :

ـ فليكن .. تول هذا الأمر ، فلست فى مناخ نفسى يسمح بهذا .

انحنى (صلاح) أمامه فى نفاق شديد ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا (حسين) بك .. اطمئن .

ثم تنحنح مرتين ، فسأله (حسين) فى عصبية :

ـ ماذا هناك ؟

ناوله (صلاح) ورقة مطوية ، وهو يجيب :

ـ هذه البرقية وصلت إلى منزل سيادتك يا (حسين) بك ، ولكننى رأيت ؛ لشدة أهميتها ، أن أحملها إليك هنا مباشرة ..

التقط (حسين) البرقية فى شىء من القلق ، وفضَّها فى اهتمام ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقرأ كلماتها الموجزة :

ـ « احضر فورًا .. الأمر بالغ الأهمية .. أنا فى أشد الحاجة إليك » .

ولم تكن العبارة وحدها هى التى أثارت توتره وقلقه ، وإنما هو التوقيع ..

توقيع (عايدة) ..

الأميرة (عايدة) ..

ولقد سرى القلق فى عروقه ، فور أن وقعت عيناه على هذا التوقيع ..

لماذا أرسلت (عايدة) مثل هذه البرقية ؟..

ما الذى دفعها إلى هذا ؟

وتعاظمت تساؤلاته فى أعماقه ، وامتزجت بقلقه العارم ، الذى راح يتصاعد ..

ويتصاعد ..

ويتصاعد ..

★ ★ ★

تهلّلت أسارير الحاج (سعفان) ، عندما وقع بصره على (مفيد البنهاوى) ، الذى يسير الهوينا وسط الحقول الخضراء ، وأقبل عليه هاتفًا فى سعادة :

ـ حمدًا لله على السلامة .. حمدًا لله على سلامتك يا (مفيد) بك .

صافحه (مفيد) بابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ ما معنى (مفيد) بك هذه يا عمدة ؟!.. تصوّرت أنهم ألغوا الألقاب منذ زمن .

قهقه الحاج (سعفان) ضاحكًا ، وهو يقول :

ـ على الورق فقط يا ولدى .

أومأ (مفيد) برأسه ، مغمغمًا :

ـ صدقت يا عمدة .. كل شىء يحدث على الورق فحسب .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخطة ، مع استطرادته :

ـ حتى الورق أمموه هذه الأيام .. الصحافة والأدب ، وكل شىء .

تصاعد شىء من الدهشة فى أعماق الحاج (سعفان) ، فمنذ فترة طويلة لم يسمع من (مفيد) أية انتقادات لسياسة الدولة ، كما كان يفعل من قبل ..

لقد بدا وكأن السموم التى دفعه إليها (جودة) ، قد سلبته اهتماماته بكل ما يدور حوله ..

بوطنه ، وأسرته ..

وحتى بنفسه ..

ولكن ها هو ذا يعود اليوم لمناقشة السياسات العليا وانتقادها ..

وهذا يعنى أنه يستعيد نفسه ..

يستعيد شخصيته ، التى جذبت إليه الجميع يومًا ..

ومن الطبيعى أن يشعر الحاج (سعفان) بالسعادة لهذا التطوّر ..

ولكن سعادته هذه لم تكن خالصة ..

كانت تمتزج بالكثير من الخوف والرهبة ، اللذين جعلاه يتلفّت حوله ، قبل أن يتمتم فى توتر :

ـ لا شأن لنا بهذا يا ولدى .

تطلّع إليه (مفيد) فى دهشة ، هاتفًا :

ـ ماذا تعنى بأنه لا شأن لنا بهذا يا عمدة ؟!.. إنه وطننا هذا الذى نتحدّث عنه ؟

انخفض صوت الحاج (سعفان) أكثر ، وتضاعفت فيه نبرة التوتر ، وهو يقول :

ـ بالطبع يا ولدى .. بالطبع ، ولكن دعنا نبتعد عن السياسة .

صاح به (مفيد) مستنكرًا :

ـ نبتعد عن السياسة ؟!.. أأنت الذى يقول هذا يا عمدة ؟!.. أنت ترغب فى الابتعاد عن السياسة ، وأنت الممثل الرسمى لسياسة الدولة هنا .

بدأ الحاج (سعفان) يشعر بالندم ؛ لأنه استوقف (مفيد البنهاوى) ، وهتف فى صوت أقرب إلى الهمس :

ـ أنا أمثل الجهاز التنفيذى للدولة فحسب يا ولدى ، أما السياسة ، فلا شأن لى بها على الإطلاق .

أطلق (مفيد) ضحكة ساخرة مريرة ، وهو يقول :

ـ هذا ما يظنه الجميع للأسف .. كل شخص يتصوّر أنه لا شأن له بالسياسة ؛ لمجرّد أنه لا يناقش القرارات السياسية للدولة ، ولكنه لا يدرك أن لكل قرار سياسى انعكاسًا اقتصاديًا واجتماعيًا ، يمكن أن يؤثر على أصغر فرد فى المجتمع .

كان من الواضح أن (مفيد) قد استرجع شخصيته تمامًا ، بل وامتلأت نفسه بالمزيد من السخط والعناد والتحدّى ، وكأنه يعوّض ما فاته ، فى السنوات الثلاث الأخيرة ..

ولكن الحاج (سعفان) لم يكن ليحتمل هذا ..

وخصوصًا فى تلك الأيام ..

لذا فقد غمغم فى توتر :

ـ هذا صحيح يا ولدى .. صحيح تمامًا ، ولكن اعذرنى ، فلدى موعد عاجل ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، اندفعت سيّدة عجوز من بين أعواد الذرة القريبة ، وألقت نفسها على يد (مفيد) ، تقبّلها فى لهفة ، صارخة فى لوعة واضحة :

ـ ابنى يا (مفيد) بك .. ابنى .. أقبّل يديك .. أعد إلىّ ابنى .

سحب (مفيد) يده منها فى دهشة مرتاعة ، وهو يهتف بها :

ـ ماذا دهاك يا أماه ؟!.. من ابنك هذا ؟.. وما شأنى به ؟

أغرقت دموع العجوز يديه ، وهى تختطفهما مرة أخرى ، وتغمرهما بالقبلات ، صارخة :

ـ ابنى يا (مفيد) بك .. ليس لى بعد الله (سبحانه وتعالى) سواك .. أعد إلىّ ابنى بالله عليك .

سحب (مفيد) يديه منها مرة أخرى ، أو انه انتزعهما بالقوة ، وهو يحدّق فى وجهها ذاهلًا ، فتطوّع الحاج (سعفان) بتوضيح الموقف ، قائلًا :

ـ إنها والدة (جودة) .. صاحب مقهى موقف السيارات .

سأله (مفيد) فى دهشة :

ـ وماذا أصاب ولدها ؟

رفعت العجوز عينيها إليه فى دهشة بالغة ، شاركها فيها الحاج (سعفان) ، وهو يقول :

ـ ألم تسمع بما حدث ؟

هزّ (مفيد) رأسه فى حيرة ، مغمغمًا :

ـ وما الذى حدث ؟

أجابه الحاج (سعفان) :

ـ لقد هاجمت ثلاث سيارات رسمية مقهى (جودة) ، بعد مغيب الشمس ، منذ عدة أيام ، وحطموا كل مقاعد وموائد المقهى ، ثم ألقوا القبض على (جودة) وصبيه (سلامة) ، وحملوهما معهم ، وانصرفوا بعد أن أثاروا موجة من الذعر والفزع فى المكان .

قال (مفيد) فى دهشة :

ـ أهم رجال مكافحة المخدرات ؟

صاحت العجوز باكية :

ـ وما شأن ابنى بالمخدرات يا (مفيد) بك ؟.. إنه حتى لا يدخّن سيجارة واحدة .

فتح (مفيد) شفتيه ، ليقول لها شيئًا ما ، ثم لم يلبث أن أطبقهما ، مراعاة لمشاعرها فى تلك اللحظات ، فى حين قال الحاج (سعفان) :

ـ هذا ما تصوّرناه جميعًا ، وبناءً عليه ، فقد ذهبت مع بعض رجال القرية ، إلى الشرطة ؛ للسؤال عنه ، ولكنهم أخبرونا هناك بأنه لا علم لهم بما حدث ، وبأن هؤلاء الذين حطموا المقهى ، وألقوا القبض على (جودة) و (سلامة) ، لا ينتمون قط إلى جهاز

الشرطة ، وهنا ثار شقيق (جودة) واعترض ، وطالب رجال الشرطة بالتدخل ، للبحث عن شقيقه المختطف ، ولكن ضابط النقطة أجرى بعض الاتصالات ، ثم عاد إلينا شاحب الوجه ، ونصحنا بالعودة إلى منازلنا ، وبعدم إثارة الأمر ، وإلا ..

توقف الرجل لحظة ليلتقط أنفاسه ، أو ليزن كلماته قبل أن ينطقها ، ثم تابع فى خفوت :

ـ وفهمنا جميعًا على الفور .. حتى شقيق (جودة) ابتلع لسانه ، وسجنه خلف أسنانه ، وعاد معنا إلى القرية صامتًا ، يجر أذيال الخوف والرهبة والمرارة .

قال (مفيد) فى حدة :

ـ أتعنى أن من أخذوه ..

قاطعه الحاج (سعفان) فى ارتياع شديد ، وهو يلوّح بذراعيه فى وجهه :

ـ لست أعنى شيئًا .. أقسم بالله العظيم ثلاثًا إننى لم أكن أعنى شيئًا .. إننى أردِّد ما سمعته فحسب .

لم يصدِّق (مفيد) عينيه وأذنيه ، وهو يحدِّق فى وجه الحاج (سعفان) ..

لم يصدِّق أبدًا أن ذلك الجبان الرعديد ، الذى يرتجف هلعًا أمامه ، هو نفسه ذلك الشيخ الحكيم الصارم ، الذى طالما تصدَّى للظلم ، وحارب فى سبيل العدل ..

ومرة أخرى ، انهالت العجوز على يديه بالقبلات ، مردِّدة العبارة نفسها :

ـ ولدى يا (مفيد) بك .. ولدى .

وعندئذ ، أدرك (مفيد) أن الأمور قد تغيَّرت كثيرًا .. كثيرًا جدًّا ..

★ ★ ★

كاد (مراد صقر) يقفز من خلف مكتبه ، ويصرخ فى وجه (حسين) فى سعادة ، إلا أنه تماسك فى قوة يُحسد عليها ، ونجح فى دفع أكبر قدر من اللامبالاة إلى صوته ، وهو يقول :

ـ هل تريد السفر إلى (باريس) ؟!.. ما سبب مطلبك هذا ؟

غمغم (حسين) فى شىء من الضيق :

ـ الواقع أنه سبب شخصى .

عقد (مراد) حاجبيه فى صرامة مدروسة ، وهو يقول :

ـ أنت تعلم أنه لا توجد أسباب شخصية فى عالمنا .

تنهَّد (حسين) ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. أعلم .

وصمت لحظة ، وكأنما يجمع شتات نفسه ، ثم استطرد فى لهجة حاسمة :

ـ الوقع أننى أريد السفر ، لمقابلة خطيبتى هناك .

هتف (مراد صقر) :

ـ الأميرة (عايدة) ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى كاد يحطِّم أسنانه بنفسه ، فى حين انعقد حاجبا (حسين) فى شدة ، وبركان ثائر يتفجَّر فى أعماقه ..

إذن فهم يعلمون !..

إنهم يعرفون بأمر علاقته بالأميرة السابقة (عايدة) !..

لماذا لم يصارحه أحدهم أبدًا ؟!..

لماذا اكتفوا بالحصول على المعلومة ، وكتمان الأمر عنه ؟!..

ثم إلى أى مدى يعرفون طبيعة علاقته بها ؟!..
وماذا لديهم فى هذا الشأن ؟!..
كانت كل هذه التساؤلات كافية ، لتفجير قلقه وحذره إلى أقصى حد ، وعلى الرغم من هذا فقد أجاب بسرعة :
ـ نعم .. إنها هى !
جال (مراد) ببصره فى ملامح (حسين) لحظات ، وكأنما يسعى لسبر أغواره ، وكشف ما يدور خلف قسماته ، إلا أن (حسين) استقبل عينى (مراد صقر) بوجه جامد ، تعلّم كيف يخفى انفعالاته ، حتى قال هذا الأخير ، وهو يخفض عينيه ، وكأنما يتشاغل بمراجعة بعض التقارير الواردة إليه :
ـ فليكن .. سأمنحك أسبوعًا واحدًا للذهاب والعودة .
قال (حسين) فى هدوء عجيب ، لم يتوقعه :
ـ أشكرك يا (مراد) بك .
ولم يكد (حسين) يغادر مكتبه ، حتى ضغط (مراد) زر جهاز الاتصال الخاص ، وهو يقول لمدير مكتبه فى حزم :
ـ أريد العقيد (إبراهيم مكى) فورًا .
لم تمض دقائق معدودة ، حتى كان (إبراهيم) يقف أمامه فى مكتبه ، فقال له فى توتر ملحوظ :
ـ (حسين) طلب السفر إلى (باريس) .. أهذا الأمر من تدبيرك ؟
هزَّ (إبراهيم) رأسه نفيًا ، وهو يقول :
ـ مطلقًا .. لقد أرسلت إليه (عايدة) برقية ، تطلب منه فيها السفر إليها بأقصى سرعة ، لسبب لم تحدّده .
ثم مال نحوه ، مستطردًا فى خبث :
ـ ولكن سفره سيفيدنا كثيرًا .

أومأ (مراد) برأسه ، وهو يقول :
ـ أعلم هذا ، ولكن المشكلة أننى نطقت أمامه باسم (عايدة) ، على الرغم من أنه لم يصارحنى بعلاقته بها قط .
هتف (إبراهيم) :
ـ ماذا ؟!
ثم تراجع بسرعة ، مستدركًا :
ـ ولكننى لست أعتقد أن هذا سيصنع فارقًا كبيرًا ، فالجميع يعرفون علاقته السابقة بها ، وسيتصوَّر هو أنك تعلم هذا بحكم منصبك .
قالها مجاملًا ، وإن كان يؤمن فى أعماقه بأن هذا قد يوقظ روح الشك فى أعماق (حسين) ، ويدفعه إلى المزيد من الحرص والحذر ، مما يزيد من صعوبة المهمة ..
ولكنه لن يؤدى بها إلى الفشل قط ..
« هل تعتقد أنه من المناسب أن نواصل خطتنا ؟.. » .
قطع (مراد) سيل أفكاره بهذا السؤال ، فتطلّع إليه (إبراهيم) لحظة ، قبل أن يقول بابتسامة غاضبة :
ـ بالتأكيد ، فلقد عاونتنا الأميرة (عايدة) بنفسها على نجاح الخطة ، مع تلك الاتصالات التى أجرتها مؤخرًا .
اعتدل (مراد صقر) ، وهو يسأله فى اهتمام :
ـ اتصالات مع من ؟
ازدادت ابتسامة (إبراهيم) خبثًا وغموضًا ، وهو يجيب :
ـ اتصالات مع الشركة العالمية للاستيراد والتصدير .

تراجع (مراد) بحركة حادة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى الاسم ؛ فقد كان نصف المسئولين فى إدارته يعلمون أن هذه الشركة ، التى تحتل ثلاثة طوابق كاملة ، فى أكبر شوارع (باريس) ، ليست سوى ستار خفى ، يعمل من خلفه جهاز المخابرات ..

المخابرات الإسرائيلية .

* * *

ازدادت ابتسامة (إبراهيم) خبثًا وغموضًا ، وهو يجيب :

ــ اتصالات مع الشركة العالمية للاستيراد والتصدير ..

٧ ـ الهـاوية ..

« لست أصدّق هذا .. » .

هتف الثرى الفرنسى (جان) بهذه العبارة ، فى مزيج من الدهشة والحنق ، وهو يحدّق فى وجه (عايدة) ، التى أطفأت سيجارتها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ صدّق أو لا تصدّق يا (جان) .. هذه أنا ، وهذا ما أفعله لمن يجرح كرامتى .

صاح فيها :

ـ أية كرامة ؟!.. ما الذى فعله (حسين) هذا ، حتى تفكرين بذلك الأسلوب ، الذى ينافس أساليب عصابات (مارسيليا) القديمة ؟!.. كل ما فعله هو أنه اعتذر عن البقاء ، للحاق بعيد ميلاد ابن شقيقه ، الذى يعتبره بمثابة ابنه ، فما الذى يجرح كرامتك فى هذا ؟

صرخت ، وهى تشعل سيجارة أخرى :

ـ لا أحد يترك (عايدة) .. أنا أترك من أشاء ، ولا أحد يتركنى ، مهما كانت الأسباب .

رمقها بنظرة دهشة ، قبل أن يلوّح بيده ، قائلًا :

ـ كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل ؟!.. أنت لست إنسانة عادية .. أنت كتلة من النرجسية والأنانية ، إلى حد يقترب من الجنون .

رفعت عينيها إليه فى غضب هادر ، فتابع فى حدة :

ـ وعقلك الفارغ يختلق المعارك من الفراغ ، ثم يدفعك لإتيان أعمال طائشة ، ستجرك يومًا إلى الهاوية .

بدا صوتها صارمًا مخيفًا ، وهى تقول :

ـ أهذا رأيك ؟

هتف :

ـ بل هو رأى أى شخص عاقل .. لقد ارتكب الرجل معك هفوة بسيطة ، وكان ينبغى عليك تقدير مشاعره ، ولكنك بدلًا من هذا ، رحت تخططين لتحطيمه بانتقام جنونى ، دفعك للتورّط فى أمور بالغة الخطورة ، وربما تنجحين فى تدمير مستقبله ، بتلك اللعبة الحقيرة ، ولكن هذا لن يمنعك من السقوط معه فى الهاوية نفسها ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، التقطت منفضة السجائر من أمامها ، وألقت كل محتوياتها فى وجهه بكل قوتها ..

وفى ذهول ، قفز (جان) من مقعده ، وحدّق فى وجهها ، وران صمت رهيب على ملهى (الليدو) ، والجميع يتطلعون إلى (عايدة) فى دهشة بالغة ، ولكن هذا لم يمنعها من تحطيم الصمت بصرخة هادرة :

ـ اخرس .. ينبغى أن تتعلّم كيف تتعامل مع أميرة مثلى .. ألم تدرك أبدًا أننى أتواضع كثيرًا بصداقتى لك ؟!.. هل نسيت من أنت ومن أنا ؟!

انتزعه غضبه من ذهوله ، وهو يهتف بها :

ـ كلّا .. لم أنس يا (عايدة) .. لم أنس أننى عندما التقيت بك ، كانت مصروفاتك تزيد على ضعف إيراداتك ، وأننى الرجل الذى حقّق الموازنة ، وغطى العجز فى الفارق بين دخلك وإنفاقك .. بل إننى صاحب كل فرنك افتتحت به متجرك .

تراجعت فى مقعدها ، ونفثت دخان سيجارتها فى وجهه ، وهى تقول :

ـ هل يمكنك إثبات هذا ؟

نفض رماد السجائر عن حلته الفاخرة ، وهو يقول :

ـ كلّا يا (عايدة) .. لن أحاول حتى إثبات هذا .. إننى أعتبره ثمنًا مناسبًا ، فلكل عاهرة ثمنها فى (باريس) .

قفزت من مقعدها صارخة فى وجهه :

ـ اخرس .. اخرس أيها الحقير .. سأقاضيك من أجل هذا السباب القذر .

ابتسم فى سخرية عصبية ، هو يقول :

ـ سباب قذر ؟!.. افعلى إذن يا (عايدة) .. قاضينى لو أن لديك الشجاعة لتفعلى .

ثم مال نحوها ، والتقت عيناه الغاضبتان بعينيها الجميلتين ، وهو يستطرد :

ـ ولكننى عندئذ ، سأكشف كل الأوراق .. هل تفهمين ؟.. كل الأوراق ؟

واعتدل بحركة حادة ، ورفع رأسه فى كبرياء ، وانطلق يغادر الملهى فى صرامة ، تاركًا إياها خلفه ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى قوة وعقلها يفكّر فى كل كلمة نطقها ..

كل كلمة ..

★ ★ ★

أطلق (فؤاد) زفرة عصبية ، وهو ينهى محادثته مع شقيقه فى عنف ، فسألته زوجته (ناهد البنهاوى) فى حذر :

ـ ماذا حدث هذه المرة ؟

أجابها فى حدة :

ـ كما يحدث فى كل مرة .. إنه يطالبنى بالصبر بعض الوقت ، حتى يستقرّ تمامًا فى مقعده ، ثم يسعى معى لاستعادة أرضك من شقيقك المغرور هذا .

كان قلب (ناهد) يتمزّق ، بين شقيقها وزوجها ، على الرغم مما فعله (حسين) معها ، فهى ترغب قطعًا فى استعادة نصيبها من أرض والدها ، ولكنها تخشى ، فى الوقت ذاته ، أن ينجح زوجها وشقيقه فى إيذاء (حسين) ، الذى تكن له الكثير من الحب والمودّة الأخوية ..

وفى خفوت ، غمغمت :

ـ فليكن .. دعنا نصبر قليلًا إذن .

صاح فى غضب :

ـ مستحيل !.. لقد طردنا من السراى .. طردنا من سراى والدك .. لقد أعماه الغرور ، فتصوّر أنه فوق كل شىء ، ومن الضرورى أن ألقّنه درسًا لا ينساه أبدًا .

قالت فى خنوع :

ـ وما الذى يمكنك أن تفعله ؟

قال فى حنق :

ـ المفترض أنه يمكننى أن أصنع الكثير ، مع عودة شقيقى إلى منصبه ، ولكن يبدو أنه ما زال يذكر أن (حسين) هو الذى نجح فى إزاحته ، فى المرة السابقة ، وما زال يحمل له بعض الرهبة فى أعماقه .

ثم اعتدل ، وأضاف فى حزم :

ـ ولكن شقيقى ليس الشخص الوحيد ، الذى يمكننى من خلاله تدمير (حسين البنهاوى) ..

ارتجف قلبها ، مع كلمة (تدمير) هذه ، فوضعت راحتها على صدرها ، وكأنها تحاول إيقاف خفقان قلبها الملتاع ، وهى تسأل زوجها فى صوت شاحب :

ـ ومن غيره ؟

أجاب بسرعة :

ـ (إبراهيم) .

ثم برقت عيناه فى شىء من الشراسة ، وهو يضيف :

ـ (إبراهيم بك مكى) .

وعلى الرغم من أنها لم تكن تعلم الكثير عن صاحب الاسم ، إلا أن قلبها عاد يخفق فى عنف ..

وفى ارتياع ..

★ ★ ★

فرك (حسين) كفيه فى عصبية ، وهو يستقبل (صلاح) فى مكتبه ، وقال فى توتر شديد :

ـ اجلس يا (صلاح) .. أريد أن أتحدث معك .

أدرك (صلاح) بطبيعته الخبيثة أن رئيسه يواجه مشكلة كبيرة ، فجلس أمامه متحفزًا ، وهو يقول فى حماس مفتعل :

ـ أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك .

رمقه (حسين) بنظرة طويلة ، قبل أن يسأله بغتة :

ـ لحساب من تعمل يا (صلاح) ؟

كان السؤال مباغتًا ، حتى أن قناع (صلاح) الخبيث هوى بغتة ، فاتسعت عيناه فى دهشة ، وحدق لحظة فى وجه (حسين) ، الذى ظل صامتًا ، حتى انتزع (صلاح) نفسه من ذهوله ، وأجاب :

ـ كلنا نعمل من أجل (مصر) ، و ...

قاطعه (حسين) فى صرامة :

ـ دعك من تلك الردود الإنشائية ، ولا تحاول اللف والدوران معى ، وأجب بكل صراحة ووضوح .. لحساب من تعمل هنا ؟.. لحسابى أنا ، أم لحساب (إبراهيم مكى) ؟

مرة أخرى كانت الصراحة مباغتة ومثيرة للحيرة ، على نحو أربك (صلاح) ، الذى ازدرد لعابه ، وأجاب فى خفوت :

ـ وهل يحتاج الأمر إلى سؤال ؟.. إننى أعمل لحسابك بالطبع يا (حسين) بك .

تراجع (حسين) فى مقعده ، وهو يقول :

ـ ربما .

ارتبك (صلاح) أكثر ، وتصور أن (حسين) قد كشف أمر تلك التقارير السرية ، التى يقدمها عنه للعقيد (إبراهيم مكى) ، فلاذ بالصمت التام ، واستمع إلى (حسين) ، وهو يتابع فى صرامة :

ـ ولكن تحديد الموقف أمر بالغ الأهمية والخطورة يا (صلاح) ، فقديمًا نصحنى شخص محنك ، بأن أراهن دائمًا على الجواد الرابح ، وسأنقل هذه النصيحة إليك يا (صلاح) .

ثم مال نحوه بحركة حادة ، مستطردًا :

ـ لا تراهن إلا على الجواد الرابح يا (صلاح) .

كان لتلك الحركة المسرحية تأثيرها الواضح ، فقد تراجع (صلاح) فى حركة حادة ، ثم ازدرد لعابه مرة أخرى ، وقال :

ـ بِمَ تأمرنى يا (حسين) بك ؟

تراجع (حسين) فى مقعده ، وأطلّت من عينيه نظرة ظافرة ، وهو يقول :

ـ سأسافر بعد ساعات إلى (باريس) .

قال (صلاح) بسرعة :

ـ سفرًا موفقًا وعودًا حميدًا بإذن الله يا (حسين) بك .

تجاهل (حسين) هذا القول تمامًا ، وتابع فى حزم :

ـ وأنا واثق من أن (إبراهيم مكّى) يدبّر لى أمرًا ما ، ولكننى أجهل طبيعة هذا الأمر بالتحديد .

وعاد يميل نحو (صلاح) بغتة ، مستطردًا :

ـ وهذه مهمتك .

تطلّع إليه (صلاح) لحظة فى دهشة ، قبل أن يقول :

ـ هل تطلب منى مراقبة (إبراهيم مكّى) ؟

شبّك (حسين) أصابع كفيه أمامه ، وهو يقول فى حزم :

ـ كل ما أريده هو أن أعرف ما يدبّره لى (إبراهيم مكّى) ، فهل يمكنك هذا ، بأية وسيلة كانت ؟

صمت (صلاح) طويلًا ، وهو يدرس هذا الموقف المعقّد فى ذهنه ..

إنه يعمل بالفعل لحساب (إبراهيم مكّى) ؛ لمراقبة (حسين البنهاوى) ، فكيف يمكنه أن يلعب اللعبة نفسها ، فى الاتجاه العكسى ؟!..

ولم يستغرق عقله طويلًا ، ليتخذ قراره فى هذا الشأن ..

وفى حسم ، أجاب :

ـ أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك .

ارتسمت ابتسامة ظافرة على شفتى (حسين) ، وهو يقول :

ـ عظيم .. فى هذه الحالة ...

قبل أن يتمّ عبارته ، قاطعه رنين هاتفه الخاص ، فأشار إلى (صلاح) بالانتظار ، والتقط سمّاعة الهاتف ، قائلًا :

ـ ماذا هناك ؟

أتاه صوت حارس أمن البوّابة ، وهو يقول :

ـ هنا زائر يصرّ على مقابلتك يا (حسين) بك !

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ زائر ؟!.. ألا تعلم يا رجل أنه من المحظور استقبال أى زائر عشوائى هنا ، و ...

قاطعه الرجل فى سرعة :

ـ إنه شقيق سيادتك ، ويدعى (مفيد محمد البنهاوى) .

ارتفع حاجبا (حسين) فى دهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ (مفيد) ؟!.. وما الذى أتى به هنا ؟

ثم سيطر على مشاعره بسرعة ، مستطردًا :

ـ فليكن .. دعه ينتظر فى استراحة المدنيين ، وسأهبط إليه فورًا .

ثم أعاد السمّاعة إلى موضعها ، وهو يقول لـ (صلاح) :

ـ عد إلى مكتبك الآن يا (صلاح) ، واستعد لتوصلنى بسيارتك إلى المطار ، فلم ينته حديثنا بعد .

أسرع (صلاح) ينصرف ، وهو يقول بأسلوبه المنافق :

ـ كما تأمر يا (حسين) بك .. كما تأمر .

تركه (حسين) يغادر المكتب ، والتقط سترته ، وهو يتساءل فى أعماقه ..

لماذا يقوم (مفيد) بزيارته فى مقر عمله ؟..

لمـاذا ؟!..

★ ★ ★

« من أجل (جودة) .. » .

نطق (مفيد) بهذا الجواب فى شىء من الغضب ، جعل (حسين) يقول فى صرامة :

ـ وماذا تريد من ذلك الحقير ؟.. هل عاودتك الرغبة فى تدخين تلك السموم ؟

قال (مفيد) فى حدة :

ـ لا شأن للسموم بهذا .. إننى أتحدّث عن حقه كمواطن .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (حسين) ، وهو يقول :

ـ حقـه ؟!..

ثم ربّت على كتف (مفيد) ، مستطردًا :

ـ اسمع يا (مفيد) .. دعك من (جودة) ومشكلاته ، فهو يستحق كل ما يواجهه الآن ، واستمع إلىّ جيدًا .. لقد حصلت لك على عمل ممتاز .. لقد تم تعيينك بالفعل كمدرّس فى مدرسة (طنطا) الثانوية للبنات .

قال (مفيد) فى دهشة :

ـ مدرّس ؟!

أجابه (حسين) فى حزم :

ـ نعم .. إنها أفضل وظيفة تناسبك ، ولقد حصلت عليها بموافقة الوزير نفسه ، والمفترض أن تتسلّم عملك صباح الغد .

قال (مفيد) :

ـ وماذا عن (جودة) ؟

أجابه (حسين) فى صرامة :

ـ قلت لك دعك منه .

هتف (مفيد) محنقًا :

ـ ولكنه مواطن مصرى ، وله كل الحقوق والواجبات ، التى يتمتع بها أى مواطن ، حتى ولو كان أحد تجار المخدرات ، و ...

قاطعه (حسين) فى صرامة :

ـ لا شأن للمخدرات بإلقاء القبض على (جودة) هذا .

قال (مفيد) فى حدة :

ـ لا يمكنكم إلقاء القبض على مواطن ، بدون تهمة محددة .

ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتى (حسين) ، وهو يقول :

ـ بالطبع .. لقد ألقينا القبض على (جودة) بتهمة محددة .

سأله (مفيد) :

ـ وما هى ؟

صمت (حسين) لحظة ، قبل أن يجيب فى صرامة :

ـ محاولة قلب نظام الحكم .

واتسعت عينا (مفيد) فى ذعر ودهشة ..

إنه لم يكن يتصوّر أن الصورة بهذه القتامة ..

لم يكن يتصوّر هذا أبدًا ..

وبكل وضوح ، ارتسمت أمارات الامتعاض والمرارة على وجهه ، فاقترب منه (حسين) ، وربّت على كتفه ، قائلًا :

ـ ولكننى أعدك بدراسة موقفه مرة أخرى ، بعد عودتى من (باريس) .

سأله (مفيد) فى خفوت ، وكأنما انكسر كل حماسه فى أعماقه :

ـ أهذا وعد ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم يا (مفيد) .. هذا وعد .

نطقها بكل حزم وحسم وثقة ، لأنه كان صادقًا فى وعده ، وفى إعادة النظر فى موقف (جودة) ، ولكن ..

عند عودته من (باريس) ..

المشكلة الوحيدة هى أنه لم يكن يدرى ما الذى ينتظره فى العاصمة الفرنسية ..

لم يكن يدرى قط !

* * *

٨ ـ باريس ..

، (حسين) .. (حسين) .. ، .

لوّحت (عايدة) بيدها فى حرارة ، عندما لاح لها وجه (حسين) ، من بين وجوه الركاب ، الذين وصلوا على متن الطائرة القادمة من (القاهرة) ، ولمحها هذا الأخير ، وهى تقف بين المستقبلين بفتنتها وسحرها ، فى ثوب أحمر ، تألّق فوق جسدها على نحو عجيب ، وتناغم فى أناقة مع بشرتها الوردية ، وطلاء شفتيها اللامع ، فاتجه نحوها مباشرة ، وقال وهو يصافحها :

ـ تبدين فى صحة جيدة يا (عايدة) .

ضحكت فى خبث ، وهى تقول :

ـ هذا أمر طبيعى ، فأنا أعيش حياتى بالطول والعرض كما يقولون .

تطلّع إليها فى دهشة ، وسار إلى جوارها ، إلى خارج المطار ، وهو يسأل :

ـ أنت مرحة أيضًا .. عجبًا !.. برقيتك أشارت إلى أنك تواجهين مشكلة .

قادته إلى سيارتها ، قائلة :

ـ مشكلة ؟!.. لست أذكر قط أننى أشرت إلى أية مشكلات .. كل ما قلته هو أننى فى أمس الحاجة إليك ، وأن الأمر هام للغاية .

توقف أمام السيارة ، وهو يقول فى حدة :

ـ هل سنبدأ فى اللعب بالكلمات الآن ؟.. ما الذى تعنيه برقيتك ، لو أنها لا تشير إلى مواجهتك لمشكلة ما ؟

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ ربما تشير إلى أمر آخر .

سألها فى غضب :

ـ مثل ماذا ؟

مالت على أذنيه ، اللتين امتلأتا بأنفاسها الحارة ، قبل أن تهمس فى إغراء :

ـ صفقة مثلًا .

تطلّع إليها فى دهشة مستنكرة ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ وما شأنى أنا بالصفقات ؟!.. هل أخبرتك يومًا أننى رجل أعمال ؟

ضحكت ، وهى تقول :

ـ أنا واثقة من أن هذه الصفقة بالذات ستروق لك .

هتف محنقًا :

ـ (عايدة) .. لست أحب أسلوب الغموض والأسرار هذا .

رفعت حاجبيها فى دهشة مصطنعة ، وهتفت فى سخرية :

ـ أنت لا تحب الغموض والأسرار ؟!.. كيف هذا يا حبيب القلب ، وكل عملك يرتبط بالغموض والأسرار ؟

احتقن وجهه ، وصاح بها فى سخط غاضب :

ـ هل أرسلت فى طلبى ، لتسخرى منى على هذا النحو ؟

هتفت :

ـ أنا ؟!.. أنا أسخر منك .. فليقطع لسانى قبل أن أفعل يا حبيبى .

وعادت تميل نحوه ، لتطبع قبلة على وجنته ، قبل أن تمنحه واحدة من أكثر ابتساماتها عذوبة ، وهى تستطرد :

ـ هيّا .. سنذهب إلى متجرى أوّلًا ، وهناك ستفهم كل شىء .

ثم تلفّتت حولها ، هاتفة :

ـ ألم تحضر سوى حقيبة واحدة ؟

أجابها فى صرامة :

ـ هذا أفضل ، ففقد حقيبة واحدة أهون من فقد ثلاث حقائب .

أطلقت ضحكة منتشية عجيبة ، وهى تقفز إلى مقعد القيادة ، قائلة :

ـ أما زلت تنكر هذا ؟

دفع حقيبته فى المقعد الخلفى ، ثم جلس على المقعد المجاور لها ، فانطلقت بالسيارة على الفور ، وهى تسأله :

ـ كيف كانت رحلتك هذه المرة ؟

أجابها فى اقتضاب :

ـ جيدة .

لم يكن شعوره بالحذر قد فارقه بعد ، مع تساؤله عما دفع (عايدة) لإحضاره إلى (باريس) على هذا النحو ..

وعاوده ذلك القلق المبهم ، مع الابتسامة الظافرة المنتشية ، التى ارتسمت على شفتيها الجميلتين ، والتى بدت له أشبه بابتسامة ثعلب ، عثر أخيرًا على ثغرة مثالية ، يمكن أن تقوده إلى قلب حظيرة دجاج منيعة ..

ومع حيرته وقلقه وتساؤلاته ، لم يتبادل معها كلمة واحدة إضافية ، طول الطريق من المطار إلى متجرها الأنيق ، الذى توقفت أمامه ، وهى تضحك قائلة :

- هل ستظلّ صامتًا إلى الأبد ؟

قال ، وهو يغادر السيارة ، ويقف أمام المتجر :

- لم أجد بعد ما يستحق القول .

شعرت بالحنق لإجابته المفتقرة إلى اللياقة ، ولكنها كظمت غيظها ، وأشارت إلى المتجر ، قائلة :

- لا بأس .. من المؤكّد أنك ستجد الكثير لتقوله فى الداخل .

تبعها إلى داخل المتجر ، واستقبلتهما البائعات الباريسيات فيه بحرارة ، فالتفتت (عايدة) إلى إحداهن ، وسألتها فى صرامة :

- هل وصل مسيو (روبير) ؟

أشارت العاملة بيدها ، قائلة :

- نعم يا سيّدتى .. إنه ينتظر فى حجرة العرض كما طلبت .

تألّقت عينا (عايدة) ببريق ظافر عجيب ، وهى تقول :

- عظيم .

ثم اتجهت إلى حجرة خلفية ، وهى تقول لـ (حسين) :

- استعد يا حبى ، فستبدأ الصفقة الآن .

لم يفهم (حسين) ما تعنيه ، حتى دلف خلفها إلى الحجرة ، ووقع بصره على ذلك الرجل الطويل النحيل الأصلع ، ذى اللحية القصيرة والشارب الرفيع ، الذى نهض لاستقبالهما بابتسامة كبيرة منافقة ، وهو يقول :

- مرحبًا يا أميرة (باريس) ، وأهلًا بك يا أستاذ (حسين) .. يسعدنى كثيرًا أن نلتقى .

وتجمّد (حسين) فى مكانه ، واتسعت عيناه فى شدة ، وهو يحدّق فى وجه الرجل ، الذى يلتقى به لأوّل مرة ، ولكنه يحفظ صورته عن ظهر قلب ، من خلال عمله ..

وعندما مدّ الرجل يده نحوه ، كان من العسير أن يصافحه بهذه البساطة ؛ فهو يعلم جيدًا أن ذلك الأصلع الواقف أمامه ، هو أحد أخطر ضباط المخابرات ..

المخابرات الإسرائيلية ..

★ ★ ★

لم يكد (مفيد) يهبط من سيارة الأجرة ، التى أقلّته إلى (طنطا) ، حتى راح قلبه يخفق فى شدة ، وانطلقت عيناه تلتهمان المكان فى لهفة عجيبة ، لم يفسدها سوى ذلك الألم فى قلبه ، وتلك الغصة فى حلقه ..

لقد استعاد عقله وقلبه ذكريات سابقة ، كانت لها أكبر الأثر فى حياته ..

وبسرعة ، أزاح هذه الذكريات جانبًا ، وحاول أن يطرحها خلف ظهره ، وهو يسير فى خطوات سريعة ، متجهًا إلى مدرسة (طنطا) الثانوية ، التى استخدم شقيقه سلطاته ، ليمنحه وظيفة مدرّس فيها ..

ولكن ذكرياته عادت تلحّ عليه فى عناد ..

وفى أعماقه ، ارتسمت صورة لفتاة رقيقة ، ذات جمال هادئ وابتسامة عذبة ..

صورة (سوسن) ..

واختلج قلبه فى عنف ..

كيف لم ينتبه إلى كل هذا الحب ، الذى يحمله لها فى أعماقه ؟!..

بل فى كيانه كله ؟..

كيف لم يشعر به إلا بعد أن خسره ؟!..

انتابه ندم عنيف ، وهو يستعيد ذكرى تلك الأيام ، وذكرى آخر لقاء له مع (سوسن) ، و ...

وفجأة ، أفاق من نكرياته ، وهو يقف أمام باب المدرسة ، والبوّاب يسأله فى شك ممزوج بحدة صارمة :

ـ ماذا تريد يا أستاذ ؟

لم يدر لماذا شعر بالارتباك ، أمام هذا السؤال ، فازدرد لعابه ، وهو يغمغم :

ـ أريد .. أريد مقابلة ناظرة المدرسة .

سأله البوّاب بلهجة هجومية :

ـ لماذا ؟.. أأنت قريب لإحدى الطالبات هنا ؟

انخفض صوت (مفيد) أكثر ، وهو يجيب :

ـ بل أنا المدرّس الجديد .

حدّق البوّاب فيه باستنكار ، وهو يتساءل عما يفعله الحمقى فى الوزارة ، الذين يرسلون شابًا وسيمًا كهذا ، للعمل كمدرّس فى مدرسة بنات ، تجمع فتيات فى عمر الزهور ..

ولكنه لم يكن يملك سوى ذلك الاستنكار ، الذى لم يتجاوز أعماقه ، وهو يفتح البوّابة ، ويشير بيده فى شىء من السخط ، قائلًا :

ـ ثالث حجرة إلى اليمين .

عبر (مفيد) البوّابة ، واتجه فى خطوات سريعة إلى حجرة الناظرة ، ودقّ بابها فى رفق ، وانتظر حتى سمع صوتها يدعوه للدخول ، فدفع الباب فى هدوء ، ودلف إلى الحجرة ، وهو يقول :

ـ صباح الخير .. أنا (مفيد) .. (مفيد البنهاوى) .

نطقها فى شىء من الارتباك ، وهو ينقل بصره بين وجه ناظرة

المدرسة ، التى تجلس خلف مكتبها ، ووجه حسناء فاتنة ، تقف أمام المكتب ، وتتطلّع إليه بدورها فى فضول واضح ..

وجذبه وجه هذه الحسناء منذ اللحظة الأولى ..

كانت فى أوائل العشرينيات من عمرها ، متوسّطة الطول ، بيضاء البشرة ، لها عينان واسعتان ، فى لون سماء يوم صحو ، تطلّ منهما ابتسامة مرحة ، تشبه تلك المرتسمة على شفتيها الصغيرتين الجميلتين ، اللتين تشبهان ثمرتى فراولة ناضجتين ، وترتسمان فى أناقة ، أسفل أنف دقيق ، ووسط وجه بيضاوى متناسق ، يحيط به شعر كستنائى ناعم قصير ، منحها مظهرًا أشبه بنجمات السينما ..

أما ثوبها فكان أنيقًا ، على الرغم من بساطته وقماشه الرخيص ..

ولثوان ، تعلّقت عينا (مفيد) بوجه تلك الحسناء ، فى انبهارٍ واضح ، استوعبته هى على الفور ، فتسلّل إلى ابتسامتها مزيج من الثقة والزهو الظافر ، فى نفس اللحظة التى هبّت فيها الناظرة من خلف مكتبها ، وهى تهتف فى حرارة :

ـ (مفيد البنهاوى) .. (مفيد محمد البنهاوى) .. أهلًا .. أهلًا يا (مفيد) بك .. تفضل .

بدت الدهشة على وجه الحسناء ، وارتفع حاجباها الجميلان ، وهى تتساءل عن سر هذا الاهتمام المبالغ ، فى حين استقبل (مفيد) الأمر بشكل طبيعى ، وكأنه كان يتوقعه ، وغمغم :

ـ أنا المدرّس الجديد .

أجابته الناظرة ، وهى تصافحه فى حرارة :

ـ نعم .. نعم .. أعلم هذا .. لقد أبلغونى أنك قادم إلينا .. أهلًا بك فى المدرسة .

فى هذه المرة ، انعقد حاجبا الحسناء ، وتضاعفت دهشتها ، وتصاعدت نبرة التساؤل فى أعماقها ..

مدرِّس جديد ؟!..

ومنذ متى تستقبل الناظرة المدرسين الجدد ، بكل هـذا الحماس ؟!..

وبدأ فضولها يتحوَّل إلى اهتمام شديد ، وهى تتابع ما يحدث ، والناظرة تقول بابتسامة منافقة كبيرة :

ـ متى تحب أن تتسلَّم عملك يا (مفيد) بك ؟

أجابها فى شىء من الخجل :

ـ غدًا لو أمكن .

قالت فى حماس :

ـ بالطبع .. يمكنك أن تتسلَّم عملك غدًا ، ما دمت تريد هذا يا (مفيد) بك .

غمغم فى شىء من الارتباك :

ـ معذرة يا سيِّدتى ، ولكننى أفضِّل لقب الأستاذ ، أو السيِّد .

احتقن وجه الناظرة ، وهى تقول :

ـ آه .. فليكن يا (مفيد) بك .. أعنى يا أستاذ (مفيد) .. هذا أفضل .

ثم التفتت إلى الحسناء ، واستطردت فى شىء من الحدة ، وكأنها تفرغ فيها توتر الموقف كله :

ـ عودى إلى فصلك يا آنسة (جيهان) .. سأبحث مشكلتك فيما بعد .

وخفق قلب (مفيد) ..

اسمها (جيهان) إذن ..

يا له من اسم جميل !..

اسم يتناسب مع جمالها وفتنتها ، اللذين خلبا لبه ، منذ وقعت عيناه عليها ..

ومرة أخرى ، اختلج قلبه فى عنف ، عندما أدارت تلك الفاتنة عينيها الساحرتين إليه ، بابتسامتها المرحة ، وهى تقول للناظرة :

ـ فليكن .. سنؤجِّل الأمر كله لما بعد .

قالتها ، وكأنها تخاطبه هو ، أو ترسل إليه رسالة من طرف خفى ..

رسالة تقول : إنه سيكون لها شأن كبير فى حياته ..

كبير جدًا ..

★ ★ ★

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى (إبراهيم مكّى) ، وهو ينهض لاستقبال (فؤاد) فى مكتبه ، ويصافحه فى حرارة ، قائلًا :

ـ أهلًا أهلًا .. أنرت المكان كله يا (فؤاد) بك .

قال (فؤاد) ، والتوتر يفصح عن نفسه فى صوته ولهجته :

ـ أشكرك يا (إبراهيم) بك ، ولكنهم أرهقونى كثيرًا فى الواقع ، قبل أن أصل إلى هنا .. أسئلة ، وفحص لبطاقتى الشخصية ، ونظرات مستريبة ، و ...

قاطعه (إبراهيم) ، دون أن يفقد ابتسامته :

ـ دعنى أعتذر نيابة عنهم يا (فؤاد) بك ، ولكنك تعلم حساسية وضعنا ، ودقة موقفنا .

همهم (فؤاد) بعبارة غير مفهومة ، ولكنها تحمل نبرة مستسلمة ، جعلت (إبراهيم) يدعوه إلى الجلوس ، قبل أن يتراجع بمقعده ، ويتطلّع إليه بعينيه الخبيثتين ، قائلًا :

ـ خيرًا يا (فؤاد) بك .. ما الخدمة التى يمكننى تقديمها لك ؟

ازدرد (فؤاد) لعابه ، وبدا عليه التردّد لحظات ، ظلّ خلالها (إبراهيم) صامتًا ، يراقبه بابتسامة خبيثة ، حتى حسم أمره ، فقال :

ـ أنت تعرف بالطبع مشكلة الميراث القديمة ، بينى وبين (حسين البنهاوى) .

أومأ (إبراهيم) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ لدى فكرة معقولة عنها .

استجمع (فؤاد) جرأته ، وهو يتابع فى توتر :

ـ إنه أمر غير قانونى ، وغير شرعى أيضًا ، فليس من حق (محمد البنهاوى) أن يمنح أرضه لواحد من أبنائه دون الآخرين .. هذا يخالف قواعد الميراث الشرعى .

هزّ (إبراهيم) كتفيه ، وقال :

ـ لقد منح الأرض لابنه فى حياته ، ولا شأن لهذا بالميراث وقواعده .

بدا الضيق على وجه (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟

هزّ (إبراهيم) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لا شىء .. إنه مجرّد تعليق عادى .

ازدرد (فؤاد) لعابه مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ فليكن .. المهم أننى لم أقبل ما حدث قط ، ولقد حاولت استعادة نصيب زوجتى من يد (حسين) ذات مرة ، ولكن ..

قاطعه (إبراهيم) فى هدوء :

ـ ولكن (حسين) أزاح شقيقك ، ومنعك من إكمال محاولتك .

احتقن وجه (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ كانت مناورة قذرة ، أنجبها عقل شيطانى ، ولكنها نجحت فى تجميد الموقف تمامًا .

كاد (إبراهيم) يطلق ضحكة ساخرة ، وهو يتخيّل ملامح (فؤاد) ، لو علم أنه هو شخصيًا كان صاحب تلك الفكرة ، ولكنه ترك ضحكته تنفجر فى أعماقه ، وحافظ على هدوء ملامحه ، وهو يتطلّع إلى وجه (فؤاد) ، قائلًا :

ـ ولكن شقيقك عاد إلى مقعد السلطة الآن .

قال (فؤاد) فى حدة :

ـ نظريًا ، ولكن الواقع أنه عاد خائفًا حذرًا ، يخشى اتخاذ أية خطوة فى هذا الشأن ، حتى لا يمسّ منصبه مرة أخرى .

مطّ (إبراهيم) شفتيه ، وهو يقول :

ـ هذا أمر طبيعى .. كل أصحاب المناصب العليا يفكرون بهذا الأسلوب ، ولا يخاطرون بمقاعدهم قط من أجل الآخرين ، حتى ...

بتر عبارته ، ومال نحو (فؤاد) ، مستطردًا فى لهجة ملؤها الخبث :

ـ حتى ولو كانوا أشقاءهم .

تطلّع (فؤاد) إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

ـ ولهذا أتيت إليك يا (إبراهيم) بك .

التقط (إبراهيم) نفسًا عميقًا ، وشبك أصابع كفيه على سطح مكتبه ، وضاقت عيناه قليلًا ، مع قوله :

ـ وما الذى يمكننى فعله يا (فؤاد) بك ؟

اندفع (فؤاد) ، قائلًا فى لهفة :

ـ أى شىء .

رفع (إبراهيم) حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وهو يكرّر :

ـ أى شىء ؟!

أجابه (فؤاد) فى لهجة أكثر لهفة :

ـ نعم يا (إبراهيم) بك .. افعل أى شىء .. أى شىء تراه مناسبًا ، أيًا كان .. المهم أن أستعيد نصيب زوجتى من أرض (البنهاوى) .

صمت (إبراهيم) ، وهو يتطلّع إليه بنظرة خبيثة ، ثم قال فى هدوء :

ـ كما تأمر يا (فؤاد) بك .

تهلّلت أسارير (فؤاد) ، وقفز من مقعده ، وهو يندفع ليصافح (إبراهيم) فى حرارة ، هاتفًا :

ـ أشكرك .. أشكرك كثيرًا يا (إبراهيم) بك .. كنت أعلم أنك لن تخذلنى قط .. كنت واثقًا من هذا .. أنت نعم الرجل ونعم الصديق ، و ...

قاطعه (إبراهيم) فجأة :

ـ ولكل شىء ثمن يا (فؤاد) بك .

امتقع وجه (فؤاد) ، وهوى حماسه دفعة واحدة ، وهو يقول فى شحوب :

ـ ثمن ؟!

أجابه (إبراهيم) :

ـ بالطبع يا (فؤاد) بك .. إنك تطالبنى بمحاربة أحد زملائى ، والدخول معه فى صراعات عنيفة ، قد تصيبنى بعض شظاياها ، وكل هذا حتى تستعيد نصيب زوجتك من الأرض ، فهل تتصوّر أننى سأفعل هذا دون مقابل ؟

هوى جسد (فؤاد) مرة أخرى على مقعده ، وارتبك فى شدة ، وهو يقول :

ـ كلّا .. ولكن ...

قاطعه (إبراهيم) بسرعة :

ـ ولكن ماذا يا (فؤاد) بك ؟

جفّ حلق (فؤاد) ، وخفض عينيه ، وكأنه يخشى مواجهة (إبراهيم) ، وظلّ على هذا الوضع لدقيقة كاملة أو يزيد ، قبل أن يتمتم فى شحوب :

ـ ما الذى تطلبه يا (إبراهيم) بك ؟

مال (إبراهيم) نحوه ، وهو يقول فى حزم :

ـ الولاء الكامل والطاعة العمياء .

رفع (فؤاد) عينيه إليه فى دهشة بالغة ، وهتف :

ـ ماذا ؟!

تابع (إبراهيم) بنفس الحزم :

ـ ستنفذ كل ما أطلبه منك ، وتطيع أوامرى دون مناقشة ، مهما بدت لك عجيبة أو غريبة ، حتى نصل إلى ما نبتغيه ، وأوّل هذه المطالب هو أن تُحسّن علاقتك بـ (حسين البنهاوى) .

كاد (فؤاد) يثب من مقعده ، وهو يصرخ :

ـ ماذا ؟

رمقه (إبراهيم) بنظرة نارية ، وهو يقول فى صرامة قاسية :

ـ تذكّر .. الطاعة العمياء دون مناقشة .

ارتجف (فؤاد) ، من رأسه حتى أخمص قدميه ، ولكنه لم يعترض أو يناقش هذه المرة ..

لقد أدرك تمامًا أنه وضع يده بإرادته فى جحر الثعابين ، ولم يعد من حقه أن يشكو لدغتها ..

ثم لماذا يشكو أو يعترض ، ما دام (إبراهيم) سيحقق له ما يطلبه ، وسيعاونه على تحطيم سطوة (حسين) ؟!..

ولم يكن يدرى لحظتها أن (إبراهيم) لا يسعى لتحطيم سطوة (حسين البنهاوى) فحسب ..

إنه يسعى لتحطيم (حسين) نفسه ..

وبلا رحمة .

* * *

٩ ـ اغتيـال ..

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى ضابط المخابرات الإسرائيلى ، الذى يطلق على نفسه اسم (روبير) ، وهو يمدّ يده لمصافحة (حسين البنهاوى) ، قائلًا :

ـ أهلًا بك فى (باريس) يا (حسين) بك .. أقدّم لك نفسى .. (روبير) ..

قاطعه (حسين) فى صرامة ، وهو يتجاهل اليد الممدودة إليه :

ـ خطأ .. اسمك الحقيقى هو (ميخائيل بن ناثان) ، من الفرقة (س ١٠٧) ، فى المخابرات الإسرائيلية ، والمسئول عن النشاط الأوروبى ، منذ شهر مارس عام ١٩٦٠ م .

اتسعت ابتسامة (ميخائيل) ، وهو يعيد يده إلى جواره ، قائلًا :

ـ عظيم .. أنا أيضًا أحب اللعب بأوراق مكشوفة ، فالمناورات لا تفيد مع المحترفين مثلنا .. أليس كذلك ؟

أدار (حسين) عينيه ، بحثًا عن (عايدة) ، ولكنها كانت قد انسحبت فى خفة ، وأغلقت باب الحجرة عليهما ، فعاد بعينيه إلى (ميخائيل بن ناثان) ، وهو يقول فى حدة :

ـ ماذا تريد منى يا (بن ناثان) ؟

أشعل (ميخائيل) سيجارته ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ بل ماذا تريد أنت منا يا (حسين) بك ؟.. إننى هنا بناءً على طلبك .

احتقن وجه (حسين) ، وهو يهتف :
ـ بناءً على طلبى ؟!
نفث (ميخائيل) دخان سيجارته ، وجلس على مقعد مجاور ، وهو يقول :
ـ بالطبع .. إننا نتحرّك بسرعة ، فى مثل هذه الأمور .. لقد أبلغتنا الأميرة (عايدة) برغبتك فى التعاون معنا ، ونحن نقدّر هذا كثيرًا ، ويمكننا استيعاب غضبك على نظام الحكم فى دولتك ، وسنمنحك راتبًا ضخمًا بالطبع ، بالدولارات الأمريكية ، أو الجنيهات الاسترلينية ، أو حتى الماركات الألمانية ، حسبما ترغب ، هذا بالإضافة إلى المكافآت ، والحماية الكاملة ، و ...
قاطعه (حسين) بصرخة هادرة :
ـ (عايدة) ؟!.. (عايدة) هى التى أخبرتك هذا ؟
تلاشت ابتسامة (ميخائيل بن ناثان) ، وهو يقول :
ـ بالطبع .. لقد طلبت منها الاتصال بنا .. أليس كذلك ؟
صاح (حسين) :
ـ تلك الحقيرة القذرة .. ماذا تصوّرت ، وهى تقدم على هذا التصرّف الأخرق ؟!.. هل فكّرت لحظة واحدة ، بأنه من الممكن أن أخون وطنى ، مهما كانت انتقاداتى له ؟!
انعقد حاجبا (ميخائيل) فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين واصل (حسين) صياحه فى وجهه فى غضب :
ـ كلّا أيها الإسرائيلى .. (حسين البنهاوى) لا يخون وطنه قط ، ولو أعطيتموه أموال الدنيا كلها .. والآن أخرج من هنا ، قبل أن أخنقك بيدى ، وأدفنك وسط أكوام الثياب القديمة ، وسأعرف كيف أؤدب تلك الأميرة المغرورة الفاسقة على ما فعلته .

نهض (ميخائيل) فى حدة ، وهو يقول :
ـ أتعنى أنك لم تطلب منها الاتصال بنا ؟
صاح (حسين) :
ـ مطلقًا .. لم ولن أفعل هذا قط .. هل تفهم أيها الحقير .. لن أفكّر لحظة واحدة فى خيانة وطنى .
أطفأ (ميخائيل) سيجارته فى عصبية ، وهو يقول :
ـ فليكن .. يمكننا أن نعتبره سوء تفاهم وليس أكثر .
ثم اندفع يغادر المكان فى حدة ، تاركًا (حسين) خلفه ، يقول فى غضب :
ـ تلك الحقيرة القذرة .. لماذا فعلت هذا ؟.. لماذا أقدمت على هذا التصرّف الغبى ؟
واندفع بدوره يغادر المكان ، وهو يسأل إحدى الموظفات فى غضب :
ـ أين الأميرة (عايدة) ؟
أجابته الفتاة فى خوف ، وهى تتطلّع إلى ملامحه الغاضبة الثائرة :
ـ فى الخارج .. إنها تستعد للانصراف بسيارتها .
وثب إلى الخارج ، ورآها تدير محرّك السيارة بالفعل ، فانقضّ عليها ، وانتزع مفتاح السيارة من مكانه ، وهو يصرخ :
ـ إلى أين أيتها الحقيرة .
انكمشت فى مقعدها ، هاتفة :
ـ إياك أن تمسّ شعرة واحدة منى .. القوانين هنا عنيفة للغاية ضد المعتدين .

سألها فى غضب :

ـ لماذا فعلت هذا ؟

قالت فى عصبية ، وهى تبحث فى حقيبتها عن علبة سجائرها :

ـ أنت تستحق هذا .. لقد أهنتنى ، وكان من الضرورى أن أنتقم منك .

كاد ينفجر غضبًا وغيظًا ، وهو يقول :

ـ تنتقمين منى ؟!.. ألم تفكرى مرة واحدة فى مغبة ما أقدمت عليه ؟.. هل تصوّرت أنك تستطيعين العبث فى عالمنا ، دون أن تحرقك نيرانه ؟!.. أمن أجل فكرة سخيفة حمقاء ، صنعت هذا الموقف الغبى ؟!

أشعلت سيجارتها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ لن يحدث شىء .. أنت تبالغ فحسب .. ثم إننى لم أفعل كل هذا لتلتقى بالإسرائيلى لحظات فقط .. لقد فعلته لأمتلك سلاحًا ضدك ، يمنعك من إهانتى فى المستقبل .

تراجع ، هاتفًا فى حدة :

ـ سلاح ؟!.. أى سلاح هذا ؟

فتحت شفتيها ، لتنطق شيئًا ما ، ولكن عينيها اتسعتا بغتة فى ارتياع ، وصرخت فى رعب هائل :

ـ احترس يا (حسين) .

وقبل أن تكتمل صرختها ، ارتفع هدير درّاجة بخارية تخترق الطريق ، مع دوى رصاصات عديدة ، شعر (حسين) ببعضها يخترق ظهره ، ورأى بقعة دم كبيرة تلوّث ثوب (عايدة) ، قبل أن تظلم الدنيا أمام عينيه ، ويرتطم بجسم السيارة فى عنف ..

وقبل أن تكتمل صرختها ، ارتفع هدير درّاجة بخارية تخترق الطريق ، مع دوى رصاصات عديدة ، شعر (حسين) ببعضها يخترق ظهره ..

وقبل أن يسقط جسده أرضًا ، اندفع رجلان نحو السيارة ، وتلقى أحدهما (حسين) بين ذراعيه ، ثم فتح باب السيارة الخلفى ، ودفعه داخله ، ثم قفز خلفه ، فى نفس اللحظة التى أزاح فيها زميله (عايدة) من أمام عجلة القيادة ، واحتل موقعها ، ثم انطلق بالسيارة بأقصى سرعة ، قبل أن يظهر رجال الشرطة ..

ومن بعيد ، أشعل رجل أصلع نحيل سيجارته ، وهو يبتسم فى سخرية ظافرة ..

وكان هذا الرجل هو (ميخائيل) ..

(ميخائيل بن ناثان) ..

★ ★ ★

« أستاذ (مفيد) .. أستاذ (مفيد) ... »

توقف (مفيد) أمام حجرة المدرسين ، واستدار يتطلع فى لهفة إلى (جيهان) ، التى منحته ابتسامة عذبة ساحرة ، وهى تقترب منه ، قائلة :

ـ أردت أن أهنئك باستلام العمل .. أهلًا بك فى المدرسة .

تطلع إلى وجهها الفاتن فى انبهار ، قبل أن يغمغم :

ـ أشكرك يا آنسة (جيهان) .. أشكرك كثيرًا .

ضحكت فى ثقة ، بعد أن رأت تأثيرها عليه ، وقالت :

ـ هل تعلم أنك المدرّس الشاب الوحيد هنا ؟.. كل الباقين تجاوزوا الخمسين من عمرهم ، والتسعين بعقولهم المغلقة ، وتقاليدهم العتيقة .

قال بلهجة مهذبة :

ـ من المؤكد أنهم نوابغ فى عملهم .

ضحكت مرة أخرى ، قبل أن تقول :

ـ بالطبع .. بالطبع .

ثم مالت نحوه ، وتركته يشم رائحة عطرها الجديد ، وهى تسأله :

ـ ولكن قل لى : ما سر ذلك الاستقبال الحار ، الذى منحتك إياه ناظرة المدرسة ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ إنها سيّدة فاضلة طيبة القلب ، و ...

قاطعته ضحكتها هذه المرة ، فخفق قلبه بشدة ، وهى تقول :

ـ الناظرة طيبة القلب ؟!.. يبدو أننا لا نتحدّث عن الشخص نفسه بالتأكيد ، فالناظرة التى نعرفها غليظة ، صارمة ، لا تتغاضى عن أى خطأ ، ولا ترحم قط .

ابتسم ، قائلًا :

ـ من الواضح أن فكرتك عنها قاسية للغاية .

تطلعت إليه بعينيها الجميلتين ، قائلة فى همس مثير :

ـ من حقك ألا تصدّق هذا ، فتعاملها معك يختلف كثيرًا .

ازدرد لعابه فى صعوبة ، وخُيّل إليه أن حلقه أكثر جفافًا من الصحراء الغربية كلها ، وهى تميل نحوه أكثر ، وتهمس :

ـ ولكن لماذا ؟.. ما الذى يميزك عنا ؟

أجاب دون وعى :

ـ أخى .

تراجعت فى دهشة ، هاتفة :

ـ أخوك ؟!..

شعر بالضيق لأنه طرح مثل هذا الأمر ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تابع فى خفوت :

ـ نعم ، فأخى يحتل منصبًا رفيعًا ، وله اتصالات عديدة بذوى النفوذ ، وهو الذى حصل لى على هذه الوظيفة .

رفعت أحد حاجبيها ، وهى ترمقه بنظرة غريبة ، قائلة :

ـ هكذا .

كانت تهم بإلقاء سؤال آخر ، عندما لاحظت فجأة ذلك الشحوب الذى اعتراه ، وهو يحدق فى الحجرة المقابلة ، عبر الممر الطويل ، فاستدارت فى سرعة ، لتتطلع إلى ما أثار توتره إلى هذا الحد ، ووقع بصرها على واحدة من زميلاتها ، وهى تقف شاحبة بدورها ، عند باب حجرة المدرّسات ، وتبادل (مفيد) نفس النظرة العصبية الذاهلة ..

وفى فضول ، تساءلت (جيهان) عن السر ، الذى يربط زميلتها بذلك القادم الجديد ، ولكن استنتاج الأمر كان عسيرًا للغاية ، فهى لا تعرف عن تلك الزميلة سوى اسمها ..

(سوسن) ..

★ ★ ★

أطلقت (شريفة البنهاوى) زفرة حارة ، قبل أن تصرخ فى حنق :

ـ (فاطمة) .. أنت أيتها الغبية .. أين أنت ؟

برزت (فاطمة) من المطبخ ، وهى تقول فى لهجة ظاهرها الاحترام ، وباطنها السخرية والتهكم :

ـ أنا هنا يا سيّدة الدار ، أعد الطعام الذى ستتناولونه جميعًا ، أم أنك نسيت أن أختك المحروسة (نعيمة) ستتناول طعام الغداء معنا ، هى وابنتها ست الحسن (نادرة) ؟

صاحت بها (شريفة) فى غضب :

ـ لا .. لم أنس يابنة (عبد الحميد) ، فـ (نعيمة) هذه سيّدتك وتاج رأسك ، والسراى سراى والدها ، وستتناول طعامها فيه فى أى وقت تشاء ، هى وكل البنهاوية .

مسحت (فاطمة) يديها فى منشفة قذرة ، وهى تقول :

ـ صدقت يا سيّدة الدار .. كل البنهاوية لهم الحق فى هذا السراى ، وعلى رأسهم زوجى (حافظ) .

أطلقت (شريفة) ضحكة ساخرة عصبية ، قبل أن تقول :

ـ (حافظ) .. يا فرحتى .. زوج الخيبة والندامة .

هتفت (فاطمة) بخشونتها الفظة :

ـ (حافظ) سيّد الرجال .

قهقهت (شريفة) ساخرة ، وقالت :

ـ سيّد الرجال .. صدقت يابنة (عبد الحميد) .. (حافظ) الضعيف المتخاذل هو سيّد الرجال .. ياللروعة !

انغرست سخرية (شريفة) فى قلب (فاطمة) كخنجر حاد مسموم ، ومزّقته فى قسوة ، فانخفض صوتها مع عينيها ، وهى تتمتم :

ـ إنه فى رأيى سيّد الرجال .

ضحكت (شريفة) ساخرة مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ أمر طبيعى ، فلكل حبة فول فاسدة كيّال أعمى .

مرة أخرى ، مزّقت سخريتها نفس (فاطمة) ، فأشاحت بوجهها ، وحاولت أن تدير دفة الحديث بعيدًا ، وهى تقول :

ـ فليكن .. ما الذى كنت تصيحين من أجله .

أشارت (شريفة) إلى أحد مقاعد حجرة الضيوف ، وهى تصيح :

ـ المحروس ابنك أتلف غطاء المقعد .

قالت (فاطمة) فى ضيق :

ـ لا بأس .. سأصلحه بعد أن أنتهى من طهى الطعام .

صاحت بها (شريفة) :

ـ وحذرى ابنك من العبث بأثاث المنزل ، وإلا كسرت رقبته .. وفى المرة القادمة لن أرحمه .. هل تفهمين ؟

وجدتها (فاطمة) فرصة لرد الصاع صاعين ، فقالت متشفية :

ـ هذا أمر طبيعى ، فمن كانت مثلك لا تطيق رؤية ابن أخرى .

امتقع وجه (شريفة) ، وهى تقول :

ـ ماذا تعنين أيتها العقربة ؟.. ماذا تقصدين بتلميحك هذا ؟

لوّحت (فاطمة) بيدها ، قائلة فى تهكّم مستتر :

ـ لست أقصد شيئًا يا .. يا آنسة (شريفة) .

قالتها ، وأدركت أن سهمها قد أصاب هدفه بمنتهى الدقة ، وأدّى الغرض المقصود منه تمامًا ، عندما شحب وجه (شريفة) لحظات ، ثم احتقن فى شدة ، وهى تصرخ :

ـ أيتها الـ .. الـ ..

لم تستطع إكمال عبارتها ، مع تلك الغصّة التى اختنق بها حلقها ، فتجمّعت الدموع فى مقلتيها ، واختنقت الكلمات فى أعماقها ، وخاصة مع تلك الابتسامة الساخرة ، التى ارتسمت على شفتى (فاطمة) ، وامتزجت بنظرتها الشامتة ، وهى تعود إلى المطبخ ..

ومع اختفاء (فاطمة) ، تركت (شريفة) لدموعها العنان ، وصدرها يكاد يطبق عليها من المرارة والسخط والألم ..

لقد كانت (فاطمة) على حق ..

إنها تبغض (طارق) ؛ لأنه يذكّرها بأنها لم تتزوّج بعد ..

إنها العانس الوحيدة ، فى عائلة (البنهاوى) ..

ويا لها من مرارة !..

إنها تبكى طويلًا كل ليلة فى حجرتها ، عندما تفكّر فى أنها وحيدة ، فى حين أن الباقيات حتى (فاطمة) ، يأتنسن بأزواجهن طوال الوقت ..

(نعيمة) نفسها لم تحتمل وحدتها ، على الرغم من زواج (عمر) من ابنة (شاهين الحبروك) ، وسعت إليه ليردّها إلى قلبه ، بعد أن أجبره (حسين) على ردّها إلى عصمته ..

و (توحيدة) تعيش فى سعادة وهناء ، مع زوجها (عبد الحكيم) وأبنائها منه ..

و (ناهد) ..

(ناهد) بالذات تعيد إليها شعورًا بالمرارة ، لم يفارق نفسها قط ..

إنها لم تنس أبدًا أن (فؤاد) أتى إلى السراى خصيصًا ليتزوّجها هى ، ولكنه لم يكد يرى (ناهد) ، حتى تراجع عن طلب يدها ، وألقى نفسه فى لهفة تحت قدمى شقيقتها ، التى لم تلبث أن أصبحت زوجته ، وأم أبنائه الثلاثة ..

« يا ربى .. ماذا بك يا (شريفة) ؟.. »

انتزعها هتاف (نعيمة) من أفكارها ، ورأتها تندفع نحوها ، وخلفها ابنتها (نادرة) ، وهى تواصل هتافها الملتاع :

ـ لماذا تبكين ؟.. هل أساءت إليك ابنة (عبد الحميد) الملعونة ؟

لوّحت (شريفة) بيدها ، وهى تقول :

ـ هذا يحدث دائمًا .. لقد اعتدته تقريبًا .

صاحت (نعيمة) فى غضب :

ـ يا للحقيرة !.. من تتصوَّر نفسها ابنة الملاعين هذه .. أقسم بالله أن ألقنها درسًا لا تنساه أبدًا ، هى وابنها الغبى .

قالت ، واندفعت نحو المطبخ ، الذى خرجت منه (فاطمة) ، وهى تصيح بخشونتها وفظاظتها :

ـ أى درس هذا يا ابنة الأسياد ؟.. إياك أن تطاوعك نفسك على مس شعرة واحدة من رأس ابنى أو من رأسى .

صاحت (نعيمة) :

ـ الله .. الله .. ابنة (عبد الحميد) الكلّاف ، نبت لها لسان .

زمجرت (فاطمة) ، وهى تقول :

ـ نعم .. نبت لى لسان طويل يا سنيورة .. هل ترغبين فى تجربته ؟

ضربت (نعيمة) كفيها ببعضهما ، وأبعدتهما هاتفة :

ـ بل أنت التى ستجربين التأديب والتهذيب على أصولهما ، عندما يعود (حسين) ، أم أنك نسيت ما فعله بك قديمًا ؟

انقبض قلب (فاطمة) ، وهى تستعيد تلك الذكريات المؤلمة ، وانخفض صوتها ، وهى تهمهم بعبارة مبهمة ، فصاحت بها (نعيمة) فى ظفر :

ـ أرأيت يابنة الحقراء .. لا أحد ينسى أبدًا ما يفعله شقيقى (حسين) ، ولا ما ...

قاطعها بغتة صوت شخص يتنحنح ، فالتفتت إلى باب السراى فى دهشة ، ووقع بصرها على (صلاح) بقامته القصيرة ورأسه الأصلع ، وتعرَّفته (شريفة) على الفور ، فهتفت فى قلق :

ـ (صلاح) بك ؟!.. أهلًا بك .. تفضَّل .. ترى ما سر هذه الزيارة المفاجئة ؟

تنحنح (صلاح) مرة أخرى ، وقال :

ـ معذرة يا سيِّدتى ، ولكننى هنا من أجل (حسين) بك .

أجابته (نعيمة) فى قلق :

ـ (حسين) ليس هنا .. إنه مسافر إلى (فرنسا) ، وربما يعود غدًا أو بعد غد .

خفض (صلاح) عينيه ، وهو يقول :

ـ هذا ما أتيت من أجله يا سيِّدتى ، فـ (حسين) بك لن يعود من (فرنسا) غدًا أو بعد غد ، و ...

وانخفض صوته أكثر ، مع استطرادته :

ـ ولن يعود أبدًا .

ولم يكن الأمر يحتاج إلى توضيح أكثر ؛ لذا فقد صرخت (نعيمة) :

ـ (حسين) .. أخى (حسين) .

وأطلقت (شريفة) صرخة مدوية ، ارتجت لها السراى كلها .. ووسط كل هذا ، انطلقت زغرودة صامتة فى الأعماق .. أعماق (فاطمة) .

* * *

١٠ ـ ودارت الدنيا ..

سرت نشوة عجيبة فى جسد (مراد صقر) ، وهو يتطلّع إلى وجه (إبراهيم مكّى) ، قائلًا فى لهفة ، لم يحاول كتمانها هذه المرة :

ـ وكيف حدث هذا ؟.. إنه لم يذهب إلى (باريس) فى عملية رسمية هذه المرة ، فلماذا تغتاله المخابرات الإسرائيلية ؟!

أجابه (إبراهيم) بابتسامته الخبيثة :

ـ من الواضح أن للأمر علاقة باتصالات (عايدة) بالإسرائيليين ، فالرجل الذى أرسلناه لمراقبة (حسين) ، قال فى تقريره : إن (حسين) تشاجر مع (عايدة) أمام متجرها ، بعد انصراف (ميخائيل بن ناثان) ، وكان من الواضح أنه غاضب وثائر للغاية ، قبيل اغتياله بلحظات .

تنهّد (مراد) ، وقال :

ـ عظيم .. هذا يضع نهاية للصراع ، ويحسم معركتنا مع (حسين البنهاوى) .. قل لى : متى يصل جثمانه من (باريس) ؟

قال (إبراهيم) ، وهو يراقب انفعالات رئيسه جيدًا :

ـ لا يمكننا تحديد هذا الآن يا سيِّدى .

قال (مراد) فى مزيج من الدهشة والصرامة :

ـ ماذا تعنى ؟.. ألم تتخذوا الإجراءات اللازمة فى هذا الشأن بعد ؟

هزّ (إبراهيم) رأسه ، وقال :

ـ ليست هذه هى المشكلة يا سيِّدى .

قال (مراد) فى حدة :

ـ ما المشكلة إذن ؟

شدّ (إبراهيم) قامته ، وهو يقول :

ـ المشكلة هو أنه ليس لدينا أى جثمان .

تراجع (مراد صقر) بمقعده ، وحملت عيناه نظرة تساؤل ، جعلت (إبراهيم) يتابع فى سرعة :

ـ لقد اغتال الإسرائيليون (حسين) ، ثم اختطفوا جثته مع جثة الأميرة (عايدة) ، فى سيارة هذه الأخيرة ، واختفوا فى قلب (باريس) ، ولم يمكننا التوصل إليهم قط .

انعقد حاجبا (مراد صقر) فى شدة ، عندما استمع إلى هذا القول ، وارتسمت على وجهه أمارات التفكير العميق لبعض الوقت ، قبل أن يتمتم :

ـ عجبًا !!..

قال (إبراهيم) ، وهو يراقبه فى إمعان :

ـ هل يدهشك هذا التصرّف ، مثلما أدهشنى يا سيِّدى ؟

هزّ (مراد) كتفيه ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد ، فليس هذا من عادة الإسرائيليين أبدًا .. لقد أطلقوا عليه النار واغتالوه بالفعل ، فلماذا يختطفون جثته ؟!

قال (إبراهيم) فى تفكير :

ـ إننى أبحث عن تفسير منطقى طوال الوقت ، ولم أتوصّل إلا لفكرة واحدة .

اعتدل (مراد) ، وسأله فى اهتمام :

ـ وما هى ؟

أشار بسبّابته ، قائلًا :

ـ ربما ظنّ الإسرائيليون أن (حسين) يحتفظ بشيء ما معه .. وثائق سرية ، أو ميكروفيلم ، أو أى شيء شبيه ، فقرّروا خطف الجثة ، لتفتيشها جيدًا ، قبل التخلص منها .

وزن (مراد) الأمر فى رأسه ، قبل أن يقول :

ـ فكرة معقولة .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف فى حزم :

ـ على أية حال ، سنتخذ كل الإجراءات المناسبة ، فى مثل هذه الظروف ، بالنسبة للمعاش والمكافآت وخلافه .

سأله (إبراهيم) فى خبث :

ـ وماذا عن عمله فى رياسة الجمهورية ؟

تطلّع إليه (مراد) لحظة فى صمت ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ سنعرض الأمر على سيادة الرئيس ، ليتخذ القرار بنفسه .

سأله (إبراهيم) ، وهو يميل عليه :

ـ ولكننا سنطرح عليه بعض الأسماء بالطبع .

مطّ (مراد) شفتيه ، وهزّ رأسه قليلًا ، ثم ابتسم مجيبًا فى اقتضاب :

ـ بالطبع .

وتراجع (إبراهيم) فى ارتياح ، بعد أن تلقّى هذا الوعد غير المباشر ..

الوعد بأن يحتلّ موقع (حسين البنهاوى) ..

الراحـل .

★ ★ ★

كاد (مفيد) يختنق من المرارة والألم ، داخل سيارة الأجرة ، التى تعود به إلى القرية ..

لقد حدثت المواجهة التى يخشاها ..

المواجهة بينه وبين (سوسن) ..

لقد تصوّر حدوث هذا الأمر طويلًا ، ووضع له عشرات السيناريوهات فى ذهنه ، ولكنه جاء على نحو لم يتوقعه قط ..

ويالها من مصادفة !..

(سوسن) تعمل فى نفس المدرسة ، التى ألحقه بها (حسين) ..

إنه لم يصدّق عينيه ، عندما وقعتا عليها ، وشعر بالبرد يسرى فى أوصاله ، التى بدت له أشبه بقطع من الثلج ، وهو يتطلّع إليها ، وبذل جهدًا خرافيًا لينتزع قدميه من موضعهما ، ويندفع نحوها فى لهفة ..

ولكنها لم تمنحه الفرصة ليفعل ..

لقد تجاوزت المفاجأة قبله ، وانطلقت مبتعدة فى خطوات سريعة ، لم يكد ينجح فى الخروج من دهشته ، ويهتف باسمها ، حتى كانت قد غادرت المدرسة كلها ..

ولكنها قبل أن تفعل ، رمته بنظرة ازدراء ، شقت قلبه إلى نصفين ..

نظرة مازالت تمزّق كيانه كله ، حتى هذه اللحظة ..

وبجهد يتجاوز قدراته فى المعتاد ، كتم (مفيد) دموعه ، وجاهد ليحبسها فى مقلتيه ، وهو يتمنى أن تقطع السيارة المسافة بسرعة خرافية ، حتى يمكنه أن يخلو إلى نفسه فى حجرته فى السراى ، ويبكى ملء جفنيه ..

ولم تطاوعه السيارة أبدًا .

لقد ظلت تتهادى على الطريق فى بطء ، وبداخلها ضعف العدد المصمّمة لاستيعابه ، حتى خُيّل إليه أنها استغرقت دهرًا كاملًا ، قبل أن تتوقف فى ذلك الموقف البدائى ، عند مدخل القرية ، فاندفع يغادرها ، وألقى نظرة سريعة على ذلك المكان ، الذى كان يحتلّه مقهى (جودة) ، قبل أن يسير بخطوات واسعة ، متجهًا نحو السراى ، ولكنه فوجىء بالحاج (سعفان) يهرع إليه ، وهو يهتف فى حزن :

ـ (مفيد) بك .. البقية فى حياتك يا (مفيد) بك .. البقاء لله (سبحانه وتعالى) وحده .

انقبض قلبه فى عنف ، وسقط بين قدميه ، وهو يقول فى شحوب فزع .

ـ ماذا تقصد يا عمدة ؟.. من تقصد بقولك هذا ؟

ربّت الحاج (سعفان) على كتفه ، قائلًا :

ـ (حسين) بك يا ولدى .. شقيقك (حسين) رحمه الله .

صرخ (مفيد) فى ارتياع ولوعة :

ـ (حسين) ؟!..مستحيل !.. مستحيل !..

وانطلق يعدو بكل قوته نحو السراى ، وصرخاته لا تتوقف فى أعماقه ..

مستحيل ! أن يكون المقصود هو (حسين) ..

مستحيل !!..

ولكن عقله أجابه فى صرامة ..

ولماذا مستحيل ؟!..

أليس (حسين) مجرّد بشر ، وكل البشر مصيرهم الموت ، مهما طال بهم الزمن ؟

لأنه طاغية ، تصوّرت أنه لا يموت ؟!..

لأنه قاس ، صارم ، لا يرحم ، خُيّل إليك أن الموت سيخشى الاقتراب منه ؟!..

وعندما بلغ (مفيد) السراى ، كانت دموعه قد انطلقت من سجنها ، لتغرق وجهه كله ، فاستقبلته شقيقته (شريفة) بالصراخ والعويل ، وهى تلطم خديها .

ـ (حسين) مات يا (مفيد) .. (حسين) مات .

احتواها بين ذراعيه ، محاولًا مزج حزنها بحزنه ، وهو يربّت عليها ، قائلًا من وسط دموعه :

ـ إنها إرادة الله يا (شريفة) .

أفرغت دموعها فى صدره ، وهو يسير معها فى رفق إلى حجرة الاستقبال ، التى اكتظت بأهل القرية ، الذين استقبلوه بعبارات الأسف والعزاء ..

وبسرعة ، دارت عيناه فى كل الوجوه ، بحثًا عن أزواج شقيقاته ، وشعر بالارتياح ، عندما وقع بصره على (عبد الحكيم) ، الذى اندفع إليه يشدّ على يده فى حرارة ، قائلًا :

ـ البقاء لله يا (مفيد) .

أومأ (مفيد) برأسه ، وهمهم بكلمات تحشرجت فى حلقه ، قبل أن يجلس وسط المعزين ، ويعاود البحث عن (فؤاد) و (عمر) بين وجوههم ..

ومن بعيد ، بلغه صوت (توحيدة) و (نعيمة) ، وهما تطلقان صرخات قوية ملتاعة ، فهرع إليهما فى الحجرة الأخرى ، وقال فى عصبية :

- لا داعى للصراخ .. إننا لم نفعل هذا عندما مات والدنا رحمه الله .

صرخت (نعيمة) ، وهى تلطم صدرها :

- لا داعى لماذا ؟!.. ألا تريد منى أن أصرخ من أجل (حسين) ؟!.. لمن أصرخ إذن ؟

صاح فيها بصرامة شديدة :

- قلت لا صراخ .

كانت صرامته مفاجئة للجميع ، فألجمتهم لحظات ، قبل أن تندفع (نعيمة) ، هاتفة فى عصبية شديدة :

- بالطبع .. من حقك أن تصرخ وتحكم الآن ، مادام السبع قد رحل .

لوّح بسبّابته فى وجهها ، وهو يقول فى حدة :

- كفى عن هذا يا (نعيمة) .. لن ينطلق الصراخ فى سراى (البنهاوى) ، وأنا على قيد الحياة .. هل فهمت ؟

ابتلعت لسانها هذه المرة ، وانكمشت فى خوف ، لم يلبث أن تحوّل إلى موجة بكاء عنيفة ، شاركتها فيها (توحيدة) و (شريفة) ، فأشاح (مفيد) عنهن بوجهه ، وغادر الحجرة ليجد (حافظ) أمامه ، والدموع تغرق عينيه ، فربّت على كتفه ، وهو يسأله فى حنان :

- (حافظ) .. لماذا غادرت حجرتك ؟

سأله (حافظ) فى تخاذل :

- أصحيح هذا يا (مفيد) ؟.. هل مات (حسين) ؟

تمتم (مفيد) ، وهو يحبس دموعه فى صعوبة :

- سبحان الحى الذى لا يموت يا (حافظ) .

انفجر (حافظ) بغتة باكيًا ، وكأنما كان يحتاج إلى هذا التأكيد من (مفيد) ، ليقتنع بحدوث الأمر ، ومصمصت (فاطمة) شفتيها ، قبل أن تقول فى خشونة :

- كلنا سنموت يومًا .

نطقتها بكل انفعالها ، ولم تستطع كتمان شماتتها ، فأطلّت منها واضحة ، على نحو أزعج (مفيد) ، الذى أشار إليها ، قائلًا فى ضيق :

- خذى (حافظ) إلى حجرته يا (فاطمة) .

أجابته فى تحد فظ :

- فليجلس ليتلقّى العزاء فى أخيه .

كان (مفيد) يدرك أن مشاعر (حافظ) الرقيقة لن تحتمل مثل هذا الموقف ، لذا فقد كرّر فى صرامة :

- خذى (حافظ) إلى حجرته يا (فاطمة) .

فتحت شفتيها الغليظتين ؛ لتعترض مرة أخرى ، إلا أنها لم تلبث أن أطبقتهما ، دون أن تتفوّه بحرف واحد ، وسحبت (حافظ) ، الذى تبعها فى استسلام تام ، وهو يبكى وينتحب فى مرارة ، حتى أغلقت عليهما باب حجرتهما ..

ومرة أخرى ، عادت دموع (مفيد) تنهمر ، ولكنه مسحها بكفه فى حسم ، وكأنما يمسح معها ضعفه وعواطفه ، ثم شدّ قامته ، وعاد أدراجه إلى حجرة الاستقبال ، وقبل أن يبلغها رأى أحد أزواج شقيقاته يدلف إلى السراى ..

واتسعت عيناه فى دهشة ..

إنه لم يكن يتوقع أبدًا أن يدخل (عمر) السراى ، بعد أن أقسم يومًا ألا يطأها بقدمه قط ..

ولكن مهلًا ..

الآن يستطيع (عمر) أن يدخل السراى بكل بساطة ، بعد أن زال السبب ، الذى جعله ينفر منها لسنوات ..

أو بمعنى أدق ، بعد أن زال (حسين) من الوجود ..

واعتصر الحزن صدر (مفيد) ، و (عمر) يتجه إليه فى خطوات حازمة ، وتصوَّر أنه سيعبِّر عن ارتياحه لمصرع (حسين) ، إلا أن (عمر) صافحه فى حرارة ، وهو يقول فى صوت قوى ، يحمل روح التعزية والرثاء :

ـ البقاء لله يا (مفيد) .. كلنا إلى فناء .

قالها بشهامة حقيقية ، ولهجة مواساة خالصة ، بلا تشف أو شماتة ، مما جعل الدموع تترقرق فى عينى (مفيد) ، وهو يقول :

ـ (عمر) .. تصوَّرت أن ...

لم يستطع إكمال عبارته ، فربَّت (عمر) على كتفه ، وهو يقول فى حزم :

ـ لا شماتة فى الموت يا فتى .. البقاء لله وحده .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى وقع بصره على (ناهد) و (فؤاد) ، وهما يدلفان إلى السراى ..

وفى عينى (فؤاد) ، لمح (مفيد) ذلك الشىء ، الذى لم يفارق ذهنه قط ..

لمح ابتسامة ..

ابتسامة متشفية ..

ولم يحتمل (مفيد) هذا ..

لم يحتمل حتى أن يصافح (فؤاد) ، فاندفع إلى حجرة الاستقبال ، ليستمع مرة أخرى إلى عبارات التعزية والرثاء ..

واحتقن وجه (فؤاد) فى شدة ، وارتسم الغضب على ملامحه ، ولكن (عمر) استدار إليه يصافحه ، وهو يقول :

ـ أهلًا يا (فؤاد) بك .. البقاء لله .

أجابه (فؤاد) فى توتر :

ـ ونعم بالله يا أستاذ (عمر) .. قل لى : هل لاحظت ذلك التصرّف الوقح ، الذى قام به (مفيد) ؟.. إنه حتى لم يصافحنى .

قال (عمر) :

ـ لا يلام أحد الليلة يا (فؤاد) بك .. الشاب حزين لوفاة شقيقه .. أنت أدرى بمنزلة (حسين) فى العائلة .

مطَّ (فؤاد) شفتيه فى مقت ، وهو يهمس :

ـ منزلة زائفة .. لقد كان طاغية قاس ، لا يهمه فى الدنيا سوى مصالحه الشخصية ، ولا يتردَّد لحظة فى سحق العائلة كلها ، لو أن هذا يمنحه خطوة زائدة ، فى سلم النجاح .

تنهَّد (عمر) ، وقال :

ـ اذكروا محاسن موتاكم .

هتف (فؤاد) فى صوت منخفض :

ـ وهل كانت له محاسن ؟

بدا التوتر على وجه (عمر) ، وهو يقول :

ـ رويدك يا رجل .. إنه لم يبرد فى قبره بعد .

أطلق (فؤاد) ضحكة ساخرة قصيرة ، بدت عجيبة وسط جو الحزن المخيِّم على المكان ، قبل أن يقول :

- قبره ؟!.. وأين قبره هذا ؟.. إنهم لم يعثروا على جثته أبدا .
هتف (عمر) فى دهشة :
- لم يعثروا على جثته ؟!.. كيف تأكدوا من موته إذن ؟
قال (فؤاد) فى شماتة مقززة :
- لهم أساليبهم بالتأكيد ، ولكن هذا لا يعنينى .. المهم أنه مات ، وذهب إلى أغوار الجحيم ، وترك لنا أرض (البنهاوى) كلها ..
ثم سأله فى لهفة :
- أعتقد أننا سنرثه جميعا .. أليس كذلك ؟
أومأ (عمر) برأسه ، وقال :
- سيرثه شقيقاه وشقيقاته .
فرك (فؤاد) كفيه ، قائلا :
- عظيم .. غدا نستخرج إعلام الميراث ، و ...
قاطعه (عمر) :
- ليس بهذه السرعة .
ابتسم (فؤاد) ، قائلا :
- هذا ما تتصوره .. شقيقى سيختصر لنا زمن الإجراءات إلى الربع على الأقل .
قال (عمر) ، وهو يتلفت حوله فى قلق :
- ليس هذا ما أقصده ، ولكننى أعنى أن استخراج إعلام ميراث يحتاج بالضرورة إلى إثبات الوفاة .
عقد (فؤاد) حاجبيه ، وهو يقول فى عصبية :
- إثبات الوفاة ؟!.. أى إثبات وفاة يا رجل .. ألم يبلغوا بوفاته رسميًا ؟

أجابه (عمر) :
- ولكنهم لم يعثروا على جثته بعد ، وهذا يجعله رسميًا ، فى حكم المفقودين ، مما يعنى ضرورة الانتظار لعدة سنوات .. ثلاث أو خمس سنوات .. لست أذكر بالتحديد ، قبل الاعتراف بوفاته رسميًا ، وحتى ذلك الحين ، لا يمكنك استخراج إعلام ميراث مطلقًا .
وكانت صدمة لـ (فؤاد) ..
صدمة قاسية .

* * *

١١ ـ المـنزلق ..

، آنسة (سوسن) .. آنسة (سوسن) .. ،

هتف (مفيد) بهذا النداء ، وهو يتجه فى خطوات واسعة ، أقرب إلى العدو ، نحو (سوسن) ، التى تجاهلت النداء تمامًا ، وضاعفت من سرعتها ، فى محاولة لتفادى مواجهة (مفيد) ، الذى انطلق يعدو بالفعل هذه المرة ، حتى اعترض طريقها ، وهو يقول فى مرارة :

ـ لماذا تفرين منى ؟.. إننا نعمل معًا فى مكان واحد ، منذ شهر كامل ، وأنت ترفضين حتى تبادل التحية معى .

قالت فى توتر ، وهى تشيح بوجهها عنه :

ـ لقد واسيتك عند موت شقيقك .

قال فى أسى :

ـ كان هذا من شهر كامل ، ولم أسمع منك سوى عبارة واحدة مقتضبة ، ثم انصرفت بأقصى سرعة ، قبل حتى أن أشكرك .

قالت فى عصبية :

ـ لم أكن أنتظر الشكر .

أجابها فى خفوت ، وبلهجة أقرب إلى الضراعة :

ـ ولكننى كنت أنتظر ولو لمحة واحدة .

قالت بخفوت مماثل :

ـ لمحة من ماذا ؟

بدا وكأنه ينتحب ، وهو يجيب :

من الحب الذى جمع بيننا يومًا .

استدارت إليه فى حركة حادة ، وقالت فى شراسة لا تتفق قط مع طبيعتها :

ـ لا تقل هذا .

ثم أشاحت بوجهها فى سرعة ، قبل أن ترتسم الدهشة على ملامحه ، وهى تضيف فى مرارة شديدة :

ـ الحب لم يجمع بيننا أبدًا .

هتف ملتاعًا :

ـ لم يجمع بيننا أبدًا ؟!.. ماذا تقولين يا (سوسن) ؟.. هل نسيت تلك الأيام ؟!.. هل نسيت سفرنا بالقطار ، و ...

قاطعته فى حنق :

ـ كلا .. لم أنس .

وصمتت لحظة ، حاولت خلالها أن تعتصر تلك الدموع ، التى يبكى بها قلبها ، قبل أن تبلغ عينيها ، فتفضح حقيقة مشاعرها ، ثم أضافت بصوت متحشرج مختنق :

ـ ولست أنكر أننى أحببتك بكل جوارحى آنذاك .

هتف :

ـ وأنا أيضًا ..

قاطعته فى صرامة :

ـ لا .. لا تقلها يا (مفيد) .. أنا أعترف بأنك كنت أيضًا غارقًا فى الحب .

ثم أدارت عينيها إليه ، وأطلّ منهما حزن وهوان الدنيا كلها ، وهى تضيف :

ـ فى حب (مديحة) .

انقبض قلبه فى عنف ، وارتجفت شفتاه ، واختنق صوته فى حلقه ، حتى أن ما تسلل منه عبر شفتيه ، بدا أشبه بحشرجة محرك قديم ، وهو يهمس :

ـ ألا يغفر قلبك أبدًا ؟

أشاحت بوجهها مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ على العكس .. قلبى كان غارقًا فى حبك ، حتى أنه لم يكن ليتردد فى أن يغفر لك كل ما حدث ، لو ...

خفق قلبه مع ذلك الحرف الأخير ، وتعلقت عيناه بشفتيها ، وهى تتابع فى مرارة :

ـ لو أنك عدت إلىَّ مختارًا .

كادت مشاعره تنهار أمامها ، وهو يتمتم :

ـ ماذا تعنين ؟

استعاد صوتها غضبه وصرامته ، وهى تجيب :

ـ أعنى أنك لم تعد إلىّ ، إلا لأن (مديحة) تخلت عنك ثانية .. ولو أنها عادت إليك لنسيتنى تمامًا .

وزفرت فى مرارة أكثر ، مع إضافتها :

ـ أتريد أن أن أغفر هذا ؟!.. هل تتصور أنه توجد فتاة واحدة ، فى العالم كله ، يمكنها أن تغفر هذا ؟!

ولم يجد ما يجيب به هذه المرة ..

إنها على حق ..

على حق تمامًا ..

ما من إمرأة ، فى العالم كله ، يمكنها أن تغفر لرجل أنه تخلى عنها ، من أجل امرأة أخرى .

ربما يمكنها أن تتغاضى قليلًا ..

أو تتجاهل الأمر ظاهريًا ..

ويمكنها أن تتناساه فى أحاديثها وتصرفاتها ..

ولكنها لا تغفره أبدًا ..

أبدًا ..

وأمام ذلك المنطق ، لاذ (مفيد) بالصمت ، وبدا أشبه بتمثال شاحب متهالك ، وهى تندفع مبتعدة عنه ، دون أن تضيف حرفًا واحدًا ..

وفجأة ، صكت مسامعه ضحكة ..

ضحكة أنثوية عابثة ، لمح فيها صوت (جيهان) ، فالتفت إليها فى غضب ، قائلًا :

ـ لماذا تضحكين ؟

أقدمت نحوه ، وهى تقول مبتسمة :

ـ لا تنظر إلىَّ بهذا الغضب ، فلن أحتمل كل هذا .

زفر فى حدة ، وهو يقول :

ـ آنسة (جيهان) .. لست فى ظروف تسمح بالمزاح .

اقتربت منه أكثر ، وهى تضحك قائلة :

ـ حاول أن تغيّر هذه الظروف إذن .

قال محذرًا :

ـ آنسة (جيهان) ، إننى ..

قاطعته فى مرح :

ـ لست أحب لقب آنسة هذا .. إننا زميلا عمل .. لماذا لا تخاطبنى باسم (جيهان) فقط .

أشاح بوجهه عنها ، وهو يقول :

ـ لن يمكننى هذا .

التقطت بعض البسكويت من حقيبتها ، وهى تقول :

ـ فليكن .. خاطبنى بالآنسة (جيهان) ، وسأخاطبك بالأستاذ (مفيد) .. هل تريد بعض البسكويت يا (مفيد) بك ؟

« (جيهان) !!.. »

انطلقت الصيحة تهز ساحة المدرسة ، فانتفضت (جيهان) ، قبل أن تطلق ضحكة خافتة ، وتهتف :

ـ آه .. هادمة اللذات ومفرّقة الجماعات .

ظهرت ناظرة المدرسة ، وهى تعقد حاجبيها فى صرامة شديدة ، وصاحت فى (جيهان) فى غلظة وخشونة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟!.. أليست لديك حصة الآن ؟

أشارت (جيهان) إلى ساعتها ، وهى تقول :

ـ أنا فى طريقى إلى الفصل ، فالحصة لم تبدأ بعد .. مازال أمامى دقيقتان .

قالتها وأسرعت إلى فصلها ، وهى تكتم ضحكتها ، فى حين التفتت الناظرة إلى (مفيد) ، وقالت فى حدة :

ـ وانت يا أستاذ (مفيد) .. ماذا تفعل هنا ؟!.. هذه مدرسة ، وليست ملهى ليليًا ، ولن أسمح بهذه اللقاءات الخفية أبدًا .

قال فى حدة :

ـ أية لقاءات خفية ؟!.. إننا نقف فى ساحة المدرسة .

صرخت فى وجهه :

ـ لا تناقشنى .

كان هذا القول بالذات يستفزه فى شدة ، فصاح بها :

ـ كيف لا أناقشك ؟.. من حق أى إنسان أن يدافع عن نفسه .

هاجمته بغتة فى عنف شديد :

ـ من تتصوّر نفسك يا هذا ؟.. كيف تتحدّث إلىّ بهذه اللهجة ؟.. هل نسيت من أنت ومن أنا ؟!.. إننى أتساءل : كيف ترسل إلينا الوزارة مدرسًا يجهل قواعد التربية مثلك ؟!.. سأتقدّم بشكوى فى هذا الشأن ، وسأطالب بنقلك من هنا .. وربما من (طنطا) كلها .

اتسعت عيناه فى دهشة ، مع ذلك الهجوم العنيف ، وراح يقارنه بالاستقبال الحار ، الذى استقبلته به الناظرة فى بداية عمله ..

وامتلأت نفسه بمزيج من المرارة والاشمئزاز ..

إنه من الطبيعى أن تفعل به الناظرة هذا ..

لقد بالغت فى الاحتفاء به عند قدومه ؛ لأن (حسين) كان على قيد الحياة ، ويحتلّ مكانة عالية فى السلطة ..

أما الآن ، فلماذا تبتسم حتى فى وجهه ؟!..

وفى أعماقه ، أدرك (مفيد) أن تصرّف الناظرة لن يكون التغيير الوحيد ، الذى سيصيب عائلة (البنهاوى) ، بعد رحيل (حسين) ..

ستكون هناك حتمًا تغيرات كثيرة ..

وكثيرة جدًا ..

و (مفيد) يؤمن دائمًا بالقاعدة التى تقول : « إن من عاش بالقوة يموت أيضًا بالقوة » ..

ولقد عاشت عائلة (البنهاوى) مستندة إلى القوة والسطوة ..

وذهبت القوة ..

والآن أصبح على العائلة أن تستعد للهبوط عبر منزلق طويل ، و ...
ومهين ..
منزلق بلا نهاية ..

★ ★ ★

تحرّك (فؤاد) فى عصبية بالغة ، داخل حجرة مكتب (إبراهيم مكّى) ، وهو يقول فى حدة :
ـ افعل شيئًا يا (إبراهيم) بك .. افعل شيئًا .. من السخف أن ننتظر كل هذه السنوات ، قبل أن نحصل على أنصبتنا من الأرض !
أجابه (إبراهيم) فى برود عجيب :
ـ إنها قوانين الدولة .
لوّح (فؤاد) بذراعه ، وهو يهتف فى حدة :
ـ قوانين الدولة ؟!.. ومنذ متى تهتمون بالدولة وقوانينها ؟!
انعقد حاجبا (إبراهيم مكّى) ، وهو يقول فى صرامة :
ـ هل تقول شيئًا عن الدولة وقوانينها يا (فؤاد) ؟
ارتجف جسد (فؤاد) ، وهتف بسرعة وخوف :
ـ أنا لم أقصد هذا .
ثم ألقى جسده على المقعد المقابل لمكتب (إبراهيم) ، مستطردًا فى ضراعة :
ـ ولكننى أعتقد أنه توجد حتمًا وسيلة لتفادى هذه الروتينات .
التقط (إبراهيم) نفسًا عميقًا ، وتراجع فى بطء ، وهو يرمق (فؤاد) بنظرة باردة ، قبل أن يقول فى اقتضاب .
ـ بالتأكيد .

هتف (فؤاد) فى لهفة :
ـ حقًا ؟!.. هل توجد وسيلة لهذا ؟
هزّ (إبراهيم) كتفيه ، وقال :
ـ لكل مشكلة حل ، ولكن .. ما الذى يدفعنى للدوران حول الأمور ، والبحث عن وسيلة ملتوية ، لتحقيق نفع شخصى لك ، ولعائلة (البنهاوى) ؟
قال (فؤاد) فى دهشة :
ـ ألم نتفق من قبل ؟
ابتسم (إبراهيم) فى سخرية خبيثة ، وهو يقول :
ـ اتفقنا على ماذا ؟.. على أن تنقل إلىّ كل أسرار (حسين البنهاوى) ؟.. آسف يا (فؤاد) بك .. لست أعتقد أن اتفاقنا يصلح الآن .
قال (فؤاد) فى لهفة متوترة :
ـ فليكن .. سنعقد اتفاقًا آخر .. ماذا تطلب يا (إبراهيم) بك ؟
أطلّت نظرة مخيفة من عينى (إبراهيم) ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام ابتسامته الغامضة ، قبل أن يجيب :
ـ خمسة وعشرين فى المائة .
ردّد (فؤاد) فى حيرة :
ـ خمسة وعشرين فى المائة ؟!
اعتدل (إبراهيم) ، وهو يضيف فى حسم :
ـ نعم .. أريد ربع أرض (البنهاوى) ، مقابل مساعدتكم فى استرداد الأرباع الثلاثة المتبقية .
انعقد حاجبا (فؤاد) فى شدة ، وهو يقول فى عصبية :
أى مطلب هذا يا (إبراهيم) بك ؟

أجابه (إبراهيم) فى برود :

ـ مطلب عادل .. إنكم تحتاجون لعدة سنوات ، قبل أن تعود إليكم الأرض رسميًا .. وحتى عندما تحصلون على شهادة وفاة قانونية ، ستظل أمامكم مشكلة عويصة ، وهى أن القانون لا يسمح بملكية أكثر من خمسين فدانًا ، فى حين أن مساحة أرض البنهاوية تبلغ مائتى فدان .. صحيح أن أحدًا لم يعترض على زيادة المساحة عما يسمح به القانون من قبل ، إلا أنه لو تدخل أحد ذوى النفوذ ، سيضطر المسئولون لتنفيذ القانون ، والاستيلاء على مائة وخمسين فدانًا ، وهذا يعنى أن المتبقى ..

قاطعه (فؤاد) فى توتر :

ـ فليكن ..

توقف (إبراهيم) ، وتطلع إليه بابتسامته الخبيثة ، فاستطرد فى عصبية :

إننى أوافق على مطلبك هذا ، ولكننى لست المستفيد الوحيد من الأرض ، ومن الضرورى أن أحصل على موافقة الآخرين ، قبل أن أعلن موافقتنا على هذا العرض .

قلب (إبراهيم) كفه ، وهو يقول :

ـ خذ وقتك كله يا (فؤاد) بك .. لست أنا الذى يتعجل الأمور ، ولن ...

قاطعه رنين الهاتف على مكتبه ، فانعقد حاجباه ، والتقط سماعته ، قائلًا :

ـ من المتحدث ؟

استمع إلى محدثه لحظات ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. أذكر هذه العملية .. كانت منذ ثلاث سنوات تقريبًا .

ثم انفجر القناع الجامد عن وجهه دفعة واحدة ، وهو يهتف :

ـ ماذا ؟!.. ماذا تقول ؟!

فقد كان ما سمعه مدهشا ..

مدهشا بحق ..

★ ★ ★

بكت (نعيمة) ، وانتحبت فى مرارة ، وهى تجلس فى حجرة (شريفة) ، التى ربتت على كتفيها فى حنان مشفق ، وهى تهمس :

ـ كفى يا أختى .. كفى .. لم يحدث أى شىء بعد .. كلها مجرد أوهام فى رأسك وحدك ، ولن يقدم (عمر) على تطليقك أبدًا ، حتى بعد موت (حسين) .. رحمه الله .

قالت (نعيمة) من وسط نهر دموعها الغزيرة :

ـ بل سيطلقنى .. أنا واثقة من أنه سيفعل .. لقد كان يبقى علىَّ فقط خوفًا من (حسين) ، ولن يقيم لى وزنًا بعد موته .. إنه يقضى الآن معظم وقته مع (فاتن) ، زوجته الثانية ، ويعايرنى بأنها أنجبت له ولدين .. إنها مسألة وقت فحسب .. أنا أقرأ هذا فى عينيه .. صدقينى .. سيطلقنى يا (شريفة) ، إن عاجلًا أو آجلًا ..

قالت (شريفة) فى مرارة :

ـ لو أراد أن يفعل لفعل منذ زمن يا (نعيمة) .. لماذا انتظر شهرًا كاملًا ، منذ وفاة (حسين) ، وحتى الآن .

جففت (نعيمة) دموعها ، وهى تقول :

ـ لست أدرى .. لقد لمحت الشماتة فى عينيه ، عندما بلغه نبأ موت (حسين) .. ألم تنتبهى إلى أنه أتى بنفسه إلى السراى ، التى أقسم ألا يطأها بقدمه ، مادام (حسين) حيًا .

هتفت (شريفة) فى غضب :
ـ قُطِعَتْ قدماه .
ثم انتبهت إلى أنه مازال زوج شقيقتها ، فاستدركت فى سرعة :
ـ ولكن المهم أنه أدّى واجب العزاء .
عادت (نعيمة) تبكى ، وهى تقول :
ـ إننى أشعر بالخوف يا (شريفة) .. أشعر بخوف شديد .
ربّتت (شريفة) عليها مرة أخرى ، وقالت :
ـ اطمئنى يا (نعيمة) .. (عمر) لن يطلّقك .. تأكّدى من هذا .. سأحضر لك بعض عصير الليمون ، لتهدئة أعصابك ، ثم نواصل حديثنا .
قالت (نعيمة) ، وقد شاب لهجتها شىء من صرامة مباغتة :
ـ ولماذا تصنعينه بنفسك ؟.. اطلبى من (فاطمة) أن تصنعه ، وتحضره إلى هنا .
مصمصت (شريفة) شفتيها ، وهى تقول :
ـ (فاطمة) .. ليت هذا ممكن .. إنك لا تعرفين ما أصاب (فاطمة) ، منذ موت (حسين) !.. لقد أصبحت (فاطمة) هانم .. لا أحد يستطيع التحدّث معها ، أو مع ابنها الملعون .
لم تكد (شريفة) تأتى على ذكر (طارق) ، حتى تلفّتت (نعيمة) حولها ، وقالت فى حدة :
ـ أين (نادرة) ؟!
هزّت (شريفة) كتفيها ، قائلة :
ـ من المؤكّد أنها تلعب مع (طارق) ، فى الحديقة الخلفية ، فهكذا يفعلان كلما التقيا .

عقدت (نعيمة) حاجبيها ، وهى تقول فى حنق :
ـ ابنتى لن تلعب مع ابن الملعونة هذا .. أحضريها أرجوك يا (شريفة) ، وأخبريها أننى سأضربها فى قسوة ، لو عاودت فعلتها هذه .
نهضت (شريفة) لتنفيذ مطلب شقيقتها الكبرى ، وهبطت إلى الطابق الأرضى ، وهى تنادى :
ـ (نادرة) .. (نادرة) .. أين أنت ؟
استقبلتها (فاطمة) بملامحها الغليظة ، وصوتها الأجش الخشن ، وهى تقول :
ـ إنها تلعب مع (طارق) فى الحديقة .
صاحت بها (شريفة) :
ـ وكيف سمحت لها بهذا ؟
أطلقت (فاطمة) شهقة استنكار سوقية ، قبل أن تهتف :
ـ كيف ؟.. ماذا ؟!.. معذرة يا سادة الأسياد .. هل تخشون أن تصاب ابنتكم الأميرة بعدوى الفقر من ابنى الفلاح ؟!.. لا ياسيّدة الدار .. لم يعد هناك كبار وصغار هنا ، فكلنا أصحاب أملاك ، وللذكر مثل حظ الأنثيين .. هل تذكرين هذا .. (حافظ) سيحصل على ضعف نصيبك يا ملكة الملكات وسيّدة الحسن والجمال .
صرخت (شريفة) :
ـ أيتها اللعينة !.. أكنت تنتظرين موت (حسين) ، حتى ترثى نصيب (حافظ) من الأرض .
قالت (فاطمة) متحدية فى غلظة :
ـ ألم يكن هذا هدفكم جميعًا ؟

انتفض جسدها كله مع الصوت ، ووثب كيانها بأكمله يلتفت إلى حيث مصدره ..

لوحت (شريفة) بكفها ، وهى تهرع نحو الحديقة الخلفية ، هاتفة :

ـ كفى .. كفى .. لم أعد أحتمل مجرّد سماع صوتك .

لاحقتها (فاطمة) بشهقة سوقية أخرى ، صائحة :

ـ لماذا ؟.. أصوتك هو الشبيه بصوت أم كلثوم ، يا فريدة العصر والأوان ؟

جرت (شريفة) إلى الحديقة الخلفية ، وهى تقول فى حنق :

ـ ربّاه !.. إلى متى سأحتملها ؟.. إلى متى ؟

وراحت تسير فى الحديقة ، منادية :

ـ (طارق) .. (نادرة) .. أين أنتما ؟

باغتها فجأة صوت هامس ملهوف ، يقول :

ـ آنسة (شريفة) .

انتفض جسدها كله مع الصوت ، ووثب كيانها بأكمله يلتفت إلى حيث مصدره ، ثم اتسعت عيناها فى ذهول ، وانطلقت من حلقها شهقة قوية عنيفة ، وهى تحدّق فى وجه صاحبه ، وتصرخ من أعمق أعماقها :

ـ أنت ؟!

وكانت على حق فى ذهولها وذعرها ؛ فالواقف أمامها كان آخر شخص تتوقع رؤيته ..

آخرهم على الإطلاق ..

* * *

١٢ ـ لحم الحى ..

« .. (أمجد) ؟!.. »

هتف (مراد صقر) بالاسم فى دهشة بالغة ، وهو يحدّق فى وجه (إبراهيم مكى) ، قبل أن يسأله فى انفعال :

ـ إذن فهو لم يمت !!.. عجبًا !.. أين اختفى إذن ، طوال السنوات الثلاث الماضية ؟!

أجابه (إبراهيم) ، وهو يشير إلى التقرير فى يده :

ـ لقد فقد الذاكرة تمامًا ، بعد إصابته ، وإشرافه على الغرق ، وأنقذه أحد العرب فى قلب (إسرائيل) ، وراح يرعاه ويداويه سرًا ، طوال هذه السنوات الثلاث ، وأخفى أمره عن جنود الاحتلال تمامًا ، حتى استعاد (أمجد) ذاكرته ، منذ ما يقرب من الشهر ، فعاونه العربى على العودة إلى هنا سرًا .

هزّ (مراد صقر) رأسه ، وهو يقول :

ـ يا لها من قصة !.. إنها تشبه أفلام السينما القديمة .. ولكن ، أين هو الآن ؟

أجابه (إبراهيم) فى سرعة :

ـ هنا .. فى (مصر) .

قال (مراد) فى عصبية :

ـ أعلم هذا .. لقد أخبرتنى به من قبل ، ولكننى أسأل : لماذا لم يأت إلى الجهاز مباشرة ، ليقدّم تقريره عن فترة غيابه ؟

هزّ (إبراهيم) رأسه ، وقال :

ـ لست أدرى .. يمكننا استجوابه فى هذا الشأن ، عند وصوله إلى هنا .

ثم مال نحو (مراد) ، مستطردًا فى لهجة مختلفة :

ـ ولكن دعنا من أمره الآن يا سيادة المدير ، فلدى ما أريد التحدّث معك بشأنه .

انعقد حاجبا (مراد) فى صرامة شديدة ، وهو يقول :

ـ ليس هناك وقت للأحاديث الجانبية يا (إبراهيم) .

اعتدل (إبراهيم) ، وهو يقول :

ـ إنه ليس حديثًا جانبيًا يا سيّدى .. إنه أمر بالغ الأهمية .

لم يعترض (مراد) هذه المرة ، ولكنه عقد حاجبيه أكثر ، ومطّ شفتيه دلالة عن عدم الرضا ، وهو يتطلّع إلى (إبراهيم) ، الذى واصل بسرعة :

ـ بشأن الأسماء التى تم تقديمها إلى السيّد رئيس الجمهورية .

قال (مراد صقر) فى غلظة :

ـ سيادته لم يوافق بعد على أى منها .

قال (إبراهيم) ، فى صوت شابته بعض الحدة :

ـ ولكن القائمة لم تتضمّن اسمى .

رمقه (مراد) بنظرة صارمة ، وهو يقول :

ـ ولماذا تتضمّنه ؟!

جاء دور (إبراهيم) ، ليعقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ لأننا اتفقنا على هذا .

صاح (مراد) فى وجهه فجأة :

ـ اتفقنا ؟!.. أى قول هذا يا رجل ؟!.. هذه العبارة لا تصلح أبدًا هنا ؟ فى هذا الجهاز .. إننا هنا لا نتفق على أى شىء ، إلا إذا كانت فيه مصلحة الوطن .. هل تفهم ؟

فوجئ بـ (إبراهيم) يجيب فى سرعة :

ـ أفهم يا (مراد) بك .. أفهم .

والواقع أن عبارة (إبراهيم مكى) لم تكن تحمل ذرة واحدة من النفاق ..

إنه بالفعل يفهم ..

يفهم أن كل الاتفاقيات السابقة ، التى تمت بينه وبين (مراد صقر) ، كانت نوعًا من التآزر ، فى مواجهة (حسين البنهاوى) ..

والآن لم يعد هناك (حسين) ..

ولم تعد هناك أية اتفاقيات .

هذه طبيعة الدنيا .

لا أحد يمنحك شيئًا ، إلا لو كانت فيه مصلحة شخصية ..

و (إبراهيم مكى) يدرك هذا المبدأ جيدًا ..

ويطبقه خير تطبيق ..

ولقد استقبل ما فعله (مراد صقر) فى هدوء شديد ..

هدوء الشخص ، الذى كان يعلم مسبقًا ، ما ستئول إليه الأمور ..

ولكن هذا الهدوء أقلق (مراد صقر) بشدة ..

أقلقه إلى الحد الذى بدأ معه يفكر جديًا فى خطة مناسبة لإزاحة خصم جديد من الساحة ..

خصم يُدعى (إبراهيم) ..

(إبراهيم مكى) ..

★ ★ ★

بكت (شريفة) ملء جفنيها ، بين ذراعى (أمجد) ، الذى احتواها فى حنان ، وراح يروى لها قصته ، منذ فقد ذاكرته فى قلب (إسرائيل) ، وحتى عاد إلى الوطن ، ثم أضاف فى همس مملوء بالوجد والهيام والحب :

ـ كان المفروض أن أتجه إلى الإدارة مباشرة ؛ لأقدم تقريرى حول الفترة الماضية ، ولكننى لم أستطع ، فبمجرد وصولى إلى (مصر) أتيت إلى هنا مباشرة لكى .. لكى أراك .

خفق قلبها ، وترنمت أوتار أنوثتها بلحن لم تعزف مثله من قبل ، وهى تتعلق به ، وتبكى قائلة فى سعادة :

ـ المهم أنك هنا .. لست أصدق نفسى .. لقد أخبرنى (حسين) أنك لقيت مصرعك ، وتحطم قلبى من بعدك تمامًا ، ولم أتصور أبدًا أننى سألقاك ثانية .

أمسك كفيها فى هيام ، وهو يقول :

ـ ولكننى عدت .. عدت من أجلك يا (شريفة) ، ولن أفارقك ثانية قط ، وكل أملى أن يوافق (حسين) بك على زواجنا هذه المرة ، وأن ...

لم تكد تسمع اسم (حسين) ، حتى انفجرت باكية ، وراحت تفرغ كل عواطفها وانفعالاتها عبر عينيها ، هاتفة :

ـ (حسين) ؟!.. ألم يبلغك أمر (حسين) ؟

سألها فى جزع حقيقى :

ـ ماذا أصابه ؟

روت له القصة كلها ، من بين دموعها ، واستمع هو إليها فى دهشة ، قبل أن يقول :

ـ ألم يعثروا على الجثة حتى الآن ؟

هزت رأسها نفيًا ، وهى تبكى قائلة :

ـ أبدًا .. شهر كامل ولم تظهر جثته بعد .

انعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ عجبًا !!.. هذا يخالف طبيعة الإسرائيليين تمامًا .

كانت هناك عشرات الأفكار ، التى تعربد فى عقله ، وعشرات التصورات التى تملأ ذهنه ، إلا أن طبيعته منعته من الإفصاح عنها ، وهو يربّت على كتف (شريفة) فى حنان ، قائلًا فى رفق وتعاطف :

ـ البقاء لله وحده .. تقبّلى تعازىّ ، و ...

قاطعته شهقة عنيفة ، وصوت ارتطام راحة يد بصدر امرأة ، مع صوت خشن غليظ يهتف :

ـ يالليلة السوداء !

انتفض جسد (شريفة) كله فى عنف ، واستدارت فى ارتياع ، تحدّق فى وجه (فاطمة) ، التى حدّقت بدورها فى وجه (أمجد) ، مستطردة :

ـ أنت !.. بسم الله الرحمن الرحيم .. لقد أخبرونا أنك مت منذ زمن طويل .

أجابها (أمجد) فى توتر :

ـ كانوا مخطئين .. هأنذا أمامك على قيد الحياة .

حدّقت فيه لحظات أخرى فى ذهول ، قبل أن تعاود لطم صدرها ، هاتفة بصوتها الخشن الغليظ ، وتشفيها الواضح :

ـ يا للفضيحة !.. وما الذى تفعله فى الحديقة الخلفية يا ملك الملوك ؟.. هل يدخل الشرفاء البيوت من أبوابها أم من نوافذها ؟

ارتبك (أمجد) ، وهو يقول :

ـ سيّدتى .. أنا لم أقصد ..

قاطعته (شريفة) ، قائلة فى توتر شديد :

ـ (فاطمة) .. (أمجد) بك جاء لتقديم واجب العزاء فى (حسين) .

ابتسمت (فاطمة) فى سخرية ، وهى تقول بصوت مرتفع :

ـ هكذا ؟!.. وهل أخبروه أن سرادق العزاء مقام فى الحديقة الخلفية للسراى ، أم أنه ضلّ طريقه إلى هنا ؟

انخفض صوت (شريفة) ، وتحوّلت نبرته إلى التوسّل ، وهى تقول :

ـ أرجوك يا (فاطمة) .. لا داعى للفضائح .

كانت (فاطمة) ترغب ، وبشدة ، فى تصعيد الأمر ، والانتقام من (شريفة) بفضيحة مجلجلة ، إلا أن عقلها لم يلبث أن درس الموقف كله ، وقرّر أن يتجاوز الموقف ، حتى يمكنها استغلاله فى ظروف أخرى ، فرسمت على شفتيها الغليظتين ابتسامة مقيتة ، وهى تقول :

ـ أنت على حق يا سيّدة الدار .. لا داعى للفضائح .

ثم التفتت إلى (أمجد) ، واستطردت فى صرامة :

ـ تفضّل يا (أمجد) بك .. نحن نتلقى العزاء فى حجرة الاستقبال .. وأخبرنى أوّلًا .. كيف تفضّل قهوتك ؟

قالتها فى لهجة خاصة ، وهى ترمى (شريفة) بنظرة تحمل الكثير من التشفى والانتصار ..

وأى انتصار ..

★ ★ ★

دلف (عمر) إلى حجرة شريكه (عبد الحكيم) ، فى مصنع النسيج فى (المحلة الكبرى) ، وابتسم عندما وقع بصره على (فؤاد) ، وفتح ذراعيه عن آخرهما ، قائلًا :

ـ مرحبًا .. مرحبًا .. أهلًا بك فى مصنعنا يا أستاذ (فؤاد) .. أهلًا .. أهلًا .

تعانقا فى حرارة ، ودعاه (عمر) للجلوس ، وهو يكمل :

ـ أنرت المصنع كله يا عديلى العزيز .. إننا ننتظرك فى فرح ، منذ اتصلت بنا ، وأخبرتنا أنك فى طريقك إلينا .

نقل (فؤاد) بصره بين (عمر) و (عبد الحكيم) ، قبل أن يقول فى جدية شديدة :

ـ إننى أريدكما لأمر بالغ الأهمية .

سأله (عبد الحكيم) :

ـ أمر يخص ماذا ؟

أجابه (فؤاد) بسرعة :

ـ يخص الأرض .. أرض (البنهاوى) .

بدت الدهشة على وجهيهما ، وتبادلا نظرة سريعة ، قبل أن يقول (عمر) :

ـ ألم أخبرك من قبل أنه من المستحيل ـ قانونًا ـ السير فى إجراءات الميراث ، قبل عدة سنوات ؟

قال (فؤاد) فى لهفة منفعلة :

ـ عندى حل لتجاوز هذا .

سأله (عبد الحكيم) فى دهشة :

ـ حقًا ؟!

أجاب (فؤاد) فى انفعال واضح :

ـ نعم .. لى صديق من ذوى النفوذ ، يمكنه حل هذه المشكلة ، ولكن ..

وصمت لحظة ، نقل خلالها بصره بين وجهيهما ، قبل أن يستطرد فى توتر :

ـ ولكنه يطلب المقابل .

تبادلا نظرة أخرى ، ملؤها الدهشة ، قبل أن يهتف (عبد الحكيم) :

ـ أى مقابل ؟!

أجاب (فؤاد) فى سرعة ، وكأنما يخشى لو انتظر قليلًا ، أن يعجز عن قولها :

ـ ربع الأرض .

قفزت دهشتهما إلى ذروتها ، وهما يحدقان فى وجهه ، فتابع متوترًا :

ـ لقد شرح لى الأمر ، وبدا منطقيًا للغاية .

ونقل إليهما كل ما سمعه من (إبراهيم مكّى) ، دون أن يفصح عن شخصية هذا الأخير ، ولم يكد ينتهى من حديثه ، حتى قال (عبد الحكيم) فى حدة :

ـ من هذا الشخص بالضبط ؟

أجابه (فؤاد) فى عصبية :

ـ ليس هذا من شأنكما .. إنه يرفض الإفصاح عن شخصيته ، ولن يمكننى أن أفعل .

قال (عمر) فى لهجة هجومية :

ـ إنه شقيقك .. أليس كذلك ؟

صاح (فؤاد) فى توتر شديد :

ـ كلّا .. إنه ليس هو .. أقسم لكما .. شقيقى تولّى منصبًا فى (سوريا) ، واستقر فى (دمشق) ، ولا شأن له قط بهذا الاقتراح ..

ثم إن شخصية صاحب الاقتراح ليست من شأنكما .. المهم هو : هل توافقان عليه أم لا ؟

عادا يتبادلان نظرة طويلة ، وكأن كلًا منهما يستشير صاحبه ، ثم قال (عبد الحكيم) فى حدة :

ـ لا شأن لى بأرض (البنهاوى) .. المفترض أن أسأل (توحيدة) أوّلًا .

أما (عمر) ، فقد ابتسم ، وهو يقول :

ـ أما أنا ، فيروق لى كثيرًا أن أستعيد تلك الأرض ، التى عانيت من أجلها الكثير .

ثم اعتدل ، مستطردًا فى حماس :

ـ أنا أوافق يا أستاذ (فؤاد) .

أشاح (عبد الحكيم) بوجهه ، وهو يقول :

ـ هذا الأمر لا يروق لى .

أجابه (عمر) فى حماس :

ـ بل هو أمر منطقى للغاية .. الأرض من حقنا كما تعلم ، وكل ما سنفعله هو أننا سنحصل على حقنا ، بالأسلوب الذى يناسب ظروفنا ، فما المشكلة فى هذا ؟

تعلّقت عينا (فؤاد) بـ (عبد الحكيم) ، الذى استغرق فى التفكير لحظات ، قبل أن يقول :

ـ أعتقد أنك على حق .. لا توجد مشكلة ..

تنهّد (فؤاد) فى ارتياح ، إلا أن تنهيدته احتبست فى صدره ، عندما استدرك (عبد الحكيم) فى سرعة :

ـ بل مشكلتان .

حبس (فؤاد) أنفاسه ، فى حين سأل (عمر) فى قلق حائر :

ـ وما هما ؟

التفت (عبد الحكيم) إليهما لحظات فى صمت ، ثم اعتدل بجسده كله ، وهو يجيب فى حزم :

ـ (مفيد) و (شريفة) .

وكان على حق فى قوله هذا ..

على حق تمامًا ..

★ ★ ★

« لكل مشكلة حل .. »

نطق (إبراهيم مكّى) هذه العبارة بابتسامة كبيرة ، ملؤها الخبث والدهاء ، وهو يتراجع فى مقعده ، متطلّعًا إلى (فؤاد) ، الذى قال فى توتر شديد :

ـ لقد تصوّرت هذا ، ولكن (مفيد) استنكر الفكرة بشدة ، وأنا أحاول إقناعه منذ أسبوعين كاملين ، أما (شريفة) ، فهى تنفجر باكية ، كلما فاتحتها فى الأمر ، ثم إنها مشغولة تمامًا بزميلكم هذا ، الذى تقدّم لخطبتها .

اعتدل (إبراهيم) فى حركة حادة ، وهو يقول :

ـ من ؟!.. (أمجد) ؟!

أجابه (فؤاد) فى حنق :

ـ نعم .. (أمجد) .. (أمجد) الذى ظلّ يتردّد على السراى ، حتى انقضت ذكرى الأربعين لـ (حسين البنهاوى) ، وفى اليوم التالى مباشرة ، تقدّم لخطبة (شريفة) .

قال (إبراهيم) ، وهو يفكر فى عمق :

ـ ومن المؤكد أنها وافقت على الفور ، فهى ترتبط به عاطفيًا منذ زمن طويل .

أجابه (فؤاد) ، وهو يلوّح بيده ساخطًا :

ـ بالطبع .. هى وافقت ، و (مفيد) وافق ، ولكن العائلة كلها رفضت الاحتفال بالخطبة رسميًا ، إلا بعد مرور عام على موت (حسين) .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (إبراهيم) ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى ، بالنسبة لعائلة ذات انتماء ريفى قوى .

ثم عاد يتراجع فى بطء ، مستطردًا :

ـ ولكن هذا سيفيدنا بالتأكيد .

سأله (فؤاد) فى لهفة متوترة :

ـ كيف ؟!

هزّ (إبراهيم) كتفيه ، ومطّ شفتيه ، وهو يجيب :

ـ سنضع (مفيد) و (شريفة) أمام اختيار محدود ، فإما الأرض ، أو خطيب الدرة المصونة ، والجوهرة المكنونة .

بدا مزيج من الشك والقلق على وجه (فؤاد) ، وهو يسأله :

ـ وكيف يمكنك إجبار (شريفة البنهاوى) على وضع خطبتها فى الميزان ، من أجل الأرض ؟

أطلّ الخبث والدهاء مرة أخرى ، من عينى (إبراهيم) ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك لم تسمع ما قلته جيدًا يا (فؤاد) بك .. لكل مشكلة حل .. هل نسيت أن (أمجد) قد اختفى ثلاث سنوات فى قلب (إسرائيل) ، قبل أن يعود إلينا ؟!

بدت الحيرة على وجه (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ وما الصلة بين هذا وذاك ؟

اتسعت ابتسامة (إبراهيم) ، وهو يقول :

ـ إننا جهاز شديد الحساسية يا (فؤاد) بك ، وليس من السهل أن يعود أحد رجالنا إليه ، بعد غياب ثلاث سنوات ، إلا لو حظى بمنتهى الثقة ، وباقتناعنا التام بأنه ما زال يدين لنا بالولاء .

ثم ضاقت حدقتاه ، وهو يتابع بلهجة خبيثة :

ـ والأمران يسهل التشكيك فيهما ، فثلاث سنوات فترة كافية ، لتجنيد شخص ما فى المخابرات الإسرائيلية .. أليس كذلك ؟

قالها وأطلق ضحكة قصيرة مدمجة ، انتفض لها قلب (فؤاد) بين ضلوعه ..

ضحكة ، جعلته يبدو فى عينيه أشبه بالشيطان ..

شيطان الإنس .

* * *

١٣ ـ واستحكمت حلقاتها ..

عقد الرئيس (جمال عبد الناصر) حاجبيه ، وهو يراجع قائمة الأسماء الجديدة ، التى قدّمها له (مراد صقر) ، ثم هزّ رأسه فى عدم اقتناع ، وهو يقول :

ـ لم يمرّ علىّ من قبل اسم واحد ، من هذه الأسماء يا (مراد) .

أجابه (مراد) بسرعة :

ـ ولكنهم جميعًا من أكفأ رجال الإدارة يا فخامة الرئيس .

تنهّد الرئيس (جمال) ، وهو يهزّ رأسه مرة أخرى ، وألقى القائمة على سطح مكتبه ، وهو يقول :

ـ صعب يا (مراد) .. من الصعب جدًا أن أجد بديلًا لـ (حسين البنهاوى) ، فأنا أعرف هذا الشاب منذ الأيام الأولى للثورة ، ولقد زرت منزله ، وتناولت طعامى هناك ، ويمكننى أن أمنحه ثقتى المطلقة .. أضف إلى هذا أنه ذكى ، ومهذب ، ولمّاح ، ومعه لا أكون مضطرًا للشرح والتفسير ..

كان (مراد صقر) يشعر بالحنق والغضب ، مع كل حرف ينطق به الرئيس ، فى مدح (حسين) ، إلا أنه لم يجد غضاضة ، بعد موت هذا الأخير ، من أن يؤيّد الرئيس قائلًا :

هذا صحيح يا فخامة الرئيس .. (حسين البنهاوى) (رحمه الله) ، كان أفضل وأكفأ من عمل فى الإدارة ، ولن يمكننا أبدًا تعويضه بأى فرد آخر .

ثم خفض صوته ، مستطردًا :

ـ ولكن الضروريات تحتم وجود ضابط اتصال شخصى ، بيننا وبين فخامتكم ، حتى بعد رحيل (حسين البنهاوى) .

صمت الرئيس (جمال) بضع لحظات ، وهو يفكّر فى عمق ، ثم رفع عينيه الشبيهتين بعينى الأسد ؛ ليواجه (مراد) ، قائلًا :

ـ فليكن يا (مراد) .. اترك القائمة ، وامنحنى أسبوعًا واحدًا لاتخاذ القرار ، فالموقف فى (دمشق) يحتاج منى إلى تركيز واهتمام كاملين .

قال (مراد) فى لهجة تشفّ عن الامتثال :

ـ كما تأمر يا فخامة الرئيس .

ثم اكتسب صوته لهجة خاصة بالعمل ، وهو يستطرد :

ـ وبمناسبة الحديث عن (سوريا) .. هل راجعتم فخامتكم التقارير الأخيرة ، الواردة من هناك ؟!

أومأ الرئيس برأسه إيجابًا ، وأشار إلى أحد الملفات فوق مكتبه ، قائلًا :

ـ كلها .. لقد قرأتها كلمة كلمة ، ثلاث مرات على الأقل ، وما جاء بها يثير القلق ، وما يبشّر بالخير أبدًا ، فـ (عبد الحكيم) ورجاله يتعاملون ويتصرّفون هناك على نحو يستفز السوريين ، ويثير المسئولين .

سأله (مراد) فى حذر :

ـ ماذا تقصد برجال (عبد الحكيم) يا فخامة الرئيس ؟.. كل الذين هناك من رجالنا .

ابتسم الرئيس (جمال) فى شىء من المرارة ، وهو يقول :
ـ هذا ما يبدو ظاهريًا يا (مراد) .. أما الواقع ، فهو يختلف كثيرًا .. صحيح أن الجميع يتصورون أن (جمال عبد الناصر) هو الآمر الناهى ، وصاحب القبضة الحديدية ، التى تحكم (مصر) كلها ، ولكن الواقع أن (عبد الحكيم عامر) هو الذى يحكم الجيش ، والجيش هو اليد الباطشة ، التى تملك القوة الحقيقية ، ولقد أحكم سيطرته تمامًا على جيشنا ، بعد العدوان الثلاثى .
وتنهَّد فى عمق ، قبل أن يستطرد :
ـ ولكنه خطئى أنا ، فقد كان المفترض أن ...
وبتر عبارته بغتة ، وكأنما لم يجد من اللائق أن يتمّها ، ثم استعاد صرامته الطبيعية ، وهو يرفع عينيه مرة ثانية إلى (مراد) ، قائلًا :
ـ المهم أنك ستترك القائمة .
انحنى (مراد صقر) فى احترام واضح النفاق ، وهو يقول :
ـ أمرك يا فخامة الرئيس .. هل من أوامر أخرى ؟
منحه الرئيس (جمال) ابتسامة هادئة ، وهو يقول فى حزم بسيط :
ـ كلَّا يا (مراد) .. يمكنك الانصراف .
انصرف (مراد) على الفور ، وتابعه الرئيس بابتسامته ، حتى غادر الحجرة ، فتلاشت الابتسامة ، وأطلّت من عينى الأسد نظرة صارمة غاضبة ، وهو يقول :
ـ مناورة طريفة يا (مراد) ، ولكننى لست بالساذج الذى تصوّرتماه .. أنت ومن تعمل لحسابه ، وعندما تحين اللحظة المناسبة ، ستعرفان من هو (جمال) .

ثم عاد يلتقط قائمة الأسماء ، ويراجعها بكل دقة ..
وبكل هدوء ..

★ ★ ★

هبَّ (مفيد) من مقعده فى غضب شديد ، وهو يقول لـ (فؤاد) فى حدة :
ـ كلَّا يا (فؤاد) .. لن أقبل هذا التهديد قط .
وانخرطت (شريفة) فى بكاء حار ، فى اللحظة التى قال فيها (فؤاد) فى عنف :
ـ لا تتسرَّع فى اتخاذ قرارك يابن (البنهاوى) ، ولا تتحدَّ أو تكابر .. أنت لا تتصوَّر مدى سطوة أولئك الذين تتحداهم .
أجابه (مفيد) فى غضب :
ـ بل أتصوَّر .. أتصوَّر وأعرف جيدًا يا أستاذ (فؤاد) ، ولقد شاهدت ما يمكن أن تفعله هذه السطوة بنفسى ، عندما كان (حسين) حيًا .. وأنت تذكر هذا جيدًا .
هبَّ (فؤاد) من مقعده بدوره ، وهو يقول :
ـ إذن فأنت تتحدانا علانية .
أشار إليه (مفيد) ، وهو يقول :
ـ نعم .. وأتحداك أنت شخصيًا يا (فؤاد) .. أنت وكل من تستند إليهم ، ولن أتنازل عن شبر واحد من أرض (البنهاوى) بإرادتى .. ألقونى فى السجن لو أردتم ، أو أرسلونى خلف الشمس ، كما تفعلون بكل من يعترض قراراتكم أو سياستكم ، أو حتى صادروا ثلاثة أرباع الأرض ، ولكننى لن أقبل صفقة حقيرة كهذه ، ولن ..
قاطعته (شريفة) وهى تنتحب :
ـ (مفيد) .. كفى .. كفى يا (مفيد) .

التفت إليها فى دهشة ، فاستطردت منهارة :

ـ إنك لا تقدّر الموقف .. إنك تضحّى بـ (أمجد) وبى ، فى مقابل الأرض .

حدّق (مفيد) فيها بدهشة ، وهو يقول :

ـ ماذا تقولين يا (شريفة) ؟!.. هل توافقين على ما يقوله (فؤاد) ؟!

هتفت ودموعها تتقافز مع كلماتها :

ـ وهل تجد حلًا بديلًا .

اتسعت عيناه فى ارتياع ، وهى تتابع بائسة :

ـ إنه مستقبل (أمجد) .. بل وحياته نفسها ، فإما أن يعود إلى عمله ، أو يحاكموه بتهمة العمل لحساب دولة أجنبية .. وما المقابل ؟!.. الأرض .. الأرض .. التى فرّقت بيننا ، وصنعت كل مشكلاتنا .. لم أعد أريدها يا (مفيد) .. لم أعد أريد هذه الأرض ، التى ستحرمنى من أملى الوحيد فى الحياة .. من (أمجد) .

تألّقت عينا (فؤاد) فى ظفر ، وهو يقول :

ـ تفكير ذكى وحكيم .. أهنئك على قرارك يا (شريفة) .. لقد حللت نصف المشكلة .. بل المشكلة كلها .. سأتفق مع (إبراهيم) بك على أن يقبل ربع أنصبتنا جميعًا ، فيما عدا (مفيد) .. بل ويمكننا أن نعوّضه عن نصيب (مفيد) بجزء إضافى فى أنصبتنا .. هذا أفضل من أن نفقد الأرض كلها بحكم القانون .

قال (مفيد) فى حدة :

ـ وما الذى يمنعك من أن تفقدها فى المستقبل أيها الذكى ؟

أجابه (فؤاد) فى عنف :

ـ تقسيم الأرض فى حد ذاته يخرجها من دائرة الخطر أيها العبقرى ، فالقانون حدّد الحد الأقصى للملكية بخمسين فدانًا فحسب ، ولكن (حسين) يمتلك مائتى فدان دفعة واحدة ، ولو تم توزيعها على ثمانية أنصبة ، ستصبح قيمة النصيب الواحد خمسة وعشرين فدانًا .. أى أنك و (حافظ) سيحصل كل منكما على خمسين فدانًا ، فى حين تحصل كل شقيقاتكما على خمسة وعشرين فدانًا ، وستصبح أنصبة الجميع قانونية تمامًا ، وتتفق مع الحد الأقصى للملكية .

قال (مفيد) ساخرًا :

ـ أضف إلى هذا أن (إبراهيم) بك هذا سيستولى على ربع القيمة .

هتف (فؤاد) :

ـ هذا أفضل من لا شىء فـ (إبراهيم) بك سيستخرج لنا شهادة وفاة قانونية لـ (حسين البنهاوى) ، ولولا ذلك لانتظرنا أكثر من ...

قاطعه (مفيد) فى شىء من الصرامة :

ـ إنه (إبراهيم مكى) .. أليس كذلك ؟!

امتقع وجه (فؤاد) ، وانتبه لأوّل مرة إلى أنه كشف ـ دون وعى منه ـ عن ذلك السر ، الذى أكّد (إبراهيم مكّى) على ضرورة الحفاظ عليه ، فارتبك فى شدة ، وهو يقول :

ـ كلّا .. ليس هو .. ليس هو بالتأكيد .

فاجأه (مفيد) بسؤاله التالى :

ـ (إبراهيم) من إذن .

صاح به (فؤاد) فى عصبية :

ـ لا شأن لك بهذا .. لسنا نريد منك شيئًا .. لقد وافقت

(شريفة) ، وسنضحى بجزء آخر من الأرض ، مقابل تجاهل عنادك وإصرارك الغبى ، وبهذا تكون المشكلة قد انتهت ، والـ ...

، ليس بعد .. ،..

قاطعته العبارة ، التى نطقتها (فاطمة) فى غلظة وخشونة وصرامة ، فاستدار الجميع إليها فى دهشة ، وهى تتابع :

ـ (حافظ) لم يوافق بعد .

حدّق الجميع فيها بدهشة ، وهى تقف عند باب الحجرة ، وقد تعلّق (حافظ) بذراعها فى وهن ، وعيناه تتحاشيان التطلّع إليهم ، وتتركزان على ابنه (طارق) ، الذى تعلّق بجلبابه ، وكأنما شعر بتوتر الموقف ، ثم اندفع (فؤاد) يقول فى حدة :

ـ ماذا تقولين أيتها المأفونة ؟!.. (حافظ) سيوافق حتمًا على كل ما أقول .

قالت فى غضب خشن :

ـ هذا ما تصوّرته يا (فؤاد) بك .. إنك لم تضع (حافظ) فى اعتبارك لحظة واحدة ، وأنت تعدّ خطتك ، ولهذا لم تحاول حتى طرح الفكرة عليه .. كلّا يا سيّد الرجال .. (حافظ) أيضًا له نصيب مساو لنصيب (مفيد) ، وضعف نصيب كل من شقيقاته ، وكان من الواجب أن تطلب رأيه أيضًا .

صاح بها (فؤاد) فى غضب :

ـ وما شأنك أنت بهذا ؟.. هذا الأمر يخصّ (حافظ) وحده .

هتفت (فاطمة) فى حدة :

ـ بل هو شأنى وشأن ابنى يا سيّد الرجال ، فأرض (حافظ) هى أرضنا .

قال (فؤاد) فى عصبية :

ـ ليس فى حياة (حافظ) .. هيا تكلّم يا رجل .. قل لزوجتك ألا شأن لها بأرضك .. أنت الرجل ، والقرار لك وحدك .. هيا .. قل هذا .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (فاطمة) ، وهى تقول :

ـ ماذا تنتظر يا (حافظ) ؟.. قل لهم ما يريدون سماعه .. قل .

خفض (حافظ) عينيه أكثر ، وهمهم بكلمات لم يسمعها أحد .. فصاح به (فؤاد) :

ـ ارفع صوتك يا رجل .

التقط (حافظ) نفسًا عميقًا ، قبل أن يستجمع شجاعته ، ويقول :

ـ فا ... (فاطمة) هى صاحبة القرار .

اتسعت عينا (شريفة) فى دهشة بالغة ، لم تلبث أن تحوّلت إلى بغض شديد ، أطلّ من عينيها واضحًا ، وهى تتطلّع إلى (فاطمة) بابتسامتها الساخرة ، فى حين انعقد حاجبا (فؤاد) فى شدة ، وهو يهتف :

ـ هكذا ؟!

ابتسم (مفيد) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ أعتقد أن هذا يفسد خطتك تمامًا يا (فؤاد) .

استدار إليه (فؤاد) ، وهو يقول فى حدة :

ـ من قال هذا ؟

ثم عاد ينظر إلى (فاطمة) ، مستطردًا :

ـ كل ما فى الأمر أن القرار قد انتقل من (حافظ) بك إلى (فاطمة) هانم .

أطلقت (فاطمة) ضحكة سوقية خشنة ، قبل أن تقول فى سخرية فظة :

ـ (فاطمة) هانم .. فليسترك الله يا (فؤاد) بك .. إنها المرة الأولى ، فى حياتى كلها ، التى يخاطبنى فيها أحد ما بهذا اللقب .

هتفت (شريفة) فى حنق :

ـ وأنت لا تستحقينه بالتأكيد .

رمقتها (فاطمة) بنظرة غاضبة ، وكادت تشتبك معها فى مشادة كلامية أخرى ، لولا أن قال (فؤاد) بسرعة :

ـ مهلًا .. دعونا لا نضيع الوقت فى هذا .. المهم الآن أن نتخذ القرار فى مشكلة الأرض هذه .

ثم استطرد فى شىء من اللهفة :

ـ والآن ما هو قرارك يا (فاطمة) هانم .. إنك توافقين بالطبع على اقتراحى .. أليس كذلك ؟

تعلقت عيونهم جميعًا بشفتى (فاطمة) ، التى انعقد حاجباها فى صرامة ، قبل أن تجيب بخشونتها العنيفة :

ـ كلا .. لست أوافق .

برقت عينا (مفيد) فى ارتياح ، وأطلت دهشة عارمة من عينى (شريفة) ، وأشاح (حافظ) بوجهه أكثر ، فى حين هتف (فؤاد) ذاهلًا :

ـ ماذا ؟!

أجابته (فاطمة) فى خشونة أكثر :

ـ كما سمعت يا (فؤاد) بك .. لست أوافق على التنازل عن شبر واحد من نصيب (حافظ) فى الأرض .

هتف (مفيد) فى حماس :

ـ أحسنت يا (فاطمة) .

وصاحت (شريفة) :

ـ وماذا عن (أمجد) ؟!

أما (فؤاد) ، فقال فى غضب :

ـ ماذا تقولين يا ابنة (عبد الحميد) ؟.. هل تتحدين أسيادك يا سليلة الحقراء ؟

ضربت (فاطمة) راحتيها ببعضهما ، ولوّحت بهما فى الهواء ، قائلة :

ـ تعالوا وانظروا يا أهل العقل والصواب .. فى لحظة واحدة أصبحت (فاطمة) هانم ، وفى اللحظة التالية صرت سليلة الحقراء !.. هل رأيتم تخبطًا كهذا ؟

صاح بها (فؤاد) :

ـ كفى عن هذه الأفعال السوقية ، واسمعينى جيدًا يا امرأة .. يبدو أنك عجزت عن فهم الأمر .

أجابته (فاطمة) فى غلظة :

ـ بل فهمته يا عبقرى العباقرة ، ولكننى لست مستعدة للتنازل عن قيراط واحد من الأرض ، وإنما أفضل الصبر والانتظار ، وأنا واثقة من أنك لن تقدم أبدًا ، أنت ومن خلفك ، على اقتطاع أى جزء من الأرض ، لأنكما تتطلعان إليها فى طمع وجشع يفوقان طمعنا وجشعنا بعشرات المرات .

احتقن وجه (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ أيتها الـ .. الـ ..

قاطعه (مفيد) فى صرامة :

ـ إياك أن تخطئ فى حقها يا (فؤاد) ، فهى زوجة أخى ، ولن أسمح لك بأن تمسّ شعرة واحدة من رأسها .

رمقته (فاطمة) بنظرة امتنان ، فى حين قال (فؤاد) فى غضب :

ـ شعرة واحدة ؟!.. هذا ما تظنه أيها المغرور المكابر .. هل تعتقد أننا لم نضع هذا الاحتمال فى اعتبارنا ؟!.. مخطئ أنت لو تصوّرت هذا .. إنكم تتعاملون مع عقلية فذة أيها السادة .. عقلية اعتادت أن تدرس الأمر بكل احتمالاته ، وتضع خطة متقنة ، للتغلب على كل العقبات .

ابتسم (مفيد) فى سخرية ، قائلًا :

ـ وكيف تتغلب العقلية الفذة على هذه العقبة ؟

هتف (فؤاد) :

ـ بالجنون !

بدا الجواب عجيبًا مدهشًا ، فتطلّع إليه الجميع فى حيرة ، جعلته يتابع فى عصبية شديدة :

ـ سنتهم (حافظ) بالجنون ، ونستخرج الشهادات الرسمية ، التى تؤيّد هذا ، وعندئذ يصبح من حقنا الحجر عليه ، و ...

قاطعه (مفيد) غاضبًا :

ـ وسأصبح أنا وصيًا عليه على الأرجح ، بصفتى شقيقه .

احتقن وجه (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، لن يتبقى أمامنا سوى الحل الأخير .

شحب وجه (شريفة) ، وهى تقول :

ـ أى حل ؟

انعقد حاجبا (فؤاد) فى شدة وهو يقول :

القتـل .

شهقت (شريفة) فى ارتياع ، وهتف (مفيد) :

ـ إلى هذا الحد .

صاحت (فاطمة) :

ـ ولمَ لا ؟.. الطمع يفعل المعجزات .

قال (مفيد) فى غضب شديد :

ـ فليكن يا (فؤاد) .. سأقبل هذا التهديد ، وأتحداه أيضًا .. اقتلونى لو كان هذا هو الحل الوحيد ، ولكننى لن أتنازل عن شبر واحد من أرض (البنهاوى) ، ما دام فى جسدى عرق ينبض .

صاح به (فؤاد) :

ـ إننى أتحداك ..

قاطعه هذه المرة صوت صارم ، لا يمكن أن يخطئه أحدهم قط ، وهو يقول :

ـ لا تتحده يا (فؤاد) .

استدار الجميع إلى مصدر الصوت فى ذهول ، وارتجف جسد (فاطمة) كقطة مبتلة ، فى حين أطلقت (شريفة) شهقة قوية ، وامتقع وجه (فؤاد) فى شدة ، وهتف (مفيد) ذاهلًا ، وصاحب الصوت يتابع بنفس الصرامة القاسية :

ـ فلم يحن الوقت بعد للعبث بأرض (البنهاوى) .

وكان صاحب الصوت هو آخر شخص يمكن أن يتخيّل أحد رؤيته الآن على قيد الحياة ..

كان (حسين) ..

(حسين البنهاوى) ..

* * *

١٤ ـ العـودة ..

لم يصدّق (مراد صقر) عينيه، وهو يحدّق فى (حسين البنهاوى)، الذى وقف أمامه سليمًا معافى، يقول فى لهجة واثقة :

ـ من حسن حظى أن الثرى الفرنسى (جان)، كان يشعر بالقلق على صديقته الأميرة (عايدة)، لذا فقد أرسل اثنين من المخبرين الخصوصيين لمراقبتها وحمايتها، وعندما أطلق الإسرائيليون النار علينا، أمام متجرها فى (باريس)، أسرع المخبران يحملاننا داخل سيارتها، ويفران بنا من مسرح الحادث .. ولقد نقلانا بأقصى سرعة الى مستشفى خاص، يمتلكه (جان)، وهناك تم إجراء عمليتين جراحيتين عاجلتين لنا، بواسطة فريق من أمهر الجراحين الفرنسيين، تم استدعاؤه بأقصى سرعة، وفى سرية تامة .. ونجحت الجراحتان والحمد لله، وأنقذ الفرنسيون حياتى، وكان علىّ أن أقضى أسبوعين فى حجرة العناية المركّزة، ثم شهر للنقاهة والعلاج الطبيعى، وبعدها سمح لى (جان) بالسفر، ورجانى أن أحتفظ بالأمر كله سرًا، ثم وعدنى بمنع (عايدة) من تكرار مثل هذا العبث الصبيانى فى المستقبل .

هتف (إبراهيم مكى) مبهورًا :

ـ يا لها من قصة !.. إننا لم نتوقع هذا قط، على الرغم من كل التحريات التى أجريناها !

مطّ (حسين) شفتيه، وقال :

ـ هذا يؤكد دقة (جان)، ونجاحه فى إحاطة الأمر بسرية مطلقة

اعتدل (مراد)، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ ولكن كيف كان رد فعل الجميع فى قريتك، عندما وجدوك أمامهم حيًا ترزق، بعد أن قدّموا واجب العزاء فيك منذ أكثر من أربعين يومًا ؟

ابتسم (حسين)، وكأنه يسترجع الذكرى، وقال :

ـ الذهول طبعًا .. كل من رآنى أصابه الذهول، وبعضهم كان يعدو مذعورًا، وكأنما رأى شبحًا، فى حين سقط البعض الآخر مغشيًا عليه، وأقبل الباقون يصافحوننى فى حرارة وانبهار .. أما عن أسرتى .

وانعقد حاجباه بغتة، قبل أن يتابع :

ـ فقد كان أثر المفاجأة عليهم أكثر عنفًا .

سأله (إبراهيم) فى قلق :

ـ كيف ؟

صمت (حسين)، وهو يستعيد المشهد فى ذهنه، ويتذكّر كيف انهار (فؤاد) وهو يحاول شرح الأمر وتفسير موقفه، فى نفس الوقت الذى قفز فيه (حافظ) إلى كفيه، وراح يقبلها فى حرارة، ويبكى فى سعادة، وانكمشت (فاطمة) فى شحوب، وفقدت (شريفة) وعيها، وأقبل عليه (مفيد) يعانقه فى فرح طبيعى، ويتنافس مع (طارق) فى غمر وجهه بالقبلات ..

وتذكّر كيف انتشر الخبر فى القرية، فامتلأ السراى بالجميع، وعلى رأسهم شقيقاته والعمدة وشيخ الخفراء ..

(عمر) وحده تخلف عن الحضور ..
وهو يعرف السبب ..
وعلى الرغم من أن ذهنه قد استعاد كل التفاصيل فى لحظة واحدة ، إلا أنه أجاب (إبراهيم) فى برود متعمّد :
ـ إنها أسرار عائلية .
انعقد حاجبا (مراد) ، فى حين تراجع (إبراهيم) فى سرعة ، وقال دون أن يفقد ابتسامته الجامدة .
ـ بالطبع .. بالطبع .
التقط (مراد) نفسًا عميقًا ، ثم قال :
ـ حمدًا لله على عودتك سالمًا يا (حسين) .. المفروض الآن أن تقدّم تقريرًا بكل ما حدث ، و ...
قاطعه (حسين) ، وهو يضع أمامه عدة أوراق ، قائلًا :
ـ ها هو ذا .. أعنى أنها نسخة من التقرير الرسمى الشامل ، الذى قدّمته للسيّد رئيس الجمهورية فور عودتى .
هتف (مراد) :
ـ رئيس الجمهورية ؟!.. هل ذهبت إلى سيادة الرئيس ؟
أجابه (حسين) فى خبث واضح :
ـ بالطبع .. وقبل حتى أن أذهب إلى القرية .
بدا التوتر على وجه (مراد) لحظة واحدة ، أخفاه بعدها خلف قناع جامد ، وهو يسأل (حسين) :
ـ وكيف كان رد فعل سيادة الرئيس ؟
ابتسم (حسين) فى ثقة ، وهو يجيب بلهجة ذات مغزى :
ـ أعظم مما توقعت .. لقد استقبلنى سيادته فى حرارة شديدة ،

وخرج بنفسه لمقابلتى ، قبل أن أبلغ مكتبه ، وهنأنى على سلامتى ، وطلب منى أن أقضى إجازة قصيرة ، ثم أعود لاستلام العمل فى مكتبه بأقصى سرعة ؛ لأنه يفتقدنى كثيرًا .
أخفى (مراد صقر) حنقه ، خلف قناع جامد كعادته ، وهو يقول :
ـ عظيم .. أعتقد أنك قضيت إجازتك فى قريتك ، والمفروض أن تعاود عملك مع الرئيس غدًا .
كان يلوم نفسه بشدة ، لأنه مدح (حسين) أمام الرئيس ، وأكّد كفاءته ، دون أن يتصوّر أنه سيعود يومًا ، ليواصل إثارة غيظه وحنقه ..
ويبدو أن (حسين) قد قرأ أفكاره ، فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة ، وهو ينهض قائلًا :
ـ أشكرك على حسن استقبالى يا (مراد) بك ، وأستأذنك فى العودة إلى مكتبى .
أشار (مراد) بيده ، قائلًا :
ـ بالطبع .. تفضّل يا (حسين) .. مرحبًا بعودتك إلينا .
انصرف (حسين) و (إبراهيم) من حجرة مكتب (مراد صقر) ولاذا بالصمت بضع لحظات ، وهما يقطعان الممر الذى يقود إليها ، ثم قطع (حسين) هذا الصمت ، وهو يقول فى هدوء مثير :
ـ بلغنى أن بعضهم حاول استغلال غيابى ، لتحقيق مكاسب خاصة .
تجاهل (إبراهيم) العبارة تمامًا ، وارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيه ، قبل أن يسأل بنفس الهدوء :
ـ ماذا ستفعل مع (فؤاد) ؟

كانا أشبه بثعلبين ماكرين ، يتحاوران ويتناوران فى حرفية أنيقة ، و (حسين) يجيب فى لا مبالاة ظاهرية ، وكأنهما يتحدثان عن أشخاص آخرين :

ـ إنه منهار الآن ، وينتظر انتقامى منه ، وأفضل ما أفعله به ، هو أن أتجاهله بعض الوقت ، وأتركه يتعذب ، فأنت تعرف المثل الشعبى ، الذى يقول : وقوع البلاء أفضل من انتظاره .

سأله (إبراهيم) :

ـ هل تعتقد أنه يستحق هذا ؟

صمت (حسين) لحظة ، ثم أجاب فى صرامة :

ـ كل من يطمع فى أرض (البنهاوى) يستحق ما هو أكثر من هذا .

استقبل (إبراهيم) الرسالة ، ولكنه أخفاها فى أعماقه ، وهو يقول فى بساطة مدهشة :

من المؤكد أن عودتك ستعيد الكثير من الأمور إلى نصابها .

شرد (حسين) ببصره لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

ـ هذا صحيح .. الكثير من الأمور ستعود إلى نصابها .

وأشار بيده إلى (إبراهيم) ، مستطردًا :

ـ إلى اللقاء مؤقتًا ؛ فلدى بعض العمل فى مكتبى .

قالها ، واتجه إلى مكتبه على الفور ، فتابعه (إبراهيم) ببصره لحظات ، قبل أن يغمغم فى سخرية عجيبة :

ـ نعم يا (حسين) .. عودتك ستغيّر الكثير من الأمور ، و ...

وضاقت عيناه ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ ومن الخطط ..

★ ★ ★

رسمت ناظرة المدرسة ابتسامة كبيرة على شفتيها ، وهى تتجه نحو (مفيد) ، قائلة فى حرارة وحماس :

ـ صباح الخير يا أستاذ (مفيد) .. حمدًا لله على سلامة (حسين) بك .. لقد أسعدنا الخبر للغاية .. حمدًا لله على سلامته .

صافحها (مفيد) بابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ أشكرك يا سيّدتى .. أشكرك كثيرًا .

كتمت (جيهان) ضحكتها ، ثم أطلقتها خافتة ، فور ابتعاد الناظرة ، وهمست فى أذن (مفيد) :

ـ هل رأيت فى حياتك كلها نفاقًا أكثر وضوحًا ؟

ابتسم (مفيد) فى بساطة ، وقال :

ـ لقد أصبحت سمة العصر ، فالناظرة جزء من المجتمع ، وتصرفاتها تعبير عما آل إليه حاله ، بعد أن فقد إرادته ، وحقه فى الاختيار ، وتحوّل إلى ...

قاطعته فى ضجر :

ـ هل ستعود إلى ذلك الحديث الممل عن السياسة ، وتأثيرها فى حياة المواطن البسيط ؟.. أرجوك يا (مفيد) .. لقد سئمت هذا .

التفت إليها ، دون أن تفارقه ابتسامته ، وهو يقول :

ـ فليكن .. لن نناقش السياسة اليوم .

تهلّلت أساريرها ، وهى تقول :

ـ ممتاز .. قل لى إذن : ما رأيك فى فيلم (سعاد حسنى) الجديد ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ لست من متابعى الحركة السينمائية .

هتفت مستنكرة :

ـ كيف ؟!.. ألا تذهب إلى السينما أبدًا ؟!

بدت عليه إمارات التفكير ، وهو يجيب :

ـ بل ذهبت مرتين .. أو ثلاث على الأرجح .

ضحكت وهى تهتف :

ـ مستحيل !.. من أنت يا هذا ؟.. رجل الكهف .. السينما يا بنى هى واحدة من متع العصر ..

ثم سألته فى دلال :

ـ ما رأيك لو ذهبنا لمشاهدة الفيلم الجديد ، فى سينما (أمير) ؟

انتبهت فجأة إلى شروده ، فأدارت عينيها إلى حيث ينظر ، ورأت (سوسن) تعبر ساحة المدرسة فى خطوات واسعة ، وتتحاشى النظر إليهما ، فابتسمت وقالت ضاحكة :

ـ أما زال قلبك يخفق ، كلما رأيتها ؟

أجاب شاردًا :

ـ بلى .

ثم انتفض فجأة ، وتضرَّج وجهه خجلًا ، عندما انتبه إلى عبارته ، واستدرك فى ارتباك :

ـ أعنى أننى .. أنه ..

أطلقت (جيهان) ضحكة عابثة ، وهى تقول :

ـ لا تضطرب هكذا .. يمكننى استيعاب مثل هذه الأمور .

ثم مالت على أذنه ، مستطردة :

ـ وتجاهلها .

التفت إليها فى دهشة ، ووجد نفسه يتطلَّع إلى عينيها مباشرة ، من مسافة لا تزيد عن بضع سنتيمترات ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنين ؟

ارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة ساحرة ، وواصلت تطلّعها إلى عينيه مباشرة ، وتركت أنفاسها تلفح وجهه بعطر أنوثتها الفوّاح ، وهى تجيب فى همس دغدغ حواسه كلها :

ـ أعنى أننى لا أغار .

وفى تلك اللحظة ، نسى (مفيد) أمر (سوسن) ..

بل نسى أمر نفسه شخصيًا ، ولم يعد يملأ ذهنه وعقله وحواسه سوى اسم واحد ..

اسم (جيهان) ..

★ ★ ★

« هل تحبينه ؟!.. »

تسلَّل السؤال إلى أذنى (جيهان) ، من بين شفتى شقيقتها ، وهما ترقدان فوق فراشهما المشترك ، فى الحجرة التى تضمهما مع شقيقتهما الثالثة ، وشقيقتهما الأصغر ، فارتسمت ابتسامة عابثة على شفتى (جيهان) ، وهى تجيب :

ـ وما شأن الحب بهذا ؟

بدت الدهشة على وجه شقيقتها ، وهى تقول :

ـ ألم تقولى أنك تفعلين كل ما يمكنك ؛ لجذبه إليك ؟

هزَّت (جيهان) كتفيها فى استهتار ، وهى تقول :

ـ هذا صحيح ، ولكنه لا يعنى أننى أحبه .. كل ما فى الأمر هو أننى أراه مناسبًا لى .

سألتها شقيقتها بابتسامة كبيرة :

ـ ألأنه وسيم ؟!

تألقت عينا (جيهان) الجميلتين ، وهى تقول :

ـ بل لأنه ثرى .

تراجعت شقيقتها ، هاتفة فى دهشة :

ـ ثرى ؟!

أجابت (جيهان) فى لهفة شديدة :

ـ نعم .. ثرى .. لقد تحريت عن هذا جيدًا ، وسألت (سوسن) نفسها .. إنه واحد من أكبر الأثرياء فى قريته ، وأسرته أكبر أسرة فيها .. أسرة (البنهاوى) بجلال قدرها .

قالت شقيقتها فى دهشة أكبر :

ـ هل اخترته فقط لأنه ثرى ؟!

أجابتها فى حدة :

ـ ألا يبدو لك سببًا كافيًا ؟.. ألم تسأمى بعد تلك الحياة المتقشفة التى نحياها ؟!.. ألم تنتابك الرغبة ، ولو مرة واحدة ، فى شراء شىء ما ، لمجرد أنك ترغبين فى شرائه ، دون أن تقضى يومين كاملين فى مراجعة نفسك ، وميزانيتك ، والتفكير ألف مرة فى حتمية شرائه ؟!.. أنا كرهت كل هذا .. كرهت أن ينبت جمالى فى حديقة الفقر هذه ، التى تذبل فيها زهرة الفتنة نفسها .. الجمال يا شقيقتى العزيزة مثل الزهرة الرقيقة .. فإما أن يرويها المال ، فتترعرع وتبرز فتنتها ، أو تذبل وتنزوى ، وتفقد رائحتها إلى الأبد .

حدقت فيها شقيقتها قائلة :

ـ من وضع فى رأسك هذه الفكرة .

هتفت (جيهان) بسرعة :

ـ الزمن .. الأثواب الثلاثة ، التى نتبادلها بيننا ، ونشكر الله على أنه جعل أجسادنا تصلح لمقياس واحد .. الحذاء اليتيم ، الذى تملكه كل منا ، والذى تقدم بألف شكوى ، من الزمن والدهر والإصابات ، التى ملأت جسمه ونعله وكعبه .. كل هذا وضع فى رأسى فكرة واحدة ، وهى أننى لن أقضى عمرى كله فى هذا الفقر .. لن أفعل هذا أبدًا .

هزت شقيقتها رأسها أسفًا ، قبل أن تقول :

ـ ومن يضمن لك أن (مفيد) هذا سيتقدم لخطبتك ؟

ارتسمت ابتسامة واثقة على شفتى (جيهان) ، وهى تعود للاسترخاء على فراشها ، قائلة :

ـ من هذه الناحية اطمئنى ، فشقيقتك ليست مجرد معلمة بسيطة ، بل هى مدرسة كاملة .. مدرسة لا تفشل أبدًا .

واتسعت ابتسامتها أكثر ..

★ ★ ★

ألقت الأميرة (عايدة) منفضة السجائر بكل قوتها ، وتركتها ترتطم بالجدار فى عنف ، وهى تصرخ فى عصبية شديدة :

ـ لم أعد أحتمل .. لقد سئمت كل هذا .

صاح بها (جان) فى غضب :

ـ رويدك يا أميرتى .. الموقف أعقد من أن يحتمل هذه التعنتات .. ثم إن كل ما أفعله هو أننى أحاول الحفاظ على حياتك .

هتفت فى سخط ، وهى تشعل سيجارتها :

ـ ولكن هذا مستحيل !.. إننى لم أغادر قصرك اللعين هذا منذ أكثر

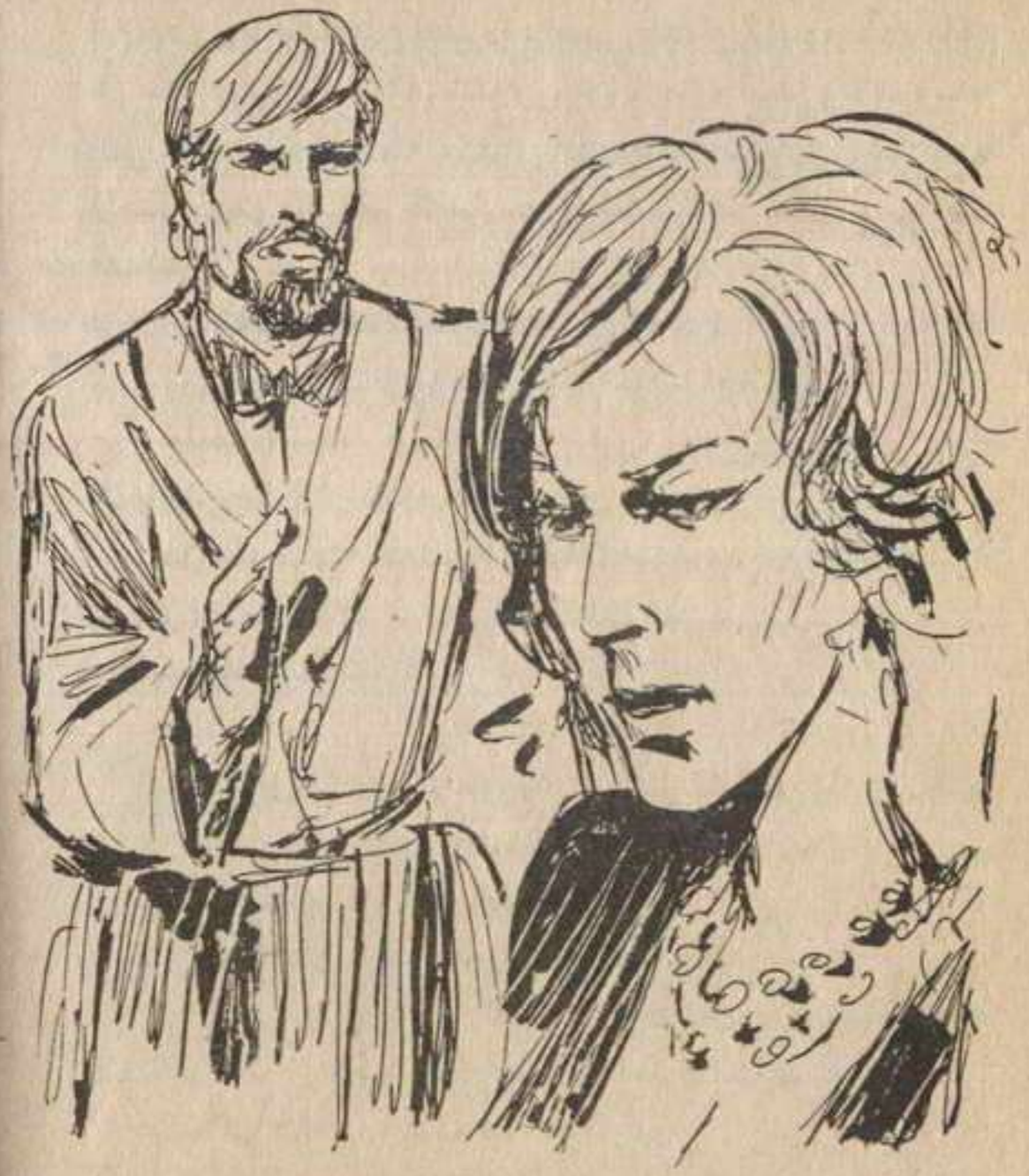

صاح بها (جان) فى غضب :

ـ رويدك يا أميرتى .. الموقف أعقد من أن يحتمل هذه التعنتات ..

من شهرين .. لقد كرهت نفسى .. ما فائدة الحياة ، لو لم نستمتع بكل لحظة فيها ؟

أجابها فى حدة :

ـ ولكننى لم أعزلك عن الحياة يا أميرة الشرق .. إننا نقيم الحفلات هنا أسبوعيًا ، ولكن من العسير فى الوقت الحالى أن تغادرى القصر .. هل نسيت ما حدث ؟!.. هل غاب عن ذاكرتك أنك المسئولة عن كل هذا ؟

صاحت ، وهى تلوّح بذراعها كلها :

ـ كلّا .. لم أنس يا (جان) ، ولكننى أرفض أن أخر ساجدة أمامك ، وأقبّل يديك شكرًا ، كل صباح ومساء .

قال فى دهشة :

ـ ولكننى لم أطلب هذا .

صرخت فى وجهه :

ـ ولا تكف عن تذكيرى بأننى المسئولة عما حدث .

هتف محنقًا :

ـ إنها الحقيقة .. لقد تصرّفت كمراهقة عنيدة ، دون أدنى إحساس بالمسئولية ، وتورّطت فى عالم لا قبل لك أو لى به ، ولولا حسن حظك لقتلتك رصاصاتهم فى اللحظة الأولى .

صرخت :

ـ ولكننى نجوت ، ومن حقى أن أستمتع بالحياة ، وإلا فإننى أفضّل استدعاء هؤلاء القتلة مرة أخرى ، ليخلصونى من سجنى هذا .

رمقها (جان) بنظرة طويلة متوترة ، قبل أن يقول بغتة :

ـ أهذه هى الحقيقة ؟

نفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ ماذا تعنى ؟

أجابها فى حدة :

ـ أعنى هل هذا فقط هو سر عصبيتك ؟

حدّقت فى وجهه لحظة فى غضب ، ثم أشاحت بوجهها ، قائلة فى عصبية أكثر :

ـ وماذا غيره ؟

أجابها دون أن يهتم بمشاعرها :

ـ رحيل (حسين البنهاوى) مثلًا .

اخترقت العبارة أذنيها ، وانطلقت منهما إلى قلبها ، ومزّقته فى عنف ، جعل صوتها يرتجف بين شفتيها الجميلتين ، وهى تقول :

ـ ولماذا يضايقنى هذا ؟

أجابها فى انفعال واضح :

ـ لأن حبيب القلب رحل على الفور ، دون أن يحاول الاطمئنان على سلامتك ، أو حتى إلقاء تحية وداع .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ مازلت تحبينه يا (عايدة) .. أليس كذلك ؟

انتفض قلبها ، وتلوّى ألمًا فى صدرها ، وأرادت أن تصرخ مستنكرة ، وأن تعترض على كل حرف نطق به (جان) ، إلا أن لسانها انعقد فى حلقها ، وعجز تمامًا عن ترديد حرف واحد بين شفتيها ..

ومع تلك الدموع ، التى تجمّعت فى مقلتيها ، واحتبست ساخنة فى عينيها ، لم يكن أمام الأميرة السابقة (عايدة) ، بكل غطرستها وكبريائها وزهوها ، سوى أن تعترف بأنها ـ ولأول مرة فى حياتها ـ تحب ...

تحب (حسين البنهاوى) ..

★ ★ ★

لم يكد (مفيد) يدلف إلى السراى ، فى السابعة مساءً ، حتى استقبله صوت (حسين) ، وهو يسأل فى شىء من الصرامة :

ـ لماذا تأخرت اليوم فى العودة ؟

التفت إليه (مفيد) فى دهشة ، قبل أن يتجه نحوه ، هاتفًا :

ـ (حسين) !.. يالها من مفاجأة !.. لم أتوقع زيارتك لنا اليوم .

أجابه (حسين) ، وهو يصافحه فى هدوء :

ـ إننى أزوركم وقتما يحلو لى ، فالمسافة من (القاهرة) إلى هنا تحتاج إلى ساعة واحدة تقريبًا ، ولكن أخبرنى .. لماذا تأخرت اليوم فى العودة ؟.. إننى أنتظرك منذ ساعتين على الأقل .

تضرّج وجه (مفيد) بشىء من حمرة الخجل ، وهو يغمغم :

ـ ذهبت إلى السينما .

ارتفع حاجبا (حسين) فى دهشة ، وهو يردّد :

ـ السينما ؟!

ارتبك (مفيد) ، وهو يتمتم :

ـ نعم .. ذهبت مع زميلة لى ، و ...

لم يستطع إتمام عبارته ، فابتسم (حسين) ، وهو يقول :

ـ آه .. فهمت .

ثم جذبه من يده ، ودعاه إلى الجلوس ، وهو يقول :

ـ على أية حال .. أنا هنا لمناقشة أمر ما معك .

سأله (مفيد) فى اهتمام :

ـ أى أمر ؟

التفت (حسين) إلى (فاطمة) ، وقال فى صرامة :

ـ اطلبى من (شريفة) الحضور ، واصنعى لنا بعض الشاى .. هيا .

أسرعت (فاطمة) تنصرف لتنفيذ الأمر ، ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى أتت (شريفة) ، وهى تبتسم قائلة :

ـ هل تريدنى يا (حسين) ؟

أشار إليها (حسين) ، قائلًا :

ـ نعم .. اجلسى يا (شريفة) .

جلست إلى جوار (مفيد) ، وتعلّقت عينا كل منهما بشفتى (حسين) ، الذى استرخى فى مقعده ، وتطلّع إليهما لحظة فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ علمت أنه أثناء غيابى ، ظهر (أمجد) ، واتضح أنه لم يمت فى (إسرائيل) .

خفق قلب (شريفة) فى قوة ، عندما بدأ (حسين) الحديث حول (أمجد) ، وارتجف جسدها وهى تستمع إليه يضيف :

ـ وعرفت أيضًا أنه تقدّم لطلب يد (شريفة) ، وأنك وافقت على مطلبه يا (مفيد) .

قال (مفيد) فى بساطة :

ـ إنه شاب مهذب ، ولقد رأيت أنه ...

قاطعه (حسين) بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

ـ لسنا بصدد مناقشة هذا الآن .. كل ما أردت أن أقوله هو أنه فور استقرار الأمور ، ومعرفتى بهذا ، اتصلت بـ (أمجد) ، وطلبت منه مقابلتى فى مكتبى على الفور .

هوى قلب (شريفة) بين قدميها ، وانتفض فى هلع ، وهى تقول فى همس مختنق :

ـ ثم ماذا ؟

انعقد حاجبا (حسين) فى صرامة ، وهو يستطرد :

ـ ثم أبلغته أن يعتبر الأمر وكأنه لم يكن ؛ لأنه لن يتزوّج (شريفة) أبدًا ، مادمت على قيد الحياة ..

وكانت صدمة رهيبة ، و ...

وانهارت (شريفة) ..

انهارت تمامًا .

* * *

١٥ ـ الصفعة ..

اقتحم (عبد الحكيم) مكتب (عمر) فى مصنع النسيج ، وهو يهتف فى ارتياع :

ـ مصيبة .. مصيبة يا (عمر) ..

هبّ (عمر) من مقعده ، وهو يقول متوترًا :

ـ مصيبة ؟!.. أية مصيبة يا رجل ؟.. هل يحترق المصنع ؟!

ألقى (عبد الحكيم) جسده فوق أقرب مقعد إليه ، وهو يلهث فى انفعال ، قائلًا :

ـ بل أسوأ يا رجل .. لقد أعلنت الدولة التأميم .

صاح (عمر) :

ـ ياللنهار الأسود !.. ماذا تقول يا (عبد الحكيم) ؟

أجابه (عبد الحكيم) ، وهو يدفن وجهه بين راحتيه :

ـ أقول أنهم فعلوا ما كنا نخشاه منذ زمن يا (عمر) ، و (رضا العبد) يجرى من مكتب إلى مكتب ، محاولًا تحديد موقفنا من هذا .

سقط (عمر) على مقعده ، وامتقع وجهه لحظات ، قبل أن يقول :

ـ يا رب العالمين !.. إذن فقد بدأت مرحلة الاستيلاء على الأموال .. كان ينبغى أن نتوقع هذا .. لقد نجحوا فى تحديد الملكية الزراعية ، ومن الطبيعى أن يتجهوا بعدها إلى رءوس الأموال .

قال (عبد الحكيم) ، وهو يجفف وجهه بمنديله فى توتر :

ـ المهم هو ما الذى نفعله الآن .. لقد صدرت بعض قرارات

التأميم بالفعل ، وعندما قابلت (رضا) منذ قليل ، أخبرنى أن الحكومة أممت مصانع (نايف عماد) للصابون فى (طنطا) ، ومصنع الكتان ، وفابريقة المياه الغازية ، ولا شك عندى فى أن الدور يتجه إلينا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى دلف (رضا العبد) إلى الحجرة ، شاحب الوجه ، زائغ البصر ، فسأله (عمر) فى لهفة :

ـ ماذا وجدت يا (رضا) ؟.. ماذا حدث !

أجابه (رضا) فى مرارة :

ـ كارثة يا رجل .. إنهم يؤممون كل شىء تقريبًا ، حتى أن صاحب كشك السجائر المواجه للمصنع يخشى أن يؤمموه أيضًا .

امتقع وجه (عمر) أكثر ، وهو يقول :

ـ لا يوجد سوى حل واحد إذن .. دعنا نبيع المصنع كله ، قبل أن يقع فى دائرة التأميم .

ابتسم (رضا) فى مرارة ، وهو يقول :

ـ وهل تصوّرت أننى لم أفكّر فى هذا ؟.. إنك لست الذكى الوحيد يا رجل .. لقد جالت الفكرة بخاطر الجميع ، ولكن لا أحد يجازف بدفع قرش واحد فى مصنع ، قد يتعرّض للتأميم فى اليوم التالى .

هتف (عمر) :

ـ يمكننا أن نعرضه للبيع بأى ثمن ، حتى ولو خسرنا نصف قيمته الفعلية .

هزّ (رضا) رأسه نفيًا فى أسى ، وهو يقول :

ـ حتى هذا أصبح مستحيلًا الآن ..

انهار (عمر) على مقعده ، فى حين راح (عبد الحكيم) يهتف :

ـ ولكن هذا حرام .. حرام أن نخسر كل ما صنعناه بعرقنا

وكفاحنا .. لقد أنشأنا هذا المصنع الصغير بدمائنا وجهدنا ، ثم تأتى الدولة لتستولى عليه هكذا ، بجرة قلم .. هذا حرام .. أكبر حرام .

وضرب (عمر) كفيه ببعضهما ، وهو يقول :

ـ عليه العوض ومنه العوض .. ضاع كل شىء .. ضاع عرق وجهد الأيام والليالى .

رفع (رضا) عينيه إليهما ، وهو يقول :

ـ ربما لم يضع كل شىء بعد .

التفتا إليه فى لهفة ، وسأله (عبد الحكيم) :

ـ هل تعتقد أنه هناك أمل ، فى ألا يخضع مصنعنا للتأميم ؟

نقل (رضا) بصره بينهما ، وهو يقول :

ـ نعم .. هناك أمل واحد فقط .

سأله (عمر) فى لهفة ، كغريق يتعلق بآخر أمل فى النجاة :

ـ وما هو ؟

صمت (رضا) لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ سلطة (حسين) .. (حسين البنهاوى) .

وخفق قلب (عمر) فى عنف ..

★ ★ ★

تحولت وسادة (شريفة) إلى بحر من الدموع ، التى أغرقتها كالمعتاد ، كما تفعل طوال الأشهر الستة الماضية ..

إنها لم تستطع تقبل الأمر قط ، أو الاستسلام لمصيرها ، على الرغم من مرور نصف عام كامل ، على رفض (حسين) لزواجها من (أمجد) للمرة الثانية ..

ومنذ ذلك الحين ، لم تر (شريفة) (أمجد) قط ..

لقد أخبرها (حسين) أنه حذره من الاقتراب من القرية ، وإلا فإنه سيحطم مستقبله تمامًا ..

وهى لم تفهم أبدًا سر هذا الرفض العدوانى من (حسين) ..

لماذا يصرّ على عدم زواجها من (أمجد) ؟!..

لماذا يعتبر الأمر نوعًا من التحدى الشخصى ؟!..

إنها لن تنسى كلماته قط ، وهو يؤكد لها أن (أمجد) ليس بالشخص المناسب لها ، وأنها لن تلبث أن تنسى الأمر كله مع الوقت ..

ولكنها لم تنس ..

لم تنس (أمجد) لحظة واحدة ..

إنها لم تكن تحتمل فراقه ، عندما تصوّرت أنه لقى مصرعه فى قلب (إسرائيل) ، وظلّت ذكراه تملأ قلبها ، طوال ثلاث سنوات كاملة ، فكيف بها الآن ، وهى تعلم أنه حى يرزق ، على مسيرة ساعة واحدة منها ..

إنها تشتاق إليه ..

تشتاق إليه بشدة ..

« .. (شريفة) .. أأنت نائمة ؟!.. »

نطقت (فاطمة) تلك العبارة فى صوت خافت ، أقرب إلى الهمس ، إلا أن خشونتها الطبيعية جعلتها أشبه بحشرجة حاكى قديم ، حتى أن (شريفة) انتفضت فى عنف ، ووثبت من فراشها ، هاتفة فى سخط :

ـ ما هذا ؟!.. كيف تدخلين إلى حجرتى دون استئذان ؟

وضعت (فاطمة) سبّابتها على شفتيها محذرة ، وهى تقول :

ـ لا ترفعى صوتك ، حتى لا نوقظ (مفيد) .

شعرت (شريفة) بالدهشة ، لذلك الأسلوب الذى تستخدمه (فاطمة) ، ولكنها خفضت صوتها بدورها ، وهى تسألها :

ـ لماذا ؟.. ماذا هناك ؟

همست (فاطمة) :

ـ الحقى بى فى الطابق السفلى .. عند الحديقة الخلفية .

قالتها وغادرت الحجرة فى سرعة ، و (شريفة) تهتف خلفها :

ـ لماذا ؟.. لماذا ؟

وعلى الرغم من ارتباكها وتوترها ، إلا أنها أسرعت ترتدى ملابسها ، ولحقت بها عند الحديقة الخلفية ، وسألتها فى حدة :

ـ لماذا أتيت بى إلى هنا ؟

ابتسمت (فاطمة) فى خبث ، وهى تقول :

ـ الأستاذ طلب منى هذا ؟

استدارت (شريفة) إلى حيث تشير (فاطمة) ، ثم شهقت هاتفة :

ـ (أمجد) .

خفق قلبها فى عنف ، وهى تهتف باسمه ، واندفعت خطوة إلى الأمام ، وكأنها ستلقى نفسها بين ذراعيه ، إلا أنها سيطرت على مشاعرها فى اللحظة الأخيرة ، فاتسعت ابتسامة (فاطمة) الساخرة ، وهى تقول :

ـ سأعود بعد ربع الساعة .

كان تصرفًا عجيبًا وغير مألوف ، من شخصية مثل (فاطمة) ، ولكن (شريفة) لم تضع هذا فى اعتبارها ، أو لم تفكر فيه قط ، وهى تملأ عينيها بوجه (أمجد) ، الذى بدا لها مختلفًا للغاية ..

لم يعد هو (أمجد) نفسه ، الذى رأته منذ ستة أشهر تقريبًا ، فى آخر زيارة رسمية للسراى ..

لقد فقد الكثير من وزنه ، وبدا أكثر شحوبًا وتوترًا ، ولكن عيناه ظلتا تحملان ذلك الحب الواضح ، الذى مسح به وجه (شريفة) فى دقيقة صامتة ، قبل أن يهمس :

ـ أوحشتنى كثيرًا .

ارتجف لسانها بين شفتيها ، وهى تهمس بدورها :

ـ أنت أكثر .

ران عليها الصمت لحظات ، وكل منهما يملأ عينيه وقلبه بمرأى الآخر ، ثم همست هى فى قلق :

ـ كيف أتيت إلى هنا ؟.. لقد أخبرنى (حسين) أنه حذرك من هذا !

هزّ رأسه فى تصميم ، قبل أن يجيب :

ـ لم أعد أحتمل .. كنت مصرًا على رؤيتك والتحدث إليك ، حتى ولو كان الثمن هو حياتى نفسها .

اختلج قلبها لسماع العبارة ، وشعرت أنها تحبه ألف مرة أكثر من ذى قبل ، فاقتربت منه خطوة ، وهى تتمنى أن يختطفها إلى صدره ، ولكنه كان يتحدث فى جدية شديدة ، وهو يكمل قائلًا :

ـ ولقد درست الأمر كله ، وقتلته بحثًا وتفكيرًا ، ولم أجد أمامنا ، إزاء إصرار (حسين) بك وتعنته وعناده ، سوى حل واحد .

سألته بأنفاس مبهورة :

ـ وما هو ؟

طال صمته هذه المرة ، وهو يتطلع إلى عينيها مباشرة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ أن نتزوج .. سرًا .

وخفق قلبها مرة أخرى فى عنف ..

★ ★ ★

ارتبك صوت (حافظ) الخافت، وهو يقول لزوجته فى تخاذل خجل:

ـ على من تتنصتين يا (فاطمة)؟

أجابته (فاطمة)، وهى تختلس النظر والسمع إلى ما يحدث فى الحديقة الخلفية للسراى، عبر فرجات الشيش:

ـ على أختك المصون، وهى فى لقائها مع رجل غريب.

انتفض جسده فى ارتياع، وهو يهتف:

ـ مع من ؟!

لوّحت (فاطمة) بيدها فى غلظة، وهى تقول:

ـ ليس رجلًا غريبًا بالمعنى المفهوم.. إنه خطيبها السابق (أمجد)، الذى منعه (حسين) من القدوم إلى هنا.

قال (حافظ) فى دهشة:

ـ كيف جرؤ على الحضور إذن ؟

التفتت إليه فى حدة، ثم مصمصت شفتيها، قائلة:

ـ أتصوّرت أن كل الناس ضعفاء مثلك.

خفض عينيه فى هوان، وهو يتمتم:

ـ أنا.. أنا ضعيف يا (فاطمة).

هتفت فى سخرية:

ـ بل أنا الضعيفة يا سيّد البنهاوية.. أنا التى يجور الجميع على حقوقى، وأنا الـ...

قضمت عبارتها بغتة، وانخلع قلبها لمرأى خط الدموع، الذى يسيل على خد (حافظ)، فهرولت إليه، هاتفة فى ألم:

ـ فليقطع لسانى ألف مرة.. سامحنى يا (حافظ).

احتضنته فى حنان عجيب، وكأنها تضمّ إليها فلذة كبدها، وتركت رأسه يستريح على صدرها، الذى مسح دموعه، ويدها تربّت على شعره، مستطردة:

ـ سامحنى يا أغلى زوج فى الدنيا.. أنا المجرمة، التى تستحق قطع لسانها.. سامحنى على ما قلت.

بكى (حافظ) فى صمت، وارتجّ رأسه على صدرها، فمزّق نياط قلبها أكثر وأكثر..

إنها تحبه..

على الرغم من ضعفه وتخاذله، تحبه..

وفى حنان، همست فى أذنه:

ـ كفى.. قل إنك سامحتنى، وإلا فلن أغفر لنفسى قط.

همس بصوت باك:

ـ إننى أسامحك دائمًا يا (فاطمة).

اختلج قلبها مع همسه، وضمّته إلى صدرها أكثر وأكثر، وانحنت لتطبع قبلة على رأسه، عندما تناهى إلى مسامعها وقع أقدام، تتحرّك فى ردهة السراى، فانتزعت نفسها من (حافظ)، وهى تهتف:

ـ إنه (مفيد).. يا للمصيبة !.. سيلمح (شريفة) و (أمجد) فى الحديقة الخلفية.. سأذهب لتحذيرهما بسرعة.

تركت (حافظ) فى لهفة قلقة، واندفعت إلى خارج الحجرة، و...

وتسمّرت فى مكانها فى رعب هائل..

فذلك الذى سمعت وقع قدميه فى الردهة، لم يكن (مفيد)..

لقد كان (حسين)..

(حسين البنهاوى)..

★ ★ ★

لطمت (شريفة) خديها فى رعب، عندما أبلغتها (فاطمة) الأمر، وهتفت فى ارتياع، وهى تحدق فى وجه (أمجد) المرتبك:

ـ يا للمصيبة !.. يالليلة السوداء !!.. (حسين) هنا ؟!.. يا لحظى الأسود .. ما الذى أتى به الليلة، وفى هذا الوقت المتأخر ؟!

أجابتها (فاطمة) بسرعة:

ـ ليس هذا وقت إلقاء الأسئلة .. لقد رأيته دون أن يرانى، فهرعت لأحذرك على الفور .. أسرع يا (أمجد) بك بالانصراف، قبل أن ينتبه إلى وجودك.

سأل (أمجد) (شريفة):

ـ متى أراك ثانية ؟

لوّحت بكفيها، وهى تقول مذعورة:

ـ ليس هذا وقت الاتفاق .. اذهب الآن، وسنتفق على كل شىء فيما بعد .. اذهب بالله عليك .. اذهب ..

أسرع (أمجد) إلى سور الحديقة الخلفى، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها صوت (حسين)، وهو يهتف:

ـ (شريفة) .. (مفيد) .. (فاطمة) .. ألا يوجد أحد هنا.

أسرعت إليه (شريفة) بوجهها الشاحب المتوتر، وهتفت فى فرح مصطنع:

ـ (حسين) .. يا لها من مفاجأة !

انعقد حاجباه، وهو يتطلّع إلى وجهها، قبل أن يسألها فى صرامة:

ـ ماذا حدث ؟.. لماذا تبدين شاحبة هكذا ؟.. ثم ماذا كنت تفعلين فى الحديقة الخلفية ؟!

امتقع وجهها أكثر، واحتبست الكلمات فى حلقها، وأطلّت من عينيها نظرة ارتياع، كانت تفضح أمرها، لولا أن أسرعت (فاطمة) تقول:

ـ إنها ليلة ليلاء يا (حسين) بك .. لقد تسلّل ثعلب صغير إلى حظيرة الدجاج، فى الحديقة الخلفية، واختطف دجاجتين، وأصاب الأخريات بالذعر، فانطلقن فى الحديقة، ولولا أن ساعدتنى (شريفة) فى جمعها، لأضعت الليل كله، قبل أن أنجح فى هذا.

هتفت (شريفة):

ـ نعم .. هذا ما حدث.

أطلّ الشكّ من عينيه لحظة، ثم توارى عنهما فى سرعة، وهو يقول:

ـ حسن .. أعدّى لى قدحًا من الشاى يا (شريفة)، فلقد حضرت مبكرًا، قبل موعدى مع (عمر) و (عبد الحكيم).

قالت فى دهشة:

ـ ألديهما موعد معك هنا ؟

هزّ كتفيه، وقال:

ـ لقد اتصلا بى فى شقتى فى (القاهرة)، وقالا: إنهما يريدان مقابلتى لأمر هام وعاجل، فوجدتها فرصة مناسبة لزيارتكم، وطلبت منهما مقابلتى هنا فى السراى.

خفق قلبها، وهى تقول:

ـ خيرًا فعلت .. سأعدّ لك الشاى فورًا.

هتفت (فاطمة) فى حماس:

ـ دعيه لى .. سأعدّه أنا.

صاح بها (حسين) فى صرامة :
ـ كلّا .. اتركى (شريفة) تعدّه ، فأنا أريده نظيفًا .
احتقن وجه (فاطمة) ، وتصاعد داخلها الشعور بالمهانة ، وأسرعت (شريفة) تقول :
ـ بالطبع .. بالطبع .. تعالى لتساعدينني يا (فاطمة) .
ثم همست فى أذنها ، وهى تجذبها معها إلى المطبخ :
ـ أشكرك يا (فاطمة) .. أشكرك كثيرًا .
غمغمت (فاطمة) بأسلوبها السوقى ، وخشونة ألفاظها المعهودة :
ـ المهم أن يُجدى هذا .
وما أن اختفيتا داخل المطبخ ، حتى ظهر (مفيد) ، وهو يهبط من الطابق الثانى ، هاتفًا بابتسامته التلقائية البسيطة :
ـ (حسين) ؟!.. أهلًا يا (حسين) .. مرحبًا بك .. يالها من مفاجأة !
صافحه (حسين) فى لا مبالاة ، وهو يسأله :
ـ مفاجأة !.. ألم يخبرك (عمر) و (عبد الحكيم) ، أننى سأقابلهما هنا الليلة !؟
أجابه (مفيد) :
ـ كلّا .. لم يفعلا .. لقد عدت متأخرًا ، ولم تكن هناك فرصة لألتقى بهما .
ابتسم (حسين) ، وهو يسأله :
ـ أهى السينما مرة أخرى ؟
تضرّج وجه (مفيد) بحمرة الخجل ، وهو يغمغم :
ـ نعم .. إنها هى .

جلسا على مقعدين متجاورين ، وتراجع (حسين) فى بطء ، وهو يتطلّع إلى (مفيد) فى صمت ، دام عدة ثوان ، قبل أن يسأله :
ـ أهى جميلة ؟
هرب (مفيد) بعينيه من مواجهته ، وهو يقول :
ـ السينما ؟!
أطلق (حسين) ضحكة قصيرة ، ثم مال نحوه ، وهمس فى أذنه :
ـ بل رفيقة السينما .
تضاعفت حمرة الخجل فى وجه (مفيد) ، فعاد (حسين) يتراجع ، وهو يبتسم قائلًا :
ـ عجبًا !.. أراهن أنك أكثر حياءً منها .
اندفع (مفيد) يقول فجأة :
ـ اسمها (جيهان) ، وهى زميلتى فى المدرسة ، و ...
قاطعه (حسين) ضاحكًا :
ـ هذا يكفينى .. لقد سئمت جمع المعلومات .
ثم مال نحوه ثانية ، مضيفًا بغمزة ضاحكة :
ـ المهم أنها تروق لك .
تطلّع إليه (مفيد) فى دهشة ، وقد أثارت تلك البساطة ، التى يعالج بها الأمر حيرته ، وهو الذى اعتاد ميل (حسين) إلى تعقيد أبسط الأمور ، ولكنه لم يشأ مناقشة هذا الأمر معه ، فنقل دفة الحديث بسرعة ، وهو يقول :
ـ قل لى يا (حسين) : ما هذه التأميمات ، التى يتحدثون عنها ؟
هزّ (حسين) كتفيه ، وهو يجيب :
ـ إنها سياسة جديدة ، تنتهجها الدولة ، لمنع الاحتكارات ، والسيطرة على غلاء الأسعار .

سأله (مفيد) :

ـ وهل تعتقد أن انتزاع الملكيات بدون وجه حق ، سيحقق للدولة التوازن الاقتصادى الذى تنشده ؟!.. أليس الأفضل أن تبذل الدولة قصارى جهدها ، لتخفيض الإنفاق أو ترشيده .

عقد (حسين) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ لا شأن لى أو لك بسياسات الدولة أو قراراتها .

هتف (مفيد) ، فى شىء من الحدّة :

ـ من قال هذا ؟.. كل مواطن فى (مصر) له شأن بالسياسة أو القرارات ، التى تتخذها الدولة .. كل مواطن يدفع ثمن أى قرار عشوائى غير مدروس .

بدا الغضب على وجه (حسين) ، وهو يقول :

ـ لن نناقش هذا الآن .

واصل (مفيد) ، وكأنه لم يسمع اعتراض (حسين) :

ـ الدولة تتخذ قرارًا بالتأميم ، فيتحوّل مواطنون فجأة من أصحاب مؤسسات وشركات إلى عاطلين وضائعين ، وتهتز الثقة فى اقتصاد البلد ، فتنخفض قيمة عملتها ، وتقل قدرتها الشرائية ، ويتأثر بهذا كل المواطنين ، ثم تقول لى : إنه لا شأن لنا بسياسات أو قرارات الدولة !؟

قال (حسين) فى حدة :

ـ اصمت يا (مفيد) .

ومرة أخرى تجاهل (مفيد) القول ، وتابع فى حدة أكثر :

ـ ثم لماذا تؤمم الدولة المصانع والشركات ؟.. لماذا لا ترفع الضرائب على أصحابها مثلًا ، وتتركهم يديرونها ؟.. ولماذا لا ...

وفجأة أخرسته صفعة قوية ، رنّت فى البهو كله ..

صفعة أعقبها صوت (حسين) ، وهو يصرخ ثائرًا :

ـ قلت : اصمت .. ألا تفهم أبدًا .

واحتقن وجه (مفيد) فى شدة ، وبدا من الواضح أنه سينقضّ على (حسين) ، وسيشتبك معه فى معركة عنيفة ، و ... وخطيرة ..

* * *

١٦ ـ شـركاء ..

، يا للسخافة !.. ،

هتفت الأميرة (عايدة) بالكلمة فى سخط عنيف ، جعل صديقها (جان) يسألها فى ضجر :

ـ ماذا هناك هذه المرة ؟!..

أجابته فى عصبية :

ـ ذلك الحقير (حسين البنهاوى) .. إنه يتجاهلنى تمامًا .. تصوَّر أننى أرسلت إليه ثلاث برقيات حتى الآن ، أطلب منه فيها الحضور إلى (باريس) دون أن أتلقَّى منه ردًا واحدًا .

ابتسم (جان) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ ماذا تنتظرين من شخص ، كدت تدمرينه بعبثك الأهوج ، وعدم تقديرك للمسئولية ؟

قالت فى حدة :

ـ كنت ألقنه درسًا فحسب .

قال فى غضب :

ـ حقًا ؟!.. ومتى كنت تتوقعين أن ينتهى الدرس ؟.. عندما يوضع عنقه تحت المقصلة ؟!

قالت محتدة :

ـ لا توجد مقصلة عندنا فى (مصر) .. ثم إننى لن أضيع عمرى فى سماع تأنيبكم هذا لى .

زفر فى ضجر ، وأشاح بوجهه عنها دون تعليق ، وتركها تتفث حمم غضبها مع أنفاسها المتلاحقة ، وتتحدَّث إلى نفسها بصوت عال ، قائلة :

ـ المفترض أن يتجاوز الموقف ، ما دام كل شىء قد انتهى على خير .. من الضرورى أن يدرك أننى فعلت كل هذا لأننى أحبه .

غمغم (جان) فى سخرية عصبية :

ـ هذا يذكرنى بقصة الرجل ، الذى قتله دبه ، من شدة حبه له .

التفتت إليه فى حدة ، قائلة :

ـ كف عن تعليقاتك السخيفة هذه .

قال فى غضب :

ـ إننى داخل قصرى ، ومن حقى أن أفعل كل ما يروق لى فيه .

صرخت :

ـ هل تطردنى يا (جان) ؟

ضرب كفًا بكف ، وهو يقول :

ـ هل سمعتنى أقول هذا ؟

كانت كعادتها ، تقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ، وتقفز من ساحة قتال ، تخشى الهزيمة فيها ، إلى حلبة جديدة ، تضع هى قواعدها وقوانينها ..

وبأسلوب أنثوى خبيث ، وبدقة مدروسة ، أطلقت لدموعها العنان ، هاتفة :

ـ ليس هكذا تعامل أميرة سابقة .

ثم انفجرت باكية ، وراحت تنتحب فى صوت مسموع ، فزفر

(جان) فى توتر ، وتراجع عن ثورته ، شأن أى سيِّد مهذب ، فى مثل هذه الظروف ، وربَّت على كتفها فى رقة ، قائلًا :

ـ إننى أعتذر .. لم أكن أقصد هذا .

ارتسمت فى أعماقها ابتسامة ظافرة كبيرة ، ولكنها واصلت دموعها لحظات أخرى ، ثم تركتها تجف بسرعة ، وهى تقول فى صوت أحسنت تهدّجه :

ـ لا بأس .. لا بأس .

ثم سألته فى اهتمام مباغت ، وكأن انفعالاتها كلها قد تلاشت دفعة واحدة :

ـ قل لى : أما زلت ترتبط بصلة صداقة ، مع هؤلاء السينمائيين ؟

بدا له السؤال عجيبًا ، لا صلة له بحديثهما ، فأجاب فى دهشة حائرة :

ـ بلى .. ماذا تريدين منهم ؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة ، وهى تشير بسبَّابتها وإبهامها ، قائلة :

ـ خدمة بسيطة .

أدرك لحظتها فقط أن (عايدة) لم تتعلَّم من الدرس ، ولم تستوعب أخطاء المرة السابقة ، ومازالت تخطِّط للعبة جديدة ..

لعبة شيطانية ..

★ ★ ★

للوهلة الأولى ، ومع ذلك المزيج الذى تفجَّر فى أعماقه ، من الغضب والمهانة ، تحرَّك (مفيد) فى عنف ، وكأنه سينقضّ على (حسين) ، ويردّ إليه صفعته ..

ولكن فى نفس اللحظة ، وصلت (شريفة) ، حاملة قدح الشاى ، وما أن رأت نظرة الغضب ، المطلة من عين شقيقها ، حتى أطلقت شهقة قوية ، أطاحت بكل ما كان يندفع إليه (مفيد) ، فتسمَّر فى مكانه ، وأدهشه أنه فكَّر ، ولو لحظة واحدة ، فى رد الصفعة لشقيقه الأكبر ، فتصاعدت مشاعره كلها إلى رأسه ، وتفجَّرت فى عينيه ، اللتين أغرورقتا بالدموع ، التى تجاهلها (حسين) تمامًا ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ إياك أن تعارض سياسات الدولة فى هذا السراى .

اختنق (مفيد) بكلماته ، وهو يقول فى حدة :

ـ هذا أبسط حقوق المواطن ، فى أى بلد حر .. أن ينتقد سياسة بلده ، بدافع حب الوطن ، والغيرة على مصالحه .

لوَّح (حسين) بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـ كلام نظرى بحت .. لو أنك استخدمت حقك المزعوم هذا ، فقد يؤدى هذا إلى نتائج وخيمة .. ليس بالنسبة لمستقبلى فحسب ، ولكن بالنسبة لمستقبل عائلة (البنهاوى) كلها .

قال (مفيد) ، وقد جنَّد كل مشاعره وانفعالاته للتصدّى لشقيقه :

ـ ولكننى لم أعلن رأيى هذا فى ندوة عامة ، ولا فى مؤتمر شعبى .. إننى أقول رأيى بكل حرية ، فى المكان الذى أقيم فيه .

صاح (حسين) :

ـ ولو .. الجدران لها آذان كما يقولون .

قال (مفيد) فى عناد وتحد :

ـ جدران سراى (البنهاوى) كلها صمَّاء ، ولا أحد يمكنه معرفة ما يدور خلفها .

ابتسم (حسين) فى سخرية عصبية ، وهو يقول :

ـ أهذا ما تظنه أيها العبقرى ؟!.. سلنى أنا عن معرفة ما يدور خلف الأبواب المغلقة .. لم تعد هناك موانع فى هذا العصر يا نكى .. لقد علّمنا عملنا كيف يمكننا التجسّس على رئيس الجمهورية نفسه لو أردنا .. إننا نسمع دبيب النمل ، ولدينا تسجيلات لكل مسئول فى (مصر) ، وكل شخص يشتبه فى معارضته للنظام .

اتسعت عينا (مفيد) فى ارتياع ، وهو يقول :

ـ ربّاه !.. أهذا ما آل إليه الأمر فى (مصر) ؟!.. هل أصبحتم مجرّد أداة ضخمة لهتك ستر الجميع ؟!.. أفى هذا المجال وحده تبرزون قوتكم .

هتف (حسين) فى حدة :

ـ هذا المجال بالغ الأهمية ، لكل كيان ناشئ جديد .. ثم إنه ليس كل عملنا ، فنحن نحمى هذا الوطن ، فى الداخل والخارج ، ويومًا ما سيسمحون بنشر بعض أعمالنا ، وسيعلم الجميع كم من الأبطال يعملون باسم (مصر) ولمصلحتها فى صمت .

قال (مفيد) فى مرارة :

ـ ولكنكم تفسدون عملهم بتجاوزات لا مبرّر لها .

لوّح (حسين) بذراعه ، قائلًا :

ـ أنت لا تفهم شيئًا .. لا تفهم شيئًا على الإطلاق .

ومع آخر حروف عبارته الأخيرة ، تنحنح (عبد الحكيم) عند الباب ، وقال :

ـ معذرة .. هل نقاطع حديثًا هامًا ؟

التفت (حسين) فى حسم ، ليواجه (عمر) و(عبد الحكيم)

و (رضا العبد) ، الذين قادتهم (شريفة) إلى حجرة الاستقبال ، وقال :

ـ مطلقًا .. إنها بعض الفلسفة السياسية ، التى يثرثر بها شقيقى الأصغر ، بين الحين والحين ، دون أن يفهم مضمونها جيدًا .

ثم التفت إلى (مفيد) فى صرامة ، مستطردًا :

ـ ثم إنه سيصعد إلى حجرته على الفور ، فقد حان موعد نومه .

احتقن وجه (مفيد) فى شدة ، وعاوده شعوره بالغضب والمرارة ، وخُيّل إليه أن الدموع ستنفجر من عينيه ، فاستدار دون أن يصافح الضيوف ، واندفع إلى حجرته ، وهم يتابعونه فى إشفاق ، حتى قال (حسين) بصوته القوى ، ولهجته الآمرة التقليدية :

ـ تفضلوا بالجلوس .

جلس الثلاثة أمامه فى ارتباك ، واسترخى هو فى مقعده ، وهو يرمق (عمر) بنظرة ظافرة ، قبل أن يقول :

ـ أخيرًا دخلت السراى ، وأنا على قيد الحياة يا (عمر) .

مطّ (عمر) شفتيه ، وانعقد حاجباه لحظة ، ثم غمغم فى حنق :

ـ أبقاك الله لنا يا (حسين) بك .

ابتسم (حسين) مزهوًا ، وأدار عينيه إلى (رضا) ، قائلًا :

ـ أنت إذن (رضا العبد) .. ابن (على العبد) ، شريك زوجى شقيقتىْ فى مصنع الغزل والنسيج فى المحلة .. أعتقد أنك متزوّج من ابنة الحاج (مرسى) ، ولك منها ولد وبنتان ، وتقيم فى ... آه .. لا داعى لكشف كل ما لدى دفعة واحدة .. فلنؤجّل الباقى لحين الحاجة إليه .

شحب وجه (رضا) ، وازدرد لعابه فى صعوبة ، ونجحت مناورة (حسين) فى التأثير على ثقته ومعنوياته ، وهو يغمغم :

ـ أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك .

استرخى (حسين) فى مقعده أكثر ، ودار بعينيه الظافرتين فى وجوه الثلاثة ، قبل أن يقول :

ـ حسن .. ما الذى كنتم تريدوننى بشأنه ؟

تبادلوا نظرة قلقة ، قبل أن يقول (عبد الحكيم) :

ـ نحن هنا طمعًا فى كرمك يا (حسين) بك .

سأله (حسين) فى برود :

ـ بشأن ماذا ؟!

ازدرد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يجيب :

ـ بشأن التأميمات .

انعقد حاجبا (حسين) ، وهو يردد :

ـ التأميمات ؟

وفجأة ، اندفع (رضا) يقول :

ـ سأشرح لك الأمر بكل صراحة يا (حسين) بك .. لقد بلغتنا أخبار حملة التأميمات ، التى تنتشر بسرعة فى (مصر) ، ولقد أخبرنى أحد أصدقائى ، أن الرئيس (جمال عبد الناصر) قال بنفسه : إنه لو اضطره الأمر لتأميم المحال التجارية الصغيرة ، فلن يتردد عن فعل هذا ، وثلاثتنا ندرك أن مصنعنا سيخضع ، إن عاجلًا أو آجلًا للتأميم .

اعتدل (حسين) ، وراح عقله يعمل فى سرعة ، وهو يسأل :

ـ وما المطلوب منى إذن ؟

ارتسمت ابتسامة مضطربة على شفتى (رضا) ، وهو يقول :

ـ المطلوب من سعادتك أن تستخدم شيئًا من سلطاتك ، لمنع السادة زملائك من تأميم مصنعنا ، الذى أنفقنا على إنشائه مدخرات عمرنا كله .. ستنخرب بيوتنا لو أمموه يا (حسين) بك .. أرجوك .

شعر (عمر) بغصة فى حلقه ، مع توسلات (رضا) واستعطافه ، ولكنه لم يتدخل ، أو يحاول منعه ، وإنما اكتفى بالإشاحة بوجهه بعيدًا ، فى نفس الوقت الذى كان فيه عقل (حسين) يعمل بسرعة الصاروخ ..

إنه يعرف الكثير عن التأميمات وقوانينها ، وقواعدها التى وضعها الرئيس (جمال) بنفسه ، ويدرك جيدًا أنها لن تمتد إلى مثل هذه المصانع الصغيرة على الأرجح ..

ولكن هؤلاء الثلاثة يجهلون هذا ..

يجهلونه إلى الحد الذى يمنحه امتيازًا ضخمًا فى تعامله معهم .. امتيازًا ، ينبغى له أن يحسن استغلاله ..

وإلى أقصى حد ..

وفى هدوء ظاهرى ، يتنافى مع البركان الثائر فى أعماقه ، شبك (حسين) أصابع كفيه أمام وجهه ، وقال :

ـ التأميم قرار سياسى ، ومن الطبيعى أن يمتد إلى كل المصانع والمنشآت .

هوت قلوبهم بين أقدامهم ، ولهث (عبد الحكيم) فى انفعال ، فى حين أطلق (رضا) شهقة مذعورة ، فاستدرك (حسين) فى سرعة :

ـ إلا إذا ..

وثبت قلوبهم إلى موضعها ، مع ذلك الاستدراك ، وسأله (عبد الحكيم) فى لهفة :

- إلا إذا ماذا ؟

جال (حسين) ببصره فى وجوههم فى بطء متعمّد ، وطال صمته ، حتى يدفع أكبر قدر من التأثر فى عروقهم ، قبل أن يجيب :

- إلا إذا كان أحد الشركاء من ذوى النفوذ .

انعقد حاجبا (عمر) فى شدة ، وأفلتت من عينيه نظرة غضب وبغض ، وارتسمت الحيرة على وجه (عبد الحكيم) ، فى حين سأل (رضا العبد) مرتبكًا :

- ماذا تعنى يا (حسين) بك ؟

أجابه (حسين) ، وهو يسترخى فى مقعده ، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، فى استهتار واضح :

- أعنى أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مصنعكم من التأميم ، هو أن أصبح شريكًا لكم فيه .

تفجّر غضب الدنيا فى أعماق (عمر) ، فاندفع يقول فى حدة :

- إذن فهذا هو الثمن !

أما (رضا) و (عبد الحكيم) ، فقد شحب وجهاهما فى شدة ، وتمتم الأخير :

- ألا يوجد حل آخر يا (حسين) بك ؟

هزّ (حسين) رأسه نفيًا فى بطء ، قبل أن يقول فى صرامة :

- هذا هو الحل الوحيد .

ازداد شحوب وجه (رضا) ، ودفنه بين كفيه ، فى حين همهم (عمر) بكلمات غير مفهومة ، وقال (عبد الحكيم) :

- هل يمكنك أن تمنحنا مهلة للتفكير ؟

أجابه (حسين) فى لا مبالاة :

- خذ كل الوقت الذى تحتاجه ، ولكن حذار أن يطول تفكيرك ، فمنع تأميم المصنع أسهل بكثير من إلغاء قرار تأميمه .

تبادل الشركاء الثلاثة نظرات محبطة يائسة ، قبل أن يغمغم (عمر) :

- ليس أمامنا سوى الموافقة ، فخسارة ربع الأرباح ، أفضل من خسارة المصنع كله .

رفع (حسين) سبّابته ، وهو يقول :

- لحظة يا سادة .. من الواضح أنه هناك سوء فهم ينبغى توضيحه ، قبل أن تتخذوا قراركم ، فأنا لن أصبح شريكًا بالربع .

اضطربت ملامحهم ، و (رضا) يسأله فى حذر :

- كم تطلب إذن ؟

استنشق (حسين) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى حزم :

- النصف .. نصف المصنع .

وهوت قلوبهم مرة أخرى بين أقدامهم ..

* * *

١٧ ـ وأطبق الفخ ..

تسللت (جيهان) على أطراف أصابعها ، من خلف (مفيد) ، حتى أصبحت على مسافة ربع المتر منه ، فمالت على أذنه ، وهمست :

ـ حذر .. من أنا ؟!

انتفض لحظة ، قبل أن يلتفت إليها ، ويبتسم فى بساطة ، قائلًا :

ـ صباح الخير يا (جيهان) .

سألته ضاحكة :

ـ هل أفزعتك ؟

أجابها ولهجته تحمل نبرة ضيق خفية :

ـ كلًا .. لقد أخرجتنى من شرودى فحسب .

سألته فى اهتمام :

ـ فيم كنت تفكر ؟

صمت لحظة ، وهو يسرح ببصره بعيدًا ، قبل أن يقول :

ـ فى أشياء كثيرة .

تطلعت إليه فى تساؤل ، ثم قالت :

ـ أعتقد أنها ليست بالأشياء السارة .

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح .

تحركت عمدًا ، لتلصق شيئًا من جسدها بجسده ، وتهمس فى أذنه مباشرة :

ـ هل ترغب فى أن تروى لى شيئًا منها ؟

تنهد فى عمق ، وقال :

ـ بالتأكيد يا (جيهان) ، وربما يزيح هذا شيئًا من الحزن عن قلبى .

وراح يروى لها ما حدث بين (حسين) وزوجى شقيقتيه منذ أسبوعين كاملين ، وانتهى من قصته ، قائلًا :

ـ وفى النهاية ، وبعد أن انهار (رضا العبد) ، وكاد يصاب بأزمة قلبية ، ومع توسلات (عمر) و (عبد الحكيم) ، وافق (حسين) على أن يحصل على ثلث المصنع ، مقابل منع قرار تأميمه .. أو التوسط لفعل هذا بمعنى أدق .

كان يتوقع منها تأزرًا أو تعاطفًا ، ولكنه فوجئ بها تقول فى حماس :

ـ رائع .

ـ رائع .

ردد فى دهشة بالغة :

ـ رائع ؟!.. وما الروعة فى هذا ؟

أجابته فى حماس :

ـ لقد أحسن شقيقك (حسين) استغلال الموقف كله لصالحه ، وفى الوقت نفسه منحهم الأمان الذى ينشدونه ، وفى رأيى أنها صفقة عادلة .. ثلث المصنع مقابل عدم تأميمه .. ولو أردت رأيى ، فهم الرابحون فى النهاية .

قال مستنكرًا :

ـ الرابحون ؟!.. وكيف هذا بالله عليك ؟.. لقد خسروا ثلث مشروعهم ، دون ذنب جنوه !!

قالت بنفس الحماس :

ـ كان من الممكن أن يخسروه كله .

هزّ رأسه نفيًا فى قوة ، وقال :

ـ خطأ .. لقد خدعهم (حسين) فى الواقع ، فبعد توقيع عقود المشاركة الجديدة، وبعد أن أصبح يمتلك ثلث المصنع بالفعل، اكتشف الثلاثة أن الدولة لا تفكّر فى تأميم المصانع الصغيرة مثل مصنعهم ، وأن كل رفاقهم ، الذين يمتلكون مصانع مماثلة ، لم يتعرّضوا لذلك .

ضحكت فى جذل ، قبل أن تقول :

ـ وهذا يثبت أن شقيقك هذا عبقرى .

أجابها فى حدة :

ـ بل يثبت أنه مخادع .

تطلّعت إليه لحظة ، وقالت :

ـ لماذا يحنقك هذا ؟.. إنه أمر بينه وبينهم .

قال فى مرارة :

ـ بل هو أمر يمس شرف وكرامة عائلة (البنهاوى) كلها .

قالت فى دهشة :

ـ لماذا ؟.. شقيقك (حسين) شخص مستقل بذاته ، وهو يحيا فى (القاهرة) كما أخبرتنى ، ويعمل لصالح أسرته .. أعنى زوجته وأولاده ، و ...

قاطعها فى ضيق :

(حسين) لم يتزوّج بعد :

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تهتف :

ـ عجبًا !!.. ولماذا لم يفعل ؟.. إنه فى موقع ممتاز ، ولديه شقة فاخرة كما وصفتها ، فى حى (جاردن سيتى) ، ودخل كبير من وظيفته الحسّاسة ، وإيراد أرضه فى القرية ، ولست أعتقد أنه قبيح الوجه ، أو غليظ اللسان ، فما الذى يمنعه من الزواج ؟

تطلّعت إليه لحظة ، وقالت :

ـ لماذا يحنقك هذا ؟.. إنه أمر بينه وبينهم ..

ابتسم فى سخرية مريرة ، وهو يقول :

ـ طموحه .. أنت لا تعرفين (حسين) .. كل شىء فى الوجود يتراجع أمام طموحه اللامحدود .. أنا واثق من أنه حتى لم يفكّر فى الزواج ، حتى هذه اللحظة .

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ ربّما لم يجد الزوجة المناسبة بعد .

تنهّد قائلًا :

ـ ربّما .. أو أنه ...

بتر عبارته بغتة ، وتعلّقت عيناه بـ (سوسن) ، التى عبرت الساحة فى خطوات سريعة ، متحاشية النظر إليهما ، فضحكت (جيهان) ، وهى تجذب ذقنه بسبّابتها ، قائلة :

ـ إياك أن تنظر إليها وأنا معك .

انتزع عينيه من (سوسن) فى صعوبة ، واستدار يتطلّع إلى (جيهان) فى دهشة ..

كيف يمكنها أن تضحك ، فى موقف كهذا ؟..

إن كل تصرفاتها معه تشير فى وضوح إلى أنها تحبه ، وعندما تحب المرأة ، فهى تشعر بالغيرة حتمًا ، إذا ما نظر من تحب إلى أخرى ..

وخاصة لو كانت هذه الأخرى حبه القديم ..

ولكن (جيهان) تضحك ..

تضحك وكأنها لا تحمل له فى قلبها ذرة واحدة من الحب ..

وقبل أن يتمادى فى دهشته وأفكاره ، قالت (جيهان) ، وهى تتطلّع بعينيها الجميلتين إلى عينيه مباشرة :

ـ أعلم أنها كانت خطيبتك فيما مضى ، ولكننى أثق فى نفسى ، و ...

ومالت نحوه أكثر ، حتى غاب فى نشوة عطرها ، وهى تستطرد هامسة :

ـ وفى حبك لى .

أسكرته أنفاسها الحارة ، وخلب جمالها لبه مرة أخرى ، فوجد نفسه يقول فى همس مضطرب ، وجسده كله يرتجف :

ـ (جيهان) .. أريد زيارتك فى منزلك .

تراجعت فى حركة حادة ، وهى تقول فى دهشة :

ـ فى منزلى ؟!

أجاب فى لهفة وسرعة :

ـ نعم يا (جيهان) .. أريد أن أحضر لزيارتكم ، حتى .. حتى أطلب يدك من والدك .

تألّقت عينا (جيهان) فى قوة ، ووثبت إلى شفتيها ابتسامة كبيرة ظافرة ، لتعلن أن الفخ الذى صنعت فى صبر ودقة وإحكام قد اكتمل ، و ...

وأطبق على الصيد المنشود ..

★ ★ ★

لم يكد (حسين) يصل إلى مكتب رئيس الجمهورية ، فى ذلك الصباح ، حتى استقبله سكرتيره الخاص ، ، قائلًا فى لهفة :

ـ أهلًا أستاذ (حسين) .. سيادة الرئيس طلب رؤيتك فى مكتبه فور وصولك .

سأله (حسين) فى قلق :

ـ أهو أمر عاجل إلى هذا الحد يا (محمود) بك ؟

لوّح السكرتير بيده فى جزع ، قائلًا :

ـ لا تستخدم هذه الألقاب هنا يا أستاذ (حسين) .. أرجوك .. سيادة الرئيس يبغض هذا تمامًا .

ثم دفع (حسين) فى رفق ، نحو باب حجرة مكتب الرئيس ، مستطردًا :

ـ المهم الآن أن تقابل سيادته على الفور ، كما أمر .

دلف (حسين) إلى الحجرة على أطراف أصابعه ، وتعلّق بصره فى دهشة وحيرة برئيس الجمهورية ، الذى جلس خلف مكتبه ، وأسند مرفقيه إلى سطح المكتب ، وغاص بوجهه بين راحتيه ، على نحو يوحى بالإرهاق والإحباط ، فتنحنح مغمغمًا :

ـ صباح الخير يا سيادة الرئيس .

رفع الرئيس (جمال) عينيه إليه ، وقال :

ـ أهلًا يا (حسين) .. تعال .. إننى أنتظرك منذ فترة .

تقدّم منه (حسين) ، وتطلّع إليه فى اهتمام ، وهو يستطرد :

ـ الأحوال تتردّى أكثر وأكثر فى (سوريا) يا (حسين) ، والمشكلة أنه لم يعد بإمكانى السيطرة عليها .

قال (حسين) فى دهشة :

ـ كيف يا سيادة الرئيس ؟!.. يكفى أن تصدر أوامرك ، و ...

قاطعه الرئيس فى ضيق :

ـ لا تردّد هذا القول يا (حسين) .. لا تتحدّث على النحو نفسه ، الذى يتحدّث به أى مواطن عادى ، يتصوّر أن (جمال عبد الناصر) هو الكل فى الكل .. المفروض أن تعلم ، بحكم موقعك ، أن البلد قد انقسم فعليًا إلى قسمين .. أنا وخلفى الشعب البسيط ، و (عبد الحكيم) ، وخلفه الجيش ، بكل أسلحته ومعداته .

قال (حسين) فى حماس :

ـ لن يصمد الجيش أمام الإرادة الشعبية يا سيادة الرئيس .

ابتسم الرئيس وتنهّد ، قبل أن يقول :

ـ فكرة رومانسية أنيقة يا (حسين) ، ولكنها نظرية أكثر منها واقعية .

أجابه (حسين) :

ـ ولكنها تحقّقت بالفعل يا سيادة الرئيس .. فى الثورة الفرنسية على الأقل .

قلب الرئيس كفه ، وهو يقول فى أسف :

ـ لست أنكر احتمالات نجاح هذا ، ولكنه يحتاج إلى ظروف خاصة ، وإلى فتيل قوى ، ينجح فى تفجير طاقات الشعب وحماسته ، وليس فى الظروف العادية .

ثم اعتدل فى مقعده ، مستطردًا فى حزم :

ـ المهم .. دعنا من كل هذا جانبًا ، واستمع إلىّ جيدًا .

أجاب (حسين) فى حماس :

ـ كلى آذان مصغية يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس :

ـ لست أثق كثيرًا فى تلك التقارير ، التى ترد إلىّ من (سوريا) ، وكلى ثقة فى أن الأحوال هناك أكثر تدهورًا مما تبدو ، و (مراد صقر) يميل كثيرًا إلى (عبد الحكيم) ، وأعتقد أنه يخفى بعض التقارير ، التى تسىء إلى هذا الأخير ورجاله ، ولذلك أريد منك أن تسافر بنفسك إلى (دمشق) ، وأن تجمع أكبر قدر من المعلومات عن الأوضاع هناك ، ثم تعود إلى هنا ، خلال أسبوعين فحسب ، لتنقل إلىّ الموقف كله .. هل يمكنك هذا ؟

أجابه فى حماس شديد :

ـ بالطبع يا سيادة الرئيس .

تراجع الرئيس (جمال) فى مقعده ، وهو يقول فى ارتياح :

ـ عظيم .. (محمود) سيرتب لك كل شىء ، وسيكون عليك أن تسافر إلى هناك مساء اليوم .

قال (حسين) فى سرعة :

ـ أنا مستعد للسفر إلى هناك فورًا يا سيادة الرئيس .

ابتسم الرئيس ، وهو يقول :

ـ حاول أن تؤدى مهمتك على أكمل وجه يا (حسين) ، وإذا ما نجحت فيها ، سيكون لك شأن كبير فى عملك .. وهذا وعد .

امتلأت نفس (حسين) بالنشوة ، والعبارة تتردد فى أذنيه ، طوال طريق العودة إلى منزله ..

لقد أصبح من الضرورى أن يبذل قصارى جهده ، لينجح فى تلك المهمة فى (سوريا) ..

ليس من أجل وطنه فحسب ، ولكن من أجل نفسه أيضًا ..

لقد وعده الرئيس بترقية كبيرة ، وهذا يتناسب مع طموحاته وتطلعاته ..

يتناسب تمامًا ..

ولم يفارقه شعور النشوة هذا ، حتى بعد أن وصل إلى منزله فى (جاردن سيتى) ، وراح يعدّ حقيبة السفر ..

ثم ارتفع رنين الهاتف ..

وفى حركة سريعة ، انعكست عليها انفعالاته ، اختطف (حسين) سمّاعة الهاتف ، وهو يقول :

ـ (حسين البنهاوى) .. من المتحدّث ؟

أتاه صوت (مفيد) ، وهو يقول فى حياء عجيب :

ـ إنه أنا يا (حسين) .. هل .. هل اتصلت فى موعد مناسب ؟

هتف (حسين) فى حرارة :

ـ (مفيد) ؟.. أهلًا بك يا أخى العزيز .. من أين تتحدّث ؟

أجابه (مفيد) :

ـ من محطة (مصر) .. لقد وصلت الآن فقط ، ووجدت أنه من الأفضل أن أتصل بك أوّلًا ، فأنا أريدك فى أمر عاجل .. هل أجد لديك بعض الوقت ؟

أجابه (حسين) ، وهو يلقى نظرة على ساعته :

ـ بالطبع .. أمامى خمس ساعات كاملة .. تعال على الفور ، وسنتناول طعام الغداء معًا ، وتروى لى ما لديك .. هيا .. لا تتأخر .

غمغم (مفيد) :

ـ سأصل بأسرع ما يمكننى .

أنهى (حسين) الاتصال ، وألقى نظرة أخرى على ساعة يده ، قبل أن يبتسم قائلًا :

ـ أراهن أنه أمر يخصّ رفيقة السينما .

ثم هزّ رأسه ، وتنهّد مستطردًا :

ـ أتعشّم أن تكون الأخيرة .

وعاد ينهمك فى ترتيب حقيبة السفر ، ولم يكد ينتهى منها ، حتى سمع رنين جرس الباب ، فأسرع إليه قائلًا لنفسه :

ـ لقد وصل بأقصى سرعة بالفعل .

وفتح الباب ، مستطردًا بابتسامة كبيرة :

ـ مرحبًا يا ...

اختنق الاسم فى حلقه ، وهو يحدّق فى القادمة بدهشة بالغة ، قطعتها هى بابتسامة خبيثة ظافرة ، وهى تقول :

ـ كيف حالك يا (حسين) بك ؟

وكانت مفاجأة مدهشة ، فتلك التى تقف أمامه كانت أميرة سابقة .. الأميرة (عايدة) ..

* * *

١٨ ـ شريط الذكريات ..

خلع (إبراهيم مكّى) منظاره الشمسى ، وابتسم فى خبث ، وهو يتطلّع إلى (فؤاد) ، قائلًا :

ـ من الواضح أنك تميل إلى العمل بأساليبنا يا (فؤاد) بك ، فهذا الموعد خارج الإدارة ، واختيار ركن قصى فى الكازينو للجلوس ، وارتداء المنظار الشمسى للتمويه ، كلها أساليب اعتدناها فى عملنا ، وتوحى بسرية أو أهمية اللقاء .

قال (فؤاد) فى شىء من العصبية :

ـ لم أكن أحب أن يعلم (حسين البنهاوى) أننى ألتقى بك .

رفع (إبراهيم) حاجبيه ، فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ آه .. الأمر يخص (حسين) إذن .

قال (فؤاد) فى حدة :

ـ ومن سواه ؟

ثم تلفّت حوله فى قلق عصبى ، قبل أن يستطرد :

ـ لقد أذلّنى كما لم يفعل مخلوق من قبل .. هل تتصوّر أن عودته المفاجئة من موته المزعوم ، أصابت أعصابى فى عنف ، حتى أننى انهرت وبكيت أمامه .

ابتسم (إبراهيم) ، مغمغمًا فى برود :

ـ حقًا ؟!

ضرب (فؤاد) سطح المنضدة بقبضته ، وهو يقول فى حنق :

ـ لن أنسى أبدًا ابتسامته الساخرة المتشفية ، عندما فعلت هذا .. لقد سخر منى ، واتهمنى بالحقارة والجبن ، ثم أعلن أن سيحرمنى من إيراد الأرض إلى الأبد ، عقابًا لى على محاولتى استعادتها .. ذلك الحقير .. هل نسى أننى كنت أفعل هذا ، متصوِّرًا أنه قد مات وتعفَّن فى باطن الأرض ؟

قال (إبراهيم) ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه :

ـ إذن فقد حرمك من إيراد الأرض .

لوَّح (فؤاد) بذراعه ، صائحًا :

ـ وليس هذا من حقه .

ثم انتبه إلى أن صوته قد ارتفع عن المفروض ، فعاد يخفضه ، وهو يقول فى حنق :

ـ عندما ترك له والده الأرض كلها ، اشترط عليه أن يمنحنا نصيبنا من إيراداتها ، وكأننا ورثنا الإيراد ، دون أن نرث الأرض نفسها ، ولكن (حسين) بك نسى هذا ، فى غمرة سطوته ، ولا مبالاته بكل من حوله ، وتصوَّر أنه صاحب الأرض الحقيقى ، يعطى جزءًا من إيرادها لمن يشاء ، ويمنعه عمن يشاء .

قال (إبراهيم) فى هدوء خبيث :

ـ إنه صاحبها الفعلى .. رسميًا على الأقل .

احتقن وجه (فؤاد) ، وهو يقول فى غضب :

ـ لن يدوم هذا إلى الأبد .

انعقد حاجبا (إبراهيم) لحظة ، ثم مال نحو (فؤاد) ، وسأله :

ـ فيم تفكِّر بالضبط يا (فؤاد) ؟!.. هل ترغب فى إزاحة (حسين)

عن الطريق ؟.. أو بمعنى أكثر وضوحًا وصراحة .. هل تريد قتل (حسين البنهاوى) ؟

هتف (فؤاد) فى ارتياع :

ـ قتله ؟!.. مطلقًا .. لم يخطر هذا ببالى قط .

تراجع (إبراهيم) ، وهو يسأله فى حيرة حذرة :

ـ ما الذى تسعى إليه إذن ؟

امتلأ صوت (فؤاد) بالحقد ، وهو يجيب :

ـ إنها فكرة أشرت أنت إليها ، ودرستها أنا ، ووجدت أنها جديرة بالتنفيذ ، فما دام (حسين البنهاوى) يستخدم إيراد الأرض كسلاح ، حتى أنه حرم منه شقيقه (حافظ) ، ثم شقيقته (ناهد) ، التى هى زوجتى ، فلن أخسر شيئًا ، لو حرمته هو أيضًا منه .

سأله (إبراهيم) فى اهتمام :

ـ وكيف يمكنك هذا ؟

مال (فؤاد) نحوه ، وهو يجيب فى بغض واضح :

ـ بالقانون .. (حسين البنهاوى) يمتلك ما يزيد عن الحد الأقصى للملكية الزراعية ، وسأعمل على مصادرة الفائض منه .

تألَّقت عينا (إبراهيم) ، وهو يقول :

ـ وهل تظن هذا سهلًا ؟!.. (حسين البنهاوى) ليس الوحيد ، الذى يمتلك ما يزيد عن الحد الأقصى للملكية الزراعية ، ولكن هؤلاء الذين تجاوزوا القانون ، لهم من السلطات ما يتيح لهم هذا ، وليس من السهل الوقوف فى وجوههم .

أجابه (فؤاد) فى توتر :

ـ لا تنس أن شقيقى أيضًا له سلطاته .. وله اتصالاته أيضًا ، منذ تسلَّم عمله فى (دمشق) ، فقد توطدت أواصر الصداقة أكثر وأكثر ،

بينه وبين المشير (عبد الحكيم عامر) ، وأنت تعرف قوة المشير .. إن البعض يؤكدون أنه حتى الرئيس نفسه ، لا يمكنه مواجهته الآن ، بعد أن اكتسب حب ورضا أسلحة الجيش كافة .

ازداد انعقاد حاجبى (إبراهيم مكّى) فى شدة ، وهو يقول :

ـ مادام شقيقك بالقوة التى تصفها ، فما الذى تريده منى إذن ؟

تراجع (فؤاد) فى مقعده ، قائلًا :

ـ أريدك أن تتولّى الأمر بنفسك ؛ فأنت أعلم بالموقف هنا ، وأكثر خفة فى الحركة ، و ...

قاطعه (إبراهيم) بغتة :

ـ مقابل ماذا ؟

جاء دور (فؤاد) ، ليعقد حاجبيه ، قائلًا :

ـ مقابل أن نتعاون معًا لتدمير (حسين البنهاوى) .. ألا تبدو لك صفقة رابحة ؟

لاذ (إبراهيم) بالصمت لحظات ، وهو يتطلّع إلى وجه (فؤاد) ، ثم ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه ، وهو يقول :

ـ نعم .. إنها صفقة رابحة بالتأكيد .

تهلّلت أسارير (فؤاد) ، واندفع يصافح (إبراهيم) فى حرارة ، هاتفًا :

ـ أشكرك يا (إبراهيم) بك .. أؤكّد لك أنك لن تندم على قرارك هذا .. لن تندم أبدًا .

ارتسمت ابتسامة على شفتى (إبراهيم) ، وهو يقول فى خبث :

ـ اطمئن يا (فؤاد) بك .. أنا واثق من أننى لن أندم على قرارى هذا أبدًا .

ولكن ابتسامته بدت غامضة ..

غامضة للغاية ..

★ ★ ★

لثوان ، وقف (حسين) يحدّق فى وجه الأميرة (عايدة) فى دهشة ، حتى قالت هذه الأخيرة بابتسامة غريبة :

ـ ألن تدعونى للدخول ؟

هتف ، وهو يفسح لها الطريق :

ـ كيف أتيت إلى هنا ؟

أجابته فى سخرية ، وهى تدلف إلى الشقة ، وتدير عينيها فيها فى بطء :

ـ بالطائرة .. تصوّر .. لقد اكتشفت أنه يوجد خط جوى ، بين (القاهرة) و (باريس) .

قال فى خشونة :

ـ كفى عن أسلوبك هذا ، وأخبرينى .. كيف جرؤت على القدوم إلى هنا ، بعدما فعلته فى (باريس) ؟

تجاهلت سؤاله تمامًا ، وهى تقول :

ـ لم تتغيّر شقتك كثيرًا يا (حسين) .. يبدو أنك من ذلك الطراز ، الذى لا يميل إلى التغيير فى المعتاد .

جذبها من ذراعها فى عنف ، وهو يقول فى غضب :

ـ لماذا أتيت يا (عايدة) ؟

صرخت :

ـ كفى .. إنك تؤلمنى .

وجذبت ذراعها من يده فى حدة ، مستطردة :

ـ لماذا تتصرَّف معى بهذا الأسلوب الوقح ؟.. أنت تعلم أننى لم أكن أقصد الإساءة إليك .

صاح فى غضب :

ـ حقًا ؟!.. تتصلين بالإسرائيليين ، وتقنعينهم بأننى أرغب فى التعاون معهم ، وترتبين لقاءً بينى وبين أحد ضباطهم ، ثم تقولين : إنك لم تقصدى الإساءة إلىَّ ؟!.. ما مفهوم الإساءة فى نظرك إذن ؟

قالت فى حدة عصبية :

ـ مفهوم يختلف تمامًا .

ثم أشعلت سيجارتها ، ونفثت دخانها فى عنف ، مستطردة :

ـ ألم تسأل نفسك لماذا أتيت إليك ؟!.. لقد أرسلت لك عدة برقيات ، أطلب منك فيها العودة إلىَّ ، فلما لم أجد استجابة منك ، قرَّرت أن آتى أنا إليك .

قال فى صرامة :

ـ ألا تخشين أن أمنعك من العودة إلى (باريس) ؟

ابتسمت فى ثقة ، قائلة :

ـ لن يمكنك هذا ، فأنا أحمل الجنسية الفرنسية الآن ، وليس من حقكم احتجاز مواطن من دولة أخرى ، دون وجه حق .

قال فى غضب :

ـ أنت قلتها .. دون وجه حق .. من الواضح أنك تجهلين أساليبنا هنا أيتها الأميرة السابقة ، فعندما أحتجزك هنا ، سيكون كل شىء قانونيًا تمامًا ، وسنجد لك تهمة مناسبة ، تبيح لنا احتجازك رسميًا ، وربما إعدامك ، لو أردنا هذا .

هزَّت كتفيها بلا مبالاة ، قائلة :

ـ حبيبى (حسين) لن يطاوعه قلبه على أن يفعل بى هذا .

أجابها فى حدة :

ـ كان هذا فيما مضى .. أما الآن فالوضع يختلف .

عادت تهزّ كتفيها فى لا مبالاة ، وهى تقول :

ـ لم يختلف كثيرًا ، فأنت تمتلك السلطة هنا ، وأنا أمتلك سلاحًا ضدك .

سألها فى توتر :

ـ سلاح ؟!.. أى سلاح هذا ؟

فتحت حقيبتها بحركة سريعة أنيقة ، والتقطت منها بكرة فيلم سينمائى صغيرة ، ناولته إياها ، قائلة :

ـ ها هو ذا .

التقط البكرة فى قلق شديد ، وهو يسألها :

ـ وما هذا بالضبط ؟!

أجابته بابتسامة خبيثة :

ـ شاهده أوَّلًا ، وثق من أنه ليس النسخة الوحيدة ، فالأصل أحتفظ به مع عدد من النسخ فى مكان شديد السرية فى (باريس) ، وهناك من لديه أوامر صريحة بإرسال النسخ إلى عدد من المسئولين هنا ، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية نفسه ، لو تلقَّى أمرًا واحدًا منى ، أو توقفت رسائلى المنتظمة إليه لأسبوع كامل .

تطلَّع إلى البكرة فى قلق مضاعف ، وهو يقول فى حدة :

ـ هل ستعودين إلى تلك المناورات البوليسية السخيفة ؟

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، قبل أن تقول :

ـ شاهد الفيلم أوَّلًا ، ثم اتصل بى .. إننى أقيم فى (هيلتون النيل) .

قالتها ، واتجهت فى سرعة إلى باب الشقة ، ولم تكد تلمس مقبض الباب ، حتى ارتفع رنين الجرس ، فهتف (حسين) :

ـ انتظرى .. إنه (مفيد) .

ولكنها تجاهلت هتافه التحذيرى ، وفتحت الباب ..

وارتفع حاجبا (مفيد) فى دهشة ..

كان يعرف الأميرة (عايدة) ، ويعلم شيئًا عن ارتباط شقيقه بها قديمًا ، ولكنه لم يكن يتصوَّر أبدًا أن يراها أمامه هكذا ..

وفى شقة (حسين) ..

وبابتسامة شبه متهكمة ، قالت (عايدة) :

ـ إذن فأنت (مفيد) .

ظهر (حسين) من خلفها ، وهو يقول فى توتر :

ـ أهلًا يا (مفيد) .. أقدِّم لك الأميرة (عايدة) .. كنا نتباحث فى أمور خاصة بالعمل .. تفضَّل .

ثم صافح (عايدة) ، قائلًا فى صرامة :

ـ إلى اللقاء يا سيِّدتى .. سأطالع مستنداتك ، وأتصل بك بأسرع وقت .

صافحته (عايدة) بابتسامة ساخرة ، وهى تقول :

ـ سأنتظر .

أغلق (حسين) الباب خلفها ، والغضب يمتزج بالسخط فى أعماقه ، وحاول أن يطفئ نيران حنقه ، وهو يلتفت إلى (مفيد) ، قائلًا :

ـ مرحبًا بك يا (مفيد) .. يسعدنى كثيرًا أن تزورنى فى شقتى .. اجلس يا فتى .. اجلس .

جلسا على مقعدين متجاورين ، وبدا (مفيد) مرتبكًا ، وهو يقول :

ـ آسف لحضورى دون موعد سابق ، ولكن ..

قاطعه (حسين) فى شىء من العصبية :

ـ هات ما لديك دون مقدمات .

كان سلوكه هذا يتناقض تمامًا مع حفاوة حديثه عبر الهاتف ، فتطلَّع إليه (مفيد) فى دهشة ، ثم لم يلبث أن تجاوز هذا بسرعة ، وهو يقول :

ـ فليكن .. الواقع أننى أريد أن أتقدَّم لخطبة زميلة لى .

سأله (حسين) بسرعة :

ـ أهى رفيقة السينما ؟

أجابه بإيماءة من رأسه ، فتراجع (حسين) فى مقعده ، وقال فى توتر ملحوظ :

ـ اسمع يا (مفيد) .. لست أعترض على الفكرة ، ولكننى أحتاج إلى بعض الوقت ، للسؤال عنها وعن عائلتها ، ثم أننى سأسافر لأسبوعين ، فى مهمة خاصة ، فأمهلنى هذه الفترة .

أومأ (مفيد) برأسه ، وقال :

ـ فليكن .. سأطلب منها تأجيل موعد المقابلة ، لحين عودتك .

نهض (حسين) ، وهو يقول :

ـ عظيم .. والآن تقبَّل اعتذارى عن دعوتى لك لمشاركتى طعام الغداء ، فلدى عمل بالغ الأهمية ، أريد أن أنجزه قبيل سفرى .

ارتبك (مفيد) ، مع هذا الأسلوب الباتر ، فنهض وصافح شقيقه ، مغمغمًا :

ـ سأنتظر عودتك .

قاده (حسين) إلى الباب ، وهو يقول فى عجالة :
ـ بإذن الله .. بإذن الله .
لم يشعر ، فى غمرة توتره ، بمدى قلة الذوق ، التى يتسم بها أسلوبه مع شقيقه ، ولم يكد يغلق الباب خلفه ، حتى ألقى نظرة على ساعته ، وهو يندفع إلى حجرة مكتبه ، حيث آلة العرض السينمائى ، وأعدَّ الفيلم الذى أعطته إياه (عايدة) للعرض بسرعة ، مغمغمًا فى سخط حانق :
ـ أنت كذلك دائمًا يا (عايدة) .. لا تحملين لى سوى المشكلات .
وضغط زر العرض ، وانطلق الضوء يغمر الشاشة الصغيرة ، ثم راحت الصور تتعاقب عليها ، مع صوت واضح جلى ..
واتسعت عينا (حسين) فى دهشة ..
وفى انزعاج كامل ..
لقد كان أمامه عرض كامل للقائه بالإسرائيلى (ميخائيل بن ناثان) فى الحجرة الخلفية لمتجر (عايدة) فى (باريس) ..
ولكنه لم يكن مطابقًا لما حدث بالفعل ..
لقد امتدَّت إلى الفيلم يد خبيرة ، عدَّلت بعض أجزائه ومقاطعه ، وأعادت ترتيب مشاهده وحواره بدقة مدهشة ، بحيث بدا المشهد وكأنه (حسين) يتفاوض مع (ميخائيل بن ناثان) بالفعل ، ويعرض خيانة وطنه ، مقابل ثمن مناسب ..
وخفق قلب (حسين) فى عنف ..
ومعه خفق عقله بقوة أكبر ..
صحيح أن هذا الفيلم زائف ، ولكنه متقن إلى حد كبير ، يكفى لإقناع المسئولين بأنه خائن حقير ، إلى الحد الذى يستحق معه محاكمة عسكرية صارمة ..

وعلى كل الأحوال ، سينتهى الأمر بتحطيمه ..
وبلا رحمة ..
وتصبَّب عرق باردٌ على جبين (حسين) ، وهو يهتف غاضبًا :
ـ يا لحقارة تلك الأميرة السابقة المجنونة !!.. هذا جزاء ارتباطى بشخصية هستيرية مثلها !.. إنها مستعدة لتدمير حياتى ومستقبلى ، وكأنها تمارس لعبة سخيفة ، دون أن تشعر لحظة واحدة بالأسف ، أو بتأنيب الضمير ..
وألقى نظرة أخرى على ساعته ، ثم اختطف سترته ، مستطردًا فى حنق :
ـ والوقت ضيق .. ضيق للغاية .
لم يدر كيف قطع المسافة ، من منزله إلى فندق (هيلتون النيل) ، الذى لا يبعد عنه كثيرًا ، ولكنه وجد نفسه أخيرًا يقف أمام (عايدة) ، التى استقبلته فى بهو الفندق بابتسامة ظافرة ، وهى تقول :
ـ لم أتوقع قدومك ، بمثل هذه السرعة .
سألها فى حدة :
ـ ماذا تريدين منى بالضبط يا (عايدة) ؟
هزَّت كتفيها ، وهى تنفث دخان سيجارتها ، قائلة :
ـ فلنبدأ باعتذارك عن تجاهل برقياتى إليك .
قال فى عصبية :
ـ فليكن .. أنا أعتذر .. ماذا أيضًا ؟
ابتسمت فى ظفر أكثر ، وأشارت إلى المقعد المجاور لها ، قائلة :
ـ اجلس أوَّلًا ، فالمطلب التالى يحتاج إلى كل انتباهك .

جلس ، وهو يقول فى توتر غاضب :

ـ (عايدة) .. ليس لدى وقت لهذا العبث ، المفروض أن أسافر بعد حوالى ثلاث ساعات .

قالت فى حدة :

ـ ماذا ؟!.. هل تمارس معى ألعابك هذه مرة أخرى ؟!.. هل ستتركنى لتسافر ثانية ؟!.. اسمع .. لن أقبل هذا قط هذه المرة .. اعتذر عن السفر ، أو حتى تقدَّم باستقالتك ، ولكننى لن أسمح لك بالعبث بى ، أو تجاهل وجودى .

تلفَّت حوله ، قائلًا :

ـ لا يمكننى الاعتذار عن السفر .. إنها مهمة خاصة للغاية ، وبتكليف من السيِّد رئيس الجمهورية شخصيًا .. إنها الحقيقة .. صدقيها أو لا تصدقيها ، ولكنها الحقيقة بالفعل .

نفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وهى تدرس الأمر ، ثم سألته :

ـ وكم ستستغرق رحلتك هذه المرة ؟

زفر فى ضيق ، قبل أن يجيب :

ـ أسبوعين .

مطَّت شفتيها فى غضب ، ثم لم تلبث أن هزَّت كتفيها ، قائلة :

ـ هذا يمنحك فرصة جيِّدة للتفكير فى العرض .

قال فى حدة ، وبصوت خافت ، حتى لا يثير إليهما الانتباه :

ـ إننى لم أسمع العرض بعد .

قالت فى غطرسة :

ـ إنه عرض بسيط ومباشر ، فإما أن أقدِّم نسخ الفيلم للمسئولين هنا ، وأعرِّض مستقبلك كله للخطر ، وإما أن تقبل عرضى .

سألها فى عصبية أكثر :

ـ مازلت لم أعرف عرضك هذا .

نفثت دخان السيجارة فى وجهه مباشرة ، وأسبلت جفنيها قليلًا ، قبل أن تجيب فى حزم :

ـ أن تتزوَّجنى .

وانفجرت قنبلة دهشة فى أعماق (حسين) ..

* * *

١٩ ـ المفـاجأة ..

ارتسمت ابتسامة واثقة ظافرة ، على شفتى (جيهـان) الجميلتين ، وهى تدخل إلى حجرة المدرّسات ، وتتجه مباشرة إلى حيث تجلس (سوسن) ، قائلة :

ـ صباح الخير يا (سوسن) .. هل تسمحين لى بالجلوس إلى جوارك ؟

صمتت (سوسن) لحظة ، ثم لملمت أوراقها ، وهى تقول :

ـ تفضلى فى مقعدى نفسه ، فقد كنت على وشك الانصراف ، و ...

أمسكت (جيهان) كتفها ، لتمنعها من النهوض ، قائلة فى شىء من الحزم :

ـ كلّا .. لا تنصرفى الآن ، فلدى ما أتحدّث معك بشأنه .

توترت (سوسن) ، وهى تعاود الجلوس ، وسألتها :

ـ خيرًا ؟!

جذبت (جيهان) مقعدها ، والتصقت بها تقريبًا ، وهى تقول :

ـ أظنك علمت أن (مفيد) يطلب يدى .

شعرت (سوسن) بالضيق ، وتساءلت : لماذا تبلغها (جيهان) بهذا ، ولكنها أجابت فى خفوت :

ـ ألف مبروك .

رمقتها (جيهان) بنظرة شامتة ، وهى تقول بصوت مرتفع ، سمعه كل من بالحجرة :

ـ لقد طلب زيارتنا ، وسينتظر عودة شقيقه (حسين) من الخارج ، ليطلب يدى من والدى رسميًا .

كرّرت (سوسن) فى حذر :

ـ مبروك .

مالت (جيهان) نحوها ، وخفضت صوتها ، وهى تستطرد :

ـ ولكننى أحتاج لمعرفة بعض المعلومات عنه منك .

انعقد حاجبا (سوسن) ، وهى تقول فى عصبية :

ـ ولماذا منى بالذات ؟

ابتسمت (جيهان) فى خبث ، مجيبة :

ـ لقد كان خطيبك فيما مضى ، قبل أن يتركك ، و ...

قاطعتها (سوسن) فى حدة :

ـ (مفيد) لم يتركنى .. أنا تركته .

سألتها (جيهان) بسرعة :

ـ لمـاذا ؟!

حدّقت (سوسن) فى وجهها بدهشة ، مغمغمة :

ـ لماذا ماذا ؟

سألتها (جيهان) بلهفة :

ـ لماذا تركت شابًا كهذا ؟

انفرجت شفتا (سوسن) ، وبدا لحظة وكأنها ستروى كل ما لديها ،

وستقصّ على (جيهان) كيف تركها (مفيد) فجأة فى وسط الطريق ؛ لأنه لمح حبيبته القديمة (مديحة) ..

ولكنها فجأة ، أطبقت شفتيها ، وأشاحت بوجهها ، قائلة فى صرامة :

ـ لدى أسبابى ، التى أرفض البوح بها .

قالت (جيهان) فى إصرار :

ـ ولكن الأمر يثير دهشتى بالفعل ، فـ (مفيد) شاب وسيم ، مهذّب ، من عائلة كبيرة ، ويمتلك أرضًا فى قريتهم ، و ...

قاطعتها (سوسن) فجأة :

ـ (مفيد) لا يمتلك شيئًا .

التقى حاجبا (جيهان) ، وانتفض جسدها بغتة ، وهى تستقبل هذه المعلومة ، قبل أن تقول فى حدة :

ـ من قال هذا ؟.. لقد علمت أن أسرته ثرية ، وأنهم يمتلكون ما يقرب من مائتى فدان من أكثر أراضى القرية خصوبة ، ونصفها حدائق يانعة ، و ...

مرة أخرى قاطعتها (سوسن) ، قائلة :

ـ معلوماتك قاصرة يا آنسة (جيهان) .. ليست عائلة (مفيد) هى التى تمتلك كل هذا .. إنه شقيقه (حسين) فحسب .

انتفض جسد (جيهان) مرة أخرى ، وهى تهتف :

ـ ماذا تقولين ؟

أجابتها (سوسن) فى توتر :

ـ (حسين) وحده يمتلك أرض (البنهاوى) كلها ، ويوزّع إيراداتها بينه وبين أشقائه وشقيقاته ، ويمكنه أن يتوقّف عن هذا وقتما يشاء .

شحب وجه (جيهان) ، وتراجعت كالمصعوقة ، وهى تتمتم :

ـ إذن فـ (مفيد) لا يمتلك شيئًا .

تطلّعت إليها (سوسن) لحظة ، قبل أن تهمس :

ـ وهل يؤثّر هذا على قرارك بقبول خطبته لك ؟

هتفت (جيهان) :

ـ بالطبع .

ثم استدركت بسرعة :

ـ لأنه أخفى عنى هذا .

سألتها (سوسن) :

ـ هل سبق لك سؤاله مباشرة عما يمتلك ؟.. أشك فى هذا ، فـ (مفيد) لن يكذب قط .

رمقتها (جيهان) بنظرة نارية غاضبة ، ثم هبّت واقفة فى حركة حادة ، وهى تقول :

ـ ليس هذا من شأنك .

واندفعت مغادرة الحجرة ، وبداخلها بركان ثائر ..

بركان الغضب ..

والفشل ..

★ ★ ★

« انتهى الأمر .. لم أعد أحتمل .. »

نطق (رضا العبد) تلك العبارة فى مرارة شديدة ، داخل حجرة مكتب (عمر) فى المصنع ، ولوّح بكفه فى يأس ، مستطردًا :

ـ هذا البلد لا يشجّع السعى والاستثمار ، وما فعله بنا (حسين البنهاوى) ليس سوى البداية ، ولن يتوقفوا قبل أن نتحوّل إلى دولة شيوعية كاملة ، مثلما حدث فى الاتحاد السوفيتى .

قلب (عبد الحكيم) كفيه فى أسف ، وهو يقول :
ـ وماذا بيدنا لنفعله ؟.. إنها سياسة الدولة ، وكل من يعارضها يُلقى به فى السجون والمعتقلات ، أو يختفى ، فلا يعلم حتى أهله مكانه .
ومطّ (عمر) شفتيه ، قائلًا :
ـ ولقد مررت بهذه التجربة شخصيًا ذات يوم .
أومأ (رضا) برأسه متفهمًا ، وهو يقول :
ـ أعلم ذلك .. كلنا نذكر ما حدث .
ثم أضاف فى حزم :
ـ ولكننى لن أنتظر ، حتى يلحق بى ما أصابك .
سأله (عمر) :
ـ وماذا يمكنك أن تفعل ؟
التقط (رضا) نفسًا عميقًا ، وقال :
ـ يمكننى أن أهاجر إلى بلد آخر .
ابتسم (عبد الحكيم) فى مرارة ، قائلًا :
ـ حتى هذا مجرّد حلم بعيد المنال ، فمن العسير أن يحصل المرء على موافقة سفر إلى الخارج .
صمت (رضا) لحظات ، قبل أن يقول :
ـ أنا حصلت عليها .
ارتسمت الدهشة على وجهى (عمر) و (عبد الحكيم) ، وهتف الأوّل :
ـ وكيف حصلت على لبن العصفور هذا ؟
أجاب (رضا) فى همس ، وكأنه يخشى أن يكون للجدران آذان بحق :

ـ هل تذكران تلك الشركة ، التى أراسلها منذ فترة ، بحجة شراء بعض الآلات الحديثة منها للمصنع ؟.. لقد أرسلت عن طريق صديق لى ، يعمل فى (أمريكا) ، أشرح لهم ظروف البلد فى الوقت الحالى ، وأخبرتهم أن الوسيلة الوحيدة للسفر ، هى أن أحصل على عقد عمل خارج البلاد ، ومن حسن حظى أنهم تفهّموا الأمر على الفور ، وأرسلوا لى عقد عمل رسمى ، موثّق فى مكتب العمل لديهم ، وبوساطته حصلت على تصريح السفر ، وتأشيرة دخول للولايات المتحدة الأمريكية .
هتف (عبد الحكيم) فى دهشة :
ـ ومتى فعلت كل هذا ؟
أشار إليه (رضا) بخفض صوته ، وهو يجيب فى همس متوتر :
ـ إننى أسعى فى هذا الأمر ، منذ وقعنا عقودنا مع (حسين البنهاوى) ، ولكننى اتبعت النصيحة التى تقول : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .
ران على الحجرة صمت ثقيل ، قطعه (عمر) ، وهو يقول :
ـ شكرًا يا (رضا) .. أشكرك لأنك منحتنا ثقتك ، وأبلغتنا بالأمر قبل سفرك .
تنهّد (رضا) ، وقال :
ـ لم آت إلى هنا لأخبركما فحسب ، ولكن لأعيد الأمور إلى نصابها أيضًا .
بدت الدهشة عليهما مرة أخرى ، وسأله (عبد الحكيم) :
ـ أية أمور ، تلك التى ستعيدها إلى نصابها يا (رضا) ؟

اعتدل (رضا) ، وأجاب فى حزم :
ـ قبل أن يدس (حسين البنهاوى) نفسه فى شركتنا ، كان كل منا يمتلك ثلث المصنع ، وقبل سفرى ، قرّرت أن أبيعكما نصيبى فى المصنع ، وهكذا يمتلك كل منكما ثلث المصنع ، كما كان الأمر من قبل .
ثم زفر مرة أخرى ، قبل أن يستطرد :
ـ وبهذا .. بهذا فقط ، سأشعر بأننى قد ثأرت لنفسى من ابن (البنهاوى) .. ومن يدرى ؟.. ربما دارت عجلة الزمن ، واكتمل ثأرى ذات يوم ..
نعم .. من يدرى ؟

★ ★ ★

فركت (جيهان) كفيها فى عصبية ، وهى تقول لشقيقتها فى غضب :
ـ النذل الجبان خدعنى ، وجعلنى أظنه ثريًا .
قالت شقيقتها مشفقة :
ـ ولكنه لم يخبرك بهذا قط .
هتفت محنقة :
ـ يكفى أنه تركنى آخذ هذا الانطباع .
ابتسمت شقيقتها ، قائلة :
ـ هل ستظلين هكذا دائمًا .. تلقين تبعة أخطائك على الآخرين ؟
لوّحت (جيهان) بذراعها ، وهى تقول فى غضب :
ـ أية أخطاء ؟!.. لقد درست الأمر جيدًا ، وتحريت عن (مفيد البنهاوى) بقدر استطاعتى ، قبل أن أتخذ قرارى بشأنه ، ولكن الذين أخبرونى ما لديهم من معلومات ، كانوا يجهلون تلك المعلومة تمامًا .

تراجعت شقيقتها على الفراش ، وقالت :
ـ إذن فقد ألغيت مشروع (مفيد البنهاوى) .
عقدت (جيهان) حاجبيها فى شدة ، وهى تقول :
ـ لست أحب المشاريع الفاشلة .
سألتها شقيقتها فى فضول :
ـ وكيف تبلغين (مفيد) بهذا ؟
أجابتها فى عصبية :
ـ سأترك هذا للوقت المناسب .
اعتدلت شقيقتها ، قائلة فى دهشة :
ـ الوقت المناسب ؟!.. ومتى يحين هذا الوقت المناسب ؟
نفثت غضبها فى توتر ، وهى تقول :
ـ عندما تكتمل اللعبة .
بدا القلق على ملامح شقيقتها ، وهى تقول :
ـ اللعبة ؟!.. فيم تفكرين بالضبط يا (جيهان) ؟
لوّحت (جيهان) بسبّابتها ، قبل أن تقول :
ـ فى تعديل بسيط فى القواعد .. عملية استبدال ، ستحل كل مشكلات اللعبة ، وتعيد الأمور إلى نصابها .
سألتها شقيقتها فى قلق أكبر :
ـ استبدال ماذا ؟
ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (جيهان) ، وتألّقت عيناها فى جشع ، وهى تجيب :
ـ استبدال (مفيد البنهاوى) بصاحب الثروة الحقيقى (حسين البنهاوى) .

قفزت شقيقتها من فراشها ، هاتفة :

ـ هل جننت.؟!.. إنك لا تعرفين حتى شكل (حسين) هذا .

أجابتها فى حزم :

ـ ولكننى سأصل إليه ، وسأجعله يحتل موقع شقيقه بإرادته .

انعقد حاجبا شقيقتها ، وهى تقول فى حدة :

ـ حذار يا (جيهان) .. إنك تورطين نفسك فيما يفوقك حجمًا ، وثقتك الزائدة بجمالك لن تفيدك كثيرًا ، عندما تحاولين استبدال شاب بشقيقه .

أجابتها (جيهان) فى حدة شرسة :

ـ لا شأن لك بهذا .. اتركى الأمر كله لى .

وأطلّ جشع الدنيا كله من عينيها ، وهى تضيف :

ـ أنا أدرك ما أفعله .. أدركه جيدًا .

وتضاعف قلق شقيقتها ..

تضاعف ألف مرة ..

★ ★ ★

تنهّدت (عايدة) فى ضجر ، وقالت لسائق سيارة (جان) ، التى تطوف بها حى (الشانزليزيه) فى (باريس) :

ـ هل سنكتفى بهذه الجولة السخيفة ، مثلما يحدث فى كل مرة ، أم أنه من الممكن أن أجوّل وحدى بعض الوقت ؟

أجابها السائق فى برود حازم :

ـ إننى أنفذ أوامر مسيو (جان) ، الذى يصرّ على عدم مغادرتك للسيارة ، ويرسل خلفنا اثنين من الحراس بصفة دائمة .

ألقت نظرة من نافذة السيارة ، على السيارة المجاورة ، وبداخلها الحارسان ، وقالت فى ملل :

ـ أعلم هذا .

ثم انفجرت فجأة ، مستطردة :

ـ ولكننى سئمت كل هذا ، ولم أعد أحتمل هذا السجن السخيف ، الذى يضعنى فيه (جان) ، بحجة حمايتى من الإسرائيليين ، الذين يسعون لتلقينى درسًا قاسيًا ، بعدما فعلته بهم .. لقد سافرت إلى (القاهرة) منذ عشرة أيام ، ولن ينلنى سوء .

قال السائق بابتسامة خفيفة :

ـ أعتقد أن الإسرائيليين يتحركون هنا بخفة ، أكبر مما يمكنهم فى (القاهرة) .

هتفت بسرعة :

ـ بالطبع ؛ فهذا بلد حر للجميع .

ثم عادت تتنهّد ، مردفة :

ـ فيما عداى .

ألقى عليها السائق نظرة سريعة ، فى مرآة سيارته الداخلية ، قبل أن يقول فى لهجة مهذّبة :

ـ مسيو (جان) يحاول حمايتك بالفعل يا سيّدتى ، فالحرية تمنح فرصة أكبر للجميع ، حتى المجرمين والجواسيس .

قالت فى حدة :

ـ هذا ما ينبغى أن تفهموه ، فلو أن الإسرائيليين يسعون لتأديبى بالفعل ، فلن تنقذنى منهم سيارتك هذه .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى سمعت السائق يهتف :

ـ ريّاه !.. إنهم ..

لم يتم عبارته ، ولكنها أدركت ما أراد قوله ، وهى تحنق فى سيارة الحارسين ، التى هاجمها أربعة رجال فجأة ، وأطلقوا بعض الرذاذ من رشاشات بأيديهم ، فى وجهى الحارسين ، اللذين فقدا وعيهما على الفور ، فصاحت هى فى ذعر وارتياع :

ـ اهرب يا رجل .. اهرب .

لم يكن السائق بحاجة لصيحتها ، فقد ضغط دوّاسة الوقود بالفعل ، واندفع يتجاوز السيارة التى أمامه ، ولكن الإشارة الحمراء المزدحمة اعترضته ، فاضطر للتوقف على الرغم منه ، واختطف سمّاعة هاتف السيارة ، وهو يهتف :

ـ سأتصل بالشرطة ، لا بد أن ..

قاطعه رجل فتح باب السيارة الأمامى الأيمن ، ووثب داخلها ، وصوّب إليه مسدسه ، قائلًا فى صرامة عنيفة :

ـ لو أتنى فى مكانك ، لما أكملت هذه المحادثة ، أبدًا .

تجمّد السائق فى موضعه ، واتسعت عيناه رعبًا ، فى حين أطلقت (عايدة) شهقة فزع ، وحاولت أن تقفز خارج السيارة ، ولكنها فوجئت برجل يعترضها ، وهو يقول بابتسامة ساخرة :

ـ مساء الخير يا أميرة (باريس) .

وهنا ، وقع قلبها بين قدميها ؛ فقد كان ذلك الشخص هو (ميخائيل) ..

(ميخائيل بن ناثان) ..

* * *

فى حين أطلقت (عايدة) شهقة فزع ، وحاولت أن تقفز خارج السيارة ، ولكنها فوجئت برجل يعترضها ..

٢٠ ـ عرض جديد ..

تجمَّد لسان (عايدة) فى حلقها ، فلم تستطع نطق حرف واحد ، فدفعها (ميخائيل) ليعيدها إلى السيارة ، وجلس إلى جوارها ، ثم أشار للسائق ، قائلًا فى صرامة :

ـ انطلق .. الإشارة خضراء الآن .

ومع المسدس المصوَّب إلى رأسه ، أطاع السائق الأمر على الفور ، فى حين التفت (ميخائيل) إلى (عايدة) ، وقال بابتسامة كبيرة :

ـ كيف حالك يا سمو الأميرة ؟.. هل راقت لك رحلتك إلى (القاهرة) ؟

اتسعت عيناها فى ذعر ، وهى تهتف :

ـ هل كنتم تعلمون ؟

أجابها فى هدوء :

ـ بالطبع .. كان رجالنا برفقتك ، لحظة فلحظة .. هل تحبين أن أبلغك برقم مقعدك فى الطائرة ، أم بساعة وصولك إلى (القاهرة) ؟ أم هل تفضلين معرفة رقم حجرتك فى (هيلتون النيل) ؟

ارتجفت مع كلماته ، ثم هتفت فى توتر :

ـ ماذا تريدون منى ؟.. اقتلنى الآن ، لو أن هذا ما تسعون إليه .

ابتسم فى خبث ، وهو يقول :

ـ نقتلك ؟!.. وهل نجرؤ على هذا يا أميرتى ؟

قالت فى حدة :

ـ لقد حاولتم من قبل .

هزَّ كتفيه ، قائلًا :

ـ الأمر الآن يختلف كثيرًا .

حلَّت دهشتها محل خوفها ، وهى تقول :

ـ يختلف ؟!.. وفيم يختلف ؟!

صمت (ميخائيل) لحظة ، وهو ينظر إلى عينيها مباشرة ، ثم التفت إلى السائق ، قائلًا فى صرامة :

ـ توقَّف هنا .

أطاع السائق الأمر على الفور ، فأشار (ميخائيل) إلى حامل المسدس ، الذى دفع السائق خارجًا ، وهو يقول فى غلظة :

ـ هيَا يا رجل .. المكان لا يتسع لنا جميعًا .

ارتجفت (عايدة) ، عندما وجدت نفسها وحيدة مع (ميخائيل بن ناثان) فى السيارة ، وسألته فى عصبية :

ـ هل ستقتلنى الآن ؟

ابتسم (ميخائيل) فى سخرية ، وقال متجاهلًا سؤالها :

ـ هل تعلمين يا سمو الأميرة ؟.. لقد أحنقنا ما فعلت بنا كثيرًا ، حتى أننى ، كرد فعل مباشر ، قرَّرت أن أقتلك ، ولكن من حسن حظنا أنك نجوت مع ذلك المصرى ، بفضل عناية صديقك (جان) ، فقد أعدنا دراسة الموقف ، ووجدنا أننا لم نخسر كثيرًا بسبب عبثك ، بل الواقع أننا ربحنا فرصة مناسبة ، قد لا يمكننا تعويضها بسهولة .

سألته فى حذر :

ـ فرصة ماذا ؟

مرة أخرى تجاهل سؤالها ، وواصل حديثه :

ـ وعندما أغلق مسيو (جان) متجرك ، فى فترة علاجك ، استطعنا استغلال الفرصة لتفتيشه جيدًا ، وعثرنا على المكان الذى أخفيت فيه آلة التصوير ، فى الحجرة الخلفية ، ولم يكن الأمر بحاجة إلى الكثير من الذكاء ، لنعلم أنك التقطت فيلمًا لكل ما حدث .

تمتمت متوترة :

ـ هذا صحيح .

ابتسم فى ظفر ، قائلًا :

ـ عظيم .. أنت لا تدركين ما يمكننا أن نفعله بفيلم كهذا يا سمو الأميرة .. وخاصة أن صديقك (حسين البنهاوى) من الرجال الذين يشكلون لنا أهمية بالغة ، لعلاقته المباشرة بالرئيس (جمال) .

ثم توقف ليسألها فى اهتمام :

ـ أنت طبعًا لا تحبين الرئيس (جمال عبد الناصر) .

سألته مرتجفة :

ـ هل تسعون للنيل منه ؟

لوّح بكفه ، قائلًا :

ـ لسنا وحدنا فى هذا المضمار يا أميرتى ، فالرجل لم يعد مجرّد رئيس دولة من الدول النامية ، وإنما صار زعيمًا عربيًا كبيرًا ، ورمزًا للنضال ضد الاستعمار ، فى العالم العربى كله ، وبإشارة واحدة من سبّابته ، يمكنه أن يحرّك مائة مليون عربى ، من المحيط إلى الخليج ، وهو يخيفنا ويرهقنا كثيرًا ، خاصة وأننا لم نجد له نقطة ضعف واضحة ، يمكن التسلّل منها إليه ، فهو ليس سكيرًا ، ولا مقامرًا ، ولا يمكن استمالته بالمال أو بالنساء .. باختصار .. إنه أصعب خصم واجهنا حتى الآن .

قالت متهكمة :

ـ إذن فصحيح ما يرددونه هنا ، من أن المخابرات الأمريكية حاولت رشوته بمليون دولار ، فأخذها ليبنى بها برج (القاهرة) .

انعقد حاجباه فى ضيق ، وهو يقول :

ـ لسنا هنا بصدد مناقشة نزاهة الرجل .. المهم أننا نريد (حسين البنهاوى) بالفعل ، ونظرًا لتعنته ، وعناده الشديد ، فلم نجد أمامنا سوى وسيلة واحدة للوصول إليه .

سألته فى فضول :

ـ وما هى ؟

تطلّع إلى عينيها مباشرة ، وكأنما يسبر أغوارها ، قبل أن يجيب فى صوت قوى :

ـ أن تعملى لحسابنا .

وانتفض جسدها ..

انتفض فى عنف ..

★ ★ ★

حث (مفيد) الخطا ؛ ليلحق بـ (جيهان) ، فى الشارع المجاور للمدرسة ، وهو يهتف بها :

ـ آنسة (جيهان) .. توقفى .. أريد التحدّث معك .

توقفت (جيهان) ، وهى تطلق زفرة ضجرة ، والتفتت إليه ، قائلة :

ـ ماذا تريد منى يا أستاذ (مفيد) ؟

هتف فى دهشة :

ـ ماذا أريد منك ؟!.. ماذا أصابك يا (جيهان) ؟.. هل أغضبك منى شىء ما ؟

أجابته فى ملل واضح :
ـ كلّا .. أنت شخص مهذّب تمامًا ، ولكن لدى بعض المشكلات التى تقلقنى ، وتشغل فكرى .
سألها فى قلق :
ـ أهى مشكلات تخصّنى ؟
قالت فى سأم :
ـ كلّا .. كلّا .. اتركنى أنصرف الآن من فضلك .
قال فى مرارة :
ـ ليس قبل أن تخبرينى بسر هذا الجفاء العجيب .
كانت تشعر بضجر حقيقى منه ، جعلها تقول ، محاولة تجاهل تساؤلاته :
ـ هل عاد شقيقك من رحلته ؟
هتف (مفيد) ، وقد خُيّل إليه أنه أمسك السبب الحقيقى لغضبها :
ـ آه .. أهذا ما يضايقك ؟.. صدقينى يا (جيهان) .. كان المفترض أن يعود (حسين) بعد أسبوعين بالفعل ، ولكن ضرورات عمله اضطرته للبقاء أسبوعين آخرين ، ولكنه سيعود مساء بعد غد بإذن الله ، وسنحضر أنا وهو لطلب يدك من والدك .
قالت فى توتر :
ـ فليكن .. إلى اللقاء الآن .
كان يرغب فى المزيد من الحديث معها ، ولكن فجأة ، ظهر أمامهما ضابط شرطة شاب ، مع عدد من المخبرين ، وسأل (مفيد) فى صرامة :
ـ ماذا تفعلان هنا ؟

ارتبك (مفيد) ، وهو يقول :
ـ إننا زميلان ، و ...
قاطعه الضابط الشاب فى حدة :
ـ زميلان فى ماذا أيها المدلّل ؟!.. فى لقاءات الحب والغرام .
صرخت (جيهان) :
ـ يا للمصيبة !.. ماذا تقول أيها الضابط ؟!.. إنك تمسّ سمعتى وشرفى .
جذبه جمالها الواضح ، وخلبت فتنتها لبه ، وذاب فى سحرها الطاغى ، فتطلّع إليها لحظة فى صمت ، أما (مفيد) فقد هتف فى غضب :
ـ إياك أن تمسّها بكلمة واحدة أيها الضابط ، وإلا ..
التفت إليه الضابط الشاب فى حدة ، وصاح غاضبًا :
ـ وإلا ماذا أيها الرقيع ؟.. هل تتحدّانى .
ثم أشار إلى المخبرين المصاحبين له ، هاتفًا :
ـ احملوه إلى القسم .. من الواضح أنه يحتاج إلى التهذيب .
ورفع رأسه فى زهو أمام (جيهان) ، مستطردًا :
ـ باسم القانون .
انقضّ المخبرون على (مفيد) ، وصفعه أحدهم فى قوة ، وهو يصرخ فيه :
تعال معنا .
صاحت (جيهان) مذعورة :
ـ ماذا تفعلون ؟!.. ألا تعرفون من هذا ؟
ابتسم الضابط فى سخرية ، وهو يقول :

ـ ومن سيكون ؟.. (أحمد رمزى) ، أم (عبد الحليم حافظ) ؟!
هتفت والمخبرون يحملون (مفيد) فى قسوة إلى سيارة الشرطة :
ـ إنه (مفيد) .. شقيق (حسين البنهاوى) .
لم تكد تنكر اسم (حسين) ، حتى امتقع وجه الضابط الشاب ، وارتجفت أطرافه ، وجحظت عيناه ، وهو يقول فى ارتياع :
ـ (حسين بك البنهاوى) ، الـ ...
لم يتمّ عبارته ، مع سقوط قلبه بين قدميه ، وشحب وجهه فى شدة ، حتى كاد يحاكى وجوه الموتى ، فى نفس اللحظة التى بلغ مسامعه فيها صوت الصفعة الثانية ، التى تهوى على وجه (مفيد) ، فاستدار بسرعة ، صارخًا فى المخبرين :
ـ كفى .. كفى أيها الحقراء .
ثم اندفع ينتزع (مفيد) من بين أيديهم ، وهو يقول فى خوف واضح :
ـ (مفيد) بك .. تقبّل أسفى واعتذارى يا (مفيد) بك .. كنت أجهل تمامًا من أنت .. سامحنى يا (مفيد) بك .. أرجوك .
ارتفع حاجبا (جيهان) فى دهشة ، مع ذلك الانقلاب الشديد ، الذى صاحب ذكر اسم (حسين) ، واختلج قلبها فى شدة ، وهى تهتف فى أعماقها :
ـ ربّاه !.. أيمتلك (حسين البنهاوى) كل هذه السطوة ؟
كان الضابط الشاب يكاد يبكى ، أمام أعين مخبريه المندهشة ، وهو ينفض غبارًا وهميًا عن ثياب (مفيد) ، قائلًا :
ـ قل لى إنك سامحتنى يا (مفيد) بك .. أرجوك .. عدنى بألا تغضب ، وألا تشكو الأمر لـ (حسين) بك .

مسح (مفيد) خيط الدم ، الذى سال على طرف شفتيه ، وهو يقول :
ـ اطمئن .. لن أفعل .
بدا الارتياح على وجه الضابط الشاب ، وهو يهتف :
ـ أشكرك .. أشكرك كثيرًا يا (مفيد) بك .
تضاعفت دهشة (جيهان) ، مع الموقف كله ، الذى بدا أشبه بمشهد هزلى ، فى فيلم سينمائى ردىء ، ولم تكد سيارة الشرطة تبتعد ، حتى هتفت :
ـ رائع .. هل رأيت ما فعله بهم ذكر (حسين) ؟
هزّ (مفيد) رأسه فى مرارة ، وهو يقول :
ـ نعم .. إنها كارثة .
قالت فى دهشة :
ـ كارثة ؟!
أجابها فى حزن :
ـ بالطبع .. إنها كارثة ، أن ترتبط حقوقك وآدميتك بوساطتك ، وليس بالعدل والقانون .. هل تتصوّرين ما كان يمكن أن يحدث ، لو لم أكن شقيق (حسين البنهاوى) ؟.. لاحظى أننى لم أرتكب جرمًا يعاقب عليه القانون .. كل ما فعلته هو أننى تحدّثت مع فتاة جميلة ، على قارعة الطريق ، فحاول ضابط شاب أن يبرز عضلاته أمامها ، على حساب الحق والعدل والقانون .
قالت فى دلال :
ـ ألم تكن لتفعل هذا ، لو كنت مكانه ؟
كانت تتوقّع منه مدحًا لجمالها وفتنتها ، ولكنها فوجئت به يجيب فى مرارة :

لست أتمنى أبدًا أن أحتل مكانه .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ على أية حال ، هذا يثبت أن لشقيقك (حسين) سطوة كبيرة .

ابتسم فى مرارة ، وهو يقول :

ـ كل ما رأيته مجرَّد قشرة صغيرة .. سلينى أنا ، فسلطات وسطوة (حسين) تتجاوز هذا بكثير .. بكثير جدًا .

أشعل هذا لهفتها وطموحها أكثر وأكثر ، وصرخ صوت الطمع فى أعماقها :

ـ لا تتركى (حسين) هذا يفلت منك أبدًا .

لحظتها ، اتخذت (جيهان) قرارها الأخير ، وكان قرارًا حاسمًا .. وجريئًا ..

★ ★ ★

ارتجفت (شريفة البنهاوى) ، وهى تتسلل إلى حديقة السراى الخلفية ، حاملة حقيبة ملابسها ، وهمست لـ (أمجد) فى هلع :

ـ أأنت واثق من أنه الحل الوحيد ؟

أجابها ، وهو يستقبلها فى لهفة :

ـ جربى التفكير فى حل آخر .. لقد أحكم (حسين) حصاره حولنا ، حتى لم يعد أمامنا من سبيل سوى أن نتزوَّج ، ونضعه أمام الأمر الواقع .

قالت فى توتر ، وهى تقترب معه من سور الحديقة الخلفية :

ـ ولكن ثورة (حسين) ستكون عارمة ، ولن يغفر لى أبدًا ، وسيسعى للانتقام منى ومنك ، حتى ولو كان هذا آخر ما يفعله فى حياته .

توقَّف (أمجد) ، وسألها فى حزم :

ـ (شريفة) .. هل تشعرين بالندم ؟

هتفت على الفور :

ـ مطلقًا .. إننى أحبك يا (أمجد) ، ولم أحب سواك ، فى حياتى كلها ، ولست أتردَّد لحظة واحدة فى الذهاب معك إلى آخر الدنيا .

ثم انخفض صوتها ، مع استطرادتها :

ـ ولكننى أشعر بالخوف .

أمسك كتفيها ، وقال محاولًا طمأنتها :

ـ لا تقلقى يا حبيبتى .. لقد درست الأمر جيدًا ، وأعتقد أننا عندما نتزوَّج ، سنضع (حسين) أمام الأمر الواقع تمامًا ، وسيخشى تأثير الفضيحة على مستقبله ، إلى الحد الذى يضطر معه لقبول الأمر .

غمغمت مرتجفة :

ـ أتمنى هذا .

ربَّت على كتفها ، ومنحها ابتسامة مشجِّعة ، وهو يقول :

ـ اطمئنى .. كل شىء سيسير على ما يرام بإذن الله .

ثم تلفَّت حوله ، وسألها فى حذر :

ـ أخبرينى .. هل يعلم أى مخلوق بما سنفعله ؟

هزَّت رأسها نفيًا فى قوة ، قائلة :

ـ مطلقًا .. لقد احتفظت بالأمر سرًا ، حتى أننى لم أخبر شقيقاتى .

سألها فى اهتمام :

ـ وهل تركت رسالة لتوضيح الأمر ؟

أجابته بسرعة :

ـ نعم ، ولكن أحدًا لن يعثر عليها قبل الصباح .

تنهَّد فى عمق ، وقال :
ـ فليكن .. دعينا نمض فى خطتنا ، على بركة الله .
ناولته حقيبتها ، وهى ترتجف من فرط الانفعال ..
كانت تعلم أنها ترتكب جريمة بكل المقاييس ، عندما تفرّ من السراى على هذا النحو ، وتتزوّج (أمجد) سرًا ..
ولكن (حسين) هو المسئول عن هذا ..
هو الذى اضطرها إلى مثل هذا الإجراء ، بتعنته ، وعناده ، وإصراره على رفض زواجها من (أمجد) ، بدون إبداء الأسباب ..
وما يحزنها فى الواقع ، هو أن تعنّت (حسين) سيحرمها من رؤية أسرتها طويلًا ..
وطويلًا جدًا على الأرجح ..
فهى تعرف (حسين) جيدًا ..
إنه لن يغفر لها ما فعلته ..
لن يغفره قط ..
وسالت دموعها على خديها ، وهى تراقب (أمجد) ، الذى تسلّق السور فى رشاقة ، وترك جسده كله يتدلّى من الجانب الآخر ، الذى نقل إليه حقيبتها ، وهو يمدّ يده إليها ، قائلًا :
ـ ناوليني يدك ، لأساعدك على الصعود .
لم تكد تمدّ يدها إليه ، حتى ارتفع صوت أحد الخفراء ، يصرخ :
ـ من هناك ؟.. من عند سور السراى ؟
اتسعت عيناها فى هلع ، وصاح بها (أمجد) :
ـ ابتعدى يا (شريفة) .. ابتعدى .

ارتفع الصوت يصرخ مرة أخرى :
ـ قف عندك .
شهقت (شريفة) فى ارتياع ، عندما اختفى (أمجد) من أمامها ، مع وقع أقدام الخفير ، وهو يعدو مقتربًا ، ويصرخ :
ـ قف .. قف وإلا أطلقت النار .
ثم دوت الرصاصات ، لتشق سكون الليل ..
وصرخت (شريفة) فى رعب ..
وسالت الدماء فى القرية ..

* * *

٢١ ـ زائـــرة ..

استقبل الرئيس (جمال عبد الناصر) (حسين) فى مكتبه بلهفة واضحة ، وصافحه فى حرارة وبساطة ، وهو يقوده إلى أريكة واسعة ، قائلًا :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (حسين) .. كيف وجدت الأوضاع هناك ؟

تنهَّد (حسين) ، وهو يقول فى أسف :

ـ كنت أتمنى أن أنقل إليك صورة وردية يا سيادة الرئيس ، ولكن الحقيقة تخالف ذلك للأسف ، فالأوضاع متردية للغاية هناك ، وتجاوزات العسكريين المصريين بلغت حدًا استفزازيًا ، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فى رفض السوريين تمامًا لفكرة التأميم ، التى نمهِّد لتطبيقها هناك .

قال الرئيس فى ضيق :

ـ هذا أمر طبيعى ، فالمفترض أن (مصر) و(سوريا) قد أصبحتا (الجمهورية العربية المتحدة) ، وليس من المنطقى أن نطبق التأميم فى الإقليم الجنوبى ، ثم لا يتم تطبيقه فى الإقليم الشمالى .

أجابه (حسين) :

ـ هذا صحيح يا سيادة الرئيس ، ولكن السوريين تجار بطبعهم ، وأى تاجر يرفض فكرة التأميم من جذورها .

أومأ الرئيس برأسه متفهمًا ، قبل أن يقول :

ـ هل تعلم يا (حسين) ؟.. لقد ظللت أحلم طيلة عمرى بقيام الوطن العربى الأكبر .. إنه حلم لم يفارقنى قط منذ حداثتى .. حلم أن يصبح العرب كلهم أمة واحدة قوية ، من المحيط إلى الخليج ، تخشاها الأمم كلها .. وعندما تمت الوحدة بيننا وبين (سوريا) ، تصوَّرت أنها الخطوة الأولى فى الحلم الكبير ، وخاصة بعد أن طلب (العراق) الانضمام إلينا .

ثم تنهَّد فى حرارة ، مستطردًا :

ـ ترى ما شعورك ، عندما تحقَّق حلمًا ، أو تقترب من تحقيقه ، ثم تراه يتحطَّم أمام عينيك ، بسبب بعض التصرفات غير المسئولة .

غمغم (حسين) :

ـ إنه أمر مؤسف بالفعل .

هزَّ الرئيس رأسه ، وتمتم :

ـ وأى أسف ؟

ثم استعاد صوته حيويته ، وهو يستطرد :

ـ هل كتبت تقريرًا بكل ما رأيته هناك ؟

أجابه (حسين) بسرعة :

ـ بل لدى ملف كامل يا سيادة الرئيس ، ولقد سلَّمته للسيِّد (محمود) ، سكرتير سيادتكم الخاص .

غمغم الرئيس :

ـ عظيم .

ثم نهض معلنًا نهاية اللقاء ، ورسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، مستطردًا :

ـ أشكرك يا (حسين) ، وحمدًا لله على سلامتك مرة أخرى .

صافحه (حسين) مغمغمًا :

ـ أنا رهن إشارتك يا سيادة الرئيس .

وعندما انصرف من مكتب الرئيس ، كان يشعر ببعض الضيق فى أعماقه ..

لماذا لم يشر الرئيس إلى ما وعده به ؟..

لماذا لم يتحدث بحرف واحد عن ترقيته ؟..

لازمه ذلك الشعور بالضيق ، حتى وصل إلى منزله فى (جاردن سيتى) ، وهناك استقبله خادمه فى حرارة ، قائلًا :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (حسين) بك .. لماذا لم تخبرنى بأمر سفرك مسبقًا ، حتى أتواجد فى المنزل لأودع سيادتك ؟

ناوله (حسين) سترته ، وهو يقول :

ـ كانت مأمورية عاجلة .

واصل الخادم حديث المجاملة ، ولكن (حسين) لم يسمع حرفًا واحدًا منه ، وهو يسترخى فوق الأريكة الوثيرة ، فى حجرة الاستقبال ، وراح عقله يسترجع تفاصيل آخر لقاء له مع (عايدة) قبل سفره ..

كم أدهشه يومها أن تطلب منه الزواج منها !..

(عايدة) المتغطرسة المغرورة ، صاحبة الشموخ والكبرياء ، والعناد بلاحدود ، تستخدم فيلمًا زائفًا ، لترغمه على الزواج منها !!..

كيف يمكن لها أن تفعل هذا ؟..

بل كيف يمكن أن تُقدم امرأة عادية على تصرّف كهذا ؟!..

ولم يقنع عقله أبدًا بأى تفسير ..

ولكن هذه هى (عايدة) ..

مخلوقة عابثة متقلبة ، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها قط ..

، هناك زانرة تطلب مقابلتك يا (حسين) بك .. ، ..

انتزعه خادمه بهذه العبارة من أفكاره وتساؤلاته ، فرفع عينيه إليه ، قائلًا فى دهشة :

ـ زانرة ؟!.. كيف أتت بهذه السرعة ؟

واعتدل جالسًا بسرعة ، وهو يعدّل رباط عنقه ، قائلًا :

ـ دعها تتفضّل بالدخول .

ونهض يرتدى سترته على عجل ، متوقعًا أن تدخل إليه الأميرة (عايدة) ، بين لحظة وأخرى ، لذا فقد ارتفع حاجباه فى دهشة واضحة ، عندما رأى فتاة جميلة ، ساحرة ، ذات فتنة طاغية ، تدلف إلى الحجرة ، قائلة :

ـ مساء الخير يا أستاذ (حسين) .. معذرة لأننى أتيت دون موعد سابق ، ولكننى كنت أرغب فى مقابلتك فور عودتك ، لأمر بالغ الأهمية .

ثم مدّت يدها لتصافحه فى رقة ، وهى ترسم على شفتيها أكثر ابتساماتها سحرًا وعذوبة ، وتهمس بصوت مثير :

ـ دعنى أقدّم نفسى أولًا .. أنا (جيهان) .. زميلة (مفيد) فى المدرسة .

هتف بسرعة :

ـ آه .. تفضّلى يا آنسة (جيهان) .. مرحبًا بك فى أى وقت .

التقطت طرف ثوبها ، وهى تجلس فى رقة وأناقة ، ومع حركتها

المدروسة ، تطاير عطرها ليملأ الحجرة ، ويتسلل إلى أنف (حسين) ، الذى جلس إلى جوارها ، وهو يبتسم قائلًا :

ـ أنت إذن رفيقة السينما .

أومأت برأسها إيجابًا ، فتأملها مليًا ، قبل أن يضيف :

ـ أنت أجمل مما تصوّرت بكثير .

أثلجت العبارة صدرها ، وضاعفت ثقتها بنفسها ، وبالخطة التى وضعتها لغزو قلبه ، وخاصة عندما سمعته يضيف :

ـ (مفيد) محظوظ حقًا ، لأنه سيحظى بفاتنة مثلك .

كان هذا هو طرف الخيط الذى تنشده ، لذا فقد جذبته فى رفق ، وهى تخفض عينيها الجميلتين ، هامسة :

ـ هذه هى المشكلة .

سألها (حسين) فى قلق :

ـ أية مشكلة ؟

تنهّدت فى عمق ، ورسمت الحزن على وجهها فى إتقان ، وهى تجيب :

ـ مشكلة (مفيد) معى .. إننى أتعامل معه بصفته صديقًا ، وزميلًا فى العمل ، ولكنه أساء فهم هذا الأسلوب ، وتصوّر أننى غارقة فى حبه .

قال (حسين) فى دهشة :

ـ عجبًا !.. كنت أتصوّر أنك تبادلينه مشاعره ، لأنه طلب منى أن أصطحبه لطلب يدك ، فور عودتى من السفر !

أجابته فى سرعة :

ـ وهذا ما يقلقنى ، فأنا لم أطلب منه هذا ، ثم إن ..

توقفت بغتة ، وركّزت عينيها فى عينى (حسين) ، مستطردة فى همس مثير :

ـ ثم إن (مفيد) ليس الطراز الذى يروق لى .

غرق لحظة فى عينيها الجميلتين ، ثم سألها فى خفوت :

ـ وما الطراز الذى يروق لك إذن ؟

تركته يذوب فى عينيها بعض الوقت ، قبل أن تجيب فى همس لافح :

ـ طرازك أنت .

كانت مبادرة بالغة الجرأة منها ، ولكن تلك الاختلاجة فى شفتيه وعينيه أنبأتها بأنها تسير فى الطريق الصحيح ..

الصحيح تمامًا ..

★ ★ ★

عدّل طبيب الوحدة الصحية بالقرية منظاره الطبى ، وزفر فى إرهاق ، وهو ينتزع محقنه من ذراع (شريفة) ، التى راحت تبكى وتنتحب فى انهيار كامل ، وغمغم متوترًا :

ـ يا لها من ليلة !.. من النادر أن نصادف هذا فى قرية عادية .

سأله (مفيد) فى قلق :

ـ هل تعتقد أن هذا الدواء سيفيدها ؟

أومأ الطبيب برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتأكيد .. إنه عقار مهدّئ ، وهى مصابة بانهيار عصبى حاد ، وتحتاج إلى بعض النوم والهدوء .

مصمصت (نعيمة) شفتيها ، وقالت فى حسرة :

ـ يا للمسكينة !.. لقد أفزعتها الطلقات النارية ، فمن النادر أن نسمعها هنا .

عقد (مفيد) حاجبيه فى ضيق ، فى حين أخفى الطبيب ابتسامته ، وهو يقول :

ـ يبدو أنها ليلة النوادر .

سأله (مفيد) :

ـ وماذا عن الآخر ؟

هزّ الطبيب رأسه ، وقال :

ـ حالته ليست مطمئنة .. لقد أجرينا له كل ما نستطيع من إسعافات أوّلية ، ولكن إصاباته بالغة ، فقد اخترقت إحدى الرصاصات ظهره ، من الناحية اليسرى ، وعلى مقربة من القلب ، وغاصت الثانية فى معدته ، والثالثة قطعت وريده العنقى ، ولكنها لم تستقر فى جسده ، ومع كل هذه الإصابات ، أعتقد أنه سيحتاج حتمًا إلى جراحة عاجلة ، بأيدى أطبّاء مهرة ، ولهذا أرسلناه بسيارة الإسعاف إلى المستشفى العام فى (طنطا) .

سأله (مفيد) فى قلق :

ـ وما فرصته فى النجاة فى رأيك ؟

أومأ الطبيب برأسه عدة مرات ، قبل أن يقول :

ـ لا أعتقد أنها تتجاوز العشرين فى المائة .

انفجرت (شريفة) ضاحكة مرة أخرى ، وراحت تنتحب فى شدة ، فرمقها الطبيب بنظرة جانبية ، واستطرد :

ـ ولكن ينبغى أن يكون إيماننا بالله (سبحانه وتعالى) كاملًا .

تنهّد (مفيد) ، وقال :

ـ إنه كذلك والحمد لله .

ولم يكد يغادر الحجرة ، ليوصل الطبيب إلى باب السراى ، حتى قالت (فاطمة) بخشونتها المعهودة :

ـ يا للفضيحة !.. يا للعار !.. كيف يرى أهل القرية وجوهنا بعد هذا ؟

قالت لها (نعيمة) فى غضب :

ـ اصمتى يا (فاطمة) .

لوّحت (فاطمة) بكفيها ، وهى تقول :

ـ أصمت ؟!.. أصمت على ماذا يا صاحبة السعد والهناء ؟!.. هل تظنين أن القرية ستنسى الفضيحة ، لو التزمت أنا الصمت ؟

صاحت بها فى غضب أشد :

ـ قلت لك : اصمتى .

ولكن (فاطمة) تجاهلت الأمر تمامًا ، وهى تقول مولولة :

ـ ثرى ماذا سيفعل (حسين) بك ، عندما يعرف ما فعلته أخته ؟

انتفض جسد (نعيمة) من شدة الغضب هذه المرة ، وهى تصرخ :

ـ هل تتعمدين استفزازى يا امرأة ؟.. اخرجى من هنا .. لم أعد أطيق رؤية وجهك القبيح .

هزّت (فاطمة) كتفيها فى استهتار ، وهى تتجه إلى الباب ، قائلة :

ـ سأخرج يا ربة الصون والعفاف ، ولكن هذا الوجه القبيح ، الذى لا تطيقين رؤيته ، لم يمنح نفسه لرجل إلا بالحلال .

بكت (شريفة) أكثر وأكثر، على الرغم من تأثير العقار المهدّئ، الذى أرسل النوم إلى جفونها، فى حين قالت (نعيمة) فى سخط:

ـ هذه الحقيرة تستحق القتل.

أجابتها (شريفة) فى مرارة:

ـ دعيها يا (نعيمة).. دعيها تقول ما لديها، فلم يعد هناك ما يهمنى، بعد ما أصاب (أمجد).

تطلّعت إليها (نعيمة) لحظات فى استنكار، قبل أن تقول محتدة:

ـ لست أصدق نفسى !!.. كيف جرؤت على فعل هذا يا (شريفة) ؟!..

كيف طاوعتك نفسك على تعريض اسم (البنهاوى) لهذا العار ؟!

هتفت (شريفة)، من وسط دموعها:

ـ لم يكن هناك حل آخر.. (حسين) لم يترك لى سوى هذا.

أجابتها (نعيمة) فى غضب:

ـ حتى لو اضطرتك الظروف للبقاء دون زواج طيلة عمرك، ما كان لك أبدًا أن تفعلى هذا.

عضت (شريفة) شفتيها قهرًا، وهى تقول:

ـ بالطبع.. من السهل على زوجة مثلك أن تقول هذا.. من السهل عليكن جميعًا أن تنتقدن ما فعلت، وأن تعترضن وتبدين الأسف والامتعاض، فما من واحدة منكن جرّبت البقاء هكذا دون زواج.

شعرت (نعيمة) بتأنيب الضمير، فربّتت عليها، قائلة فى إشفاق:

ـ لا تقولى هذا يا (شريفة).. أنت أجمل بنات القرية، وكل شاب فى الدنيا يتمنّى الزواج منك.

ابتسمت (شريفة) فى سخرية مريرة، على الرغم من الدموع التى تغرق وجهها، وهى تقول:

ـ أين هم إذن ؟.. أرسلى فى طلبهم، وسيخبروك أننى لست بالجميلة التى تتصوّرينها.. سلى (فؤاد)، الذى جاء لخطبتى، ولم يكد يرى (ناهد)، حتى طرحنى خلف ظهره، وكأننى كمّ قمامة، وتشبّث بها.. اطلبى من (حسين) أن يشرح لك لماذا وافق على هذا ؟.. بل استدعى (فاطمة)، وسليها ما موقعى فى السراى بالضبط.. لقد أصبحت خادمة يا (نعيمة).. مجرّد خادمة لعائلة (البنهاوى) كلها.. حتى فى المواسم والأعياد، عندما تجتمع الأسرة كلها، لا تحاول واحدة منكن أن تغسل الأطباق التى تأكل فيها، مع زوجها وأولادها.. إنكم تتناولون طعامكم، وأقداح الشاى، وأطباق الحلوى والفاكهة، ثم ينصرف الجميع، تاركين ما تبقى للخادمة الحقيرة (شريفة البنهاوى).

همهمت (نعيمة) فى أسى:

ـ كنا نتصوّر أن (فاطمة) تتولّى الأمر كله.

هتفت (شريفة):

ـ (فاطمة) ؟!.. إنك تذكرين السبب الرئيسى لغضبى ونقمتى.. إننى الوحيدة المضطرة لاحتمال تلك الحقيرة ليل نهار.

تنهّدت (نعيمة)، قائلة:

ـ كان الله فى عونك.

انهمرت دموع (شريفة) مرة أخرى، وهى تقول:

ـ لقد كان (أمجد) بالنسبة لى هو الأمل.. الأمل فى الفرار من كل هذا.. فى أن أصبح ربة منزل، لا يشاركنى فيه أحد.. منزل

أكون أنا أميرته وصاحبته وسيِّدته .. كان (أمجد) هو الحب الوحيد ، الذى ملأ قلبى ، فى حياتى كلها .

ربتت عليها (نعيمة) فى أسى وإشفاق ، مغمغمة :

ـ كلنا نحبك يا (شريفة) .

قهقهت (شريفة) ضاحكة فى مرارة شديدة ، وهى تقول :

ـ آه .. هذا واضح .. انظرى كيف تلتفون جميعًا حولى فى محنتى .

شهقت (نعيمة) ، قبل أن تهتف :

ـ لا تسيئى تفسير الموقف يا (شريفة) .. إننا لم نبلغ (ناهد) ، حتى لا يعلم زوجها (فؤاد) بالأمر ، فأنت تعرفين سوء العلاقة بينه وبين (حسين) ، ولم نشأ أن نمنحه فرصة للتشفى والشماتة ، أما (توحيدة) ، فهى مريضة جدًا هذه الأيام ، حتى أن زوجها (عبد الحكيم) يفكر فى عرضها على كبار الأطباء فى الخارج .

تمتمت (شريفة) ، وهى تمسح دموعها :

ـ إننى أدعو لها دائمًا بالشفاء .

انخفض صوت (نعيمة) ، وبدت شديدة التوتر ، وهى تقول :

ـ الشىء الذى يقلقنى بشدة ، هو ماذا سيفعل (حسين) عندما يبلغه أمر ما حدث ؟

انتفض جسدها مع جسد (شريفة) فى عنف ، عندما ارتفع من خلفها صوت (حسين) ، وهو يقول فى غضب :

ـ لا داعى للتساؤل ، فسيأتيك الجواب على الفور .

قفزت (نعيمة) من مقعدها ، وهى تهتف :

ـ (حسين) .. اهدأ يا (حسين) .. سأشرح لك كل شىء .

أما (شريفة) ، فقد أخفت وجهها بذراعيها ، وراحت تصرخ :

ـ لا .. لا يا (حسين) .. أرجوك .

صاح (حسين) فى غضب صارم :

ـ لن أضربك يا (شريفة) ، ولن ألمس شعرة واحدة من رأسك ، ولكننى سأعاقبك على نحو آخر .

قال (مفيد) من خلفه فى حدة :

ـ هل ستحرمها من إيراد الأرض أيضًا ؟

التفت إليه (حسين) ، قائلًا :

ـ لا شأن لك بهذا .. لا تتدخل فى الأمر .

ولكن (مفيد) واجهه متحديًا ، وهو يقول :

ـ (شريفة) أختى ، مثلما هى أختك يا (حسين) ، ولن أسمح لأحد أبدًا أن يمسَها بسوء ، ثم إننى سئمت أسلوبك الملتوى هذا .. إنك تتحجج بالغضب وبأخطاء الآخرين ، لتحرمهم من نصيبهم فى إيراد الأرض ، وتحتفظ به لنفسك .. لقد نسيت وصية والدنا رحمه الله ، واستبحت لنفسك كل شىء .

اشتعل غضب الدنيا كله فى وجه (حسين) ، وهو يقول :

ـ أهذا ما تظنه .. صحيح أننا شقيقان ، ولكن من الواضح أنك تجهل تمامًا من هو (حسين البنهاوى) .. إننى لا أستبيح لنفسى قط قرشًا واحدًا من أموال الآخرين ، وكل مليم من نصيب (حافظ) أو (ناهد) ، من إيرادات الأرض ، يوضع بانتظام فى دفترى توفير ، الأوَّل باسم (طارق) ، والثانى باسم (ناهد) نفسها .

شعر (مفيد) بتأنيب الضمير ، وهو يغمغم مرتبكًا :

ـ لم أكن أعلم هذا .

أجابه (حسين) فى صرامة

ـ ولكن كان ينبغى أن تتوقعه .

خفض (مفيد) عينيه أرضًا لحظة ، ثم لم يلبث أن اعتدل فى حزم ، وهو يقول :

ـ هذا عظيم بالنسبة لـ (ناهد) و (حافظ) ، ولكننى مازلت أمنعك من أن تمسّ (شريفة) بسوء .

أجابه (حسين) فى غضب :

ـ لو أننى أردت تمزيقها إربًا ، فلن يمكنك اعتراض طريقى أيها التافه .

ثم التفت إلى (شريفة) ، التى تولاها الرعب ، مستطردًا :

ـ إننى لن أغفر لك هذا أبدًا يا (شريفة) ، وبناء على ما حدث ، ستتغيّر معاملتى لك إلى الأبد ، أما بالنسبة لـ (أمجد) ، فقد أذعت فى القرية كلها أنه مجرّد لص ، حاول سرقة السراى ليلًا ، فأطلق عليه الخفير النار .

قال (مفيد) فى حدة :

ـ وماذا لو أنكر (أمجد) هذا ؟

أجاب (حسين) فى صرامة :

ـ لن يفعل .

ثم أضاف فى سرعة :

ـ أنا قادم على التو من المستشفى العام فى (طنطا) .

حدّقت فيه (شريفة) فى ارتياع ، وخفق قلبها فى عنف ، وهو يستطرد :

ـ البقاء لله .. لقد لقى (أمجد) مصرعه ، فى حجرة العمليات الجراحية .

ولثانية أو ثانيتين ، ران على الحجرة صمت رهيب ، قطعته (شريفة) بصرخة رهيبة ..

صرخة قلب يحتضر .

* * *

٢٢ ـ الانفصـال ..

اندفعت (سوسن) تعبر ساحة المدرسة ، فى خطوات سريعة كعادتها ، إلا أن خطواتها هذه أبطأت كثيرًا ، فى ذلك اليوم بالذات ، عندما وقع بصرها على (مفيد) ، الذى يجلس وحيدًا فى أحد الأركان ، وقد دفن وجهه بين كفيه ، وبدا من الواضح أنه يتمزّق نفسيًا بشدة ..

وخفق قلبها من أجله ..

صحيح أنهما انفصلا رسميًا ، منذ ما يقرب من أربعة أعوام ، إلا أن قلبها مازال يحمل له الكثير والكثير من المشاعر ..

وفى صمت مشفق ، وقفت (سوسن) تتطلّع إليه بعض الوقت ، وقلبها يتصارع مع عقلها فى عنف ، وكل منهما يقاتل لفرض إرادته ، والانتصار لموقفه ..

عقلها يطالبها بمواصلة السير ، وترك (مفيد) وشأنه ، حتى لا يتصوّر أنها مازالت تحبه ، وتسعى لاستعادته ..

وقلبها يصرخ فى عناد : نعم تحبينه ..

تحبينه من كل قلبك ..

وما غضبك وثورتك إلا تعبير عن هذا الحب ..

الحب الذى لم يحتمل رؤيته ، وهو يندفع نحو (مديحة) ، ويتخلّى عنك ..

اعترفى يا (سوسن) ..

أنت تحبينه ..

تحبينه ..

تحبينه ..

ـ « صباح الخير يا (مفيد) .. » ..

جاءت العبارة هامسة مرتجفة ، معلنة انتصار قلبها فى معركة المشاعر ، فرفع (مفيد) عينيه إليها فى دهشة ، وانتفض قلبه مع كلماته ، وهو يهتف :

ـ (سوسن) ؟!.. غير معقول .

ارتجف جسدها مرة أخرى ، وهو ينطق اسمها ، وراودتها نفسها على الفرار ، إلا أنها أسرعت تجلس إلى جواره ، قبل أن يهزمها عقلها ، وقالت مشفقة :

ـ لماذا تبدو حزينًا هكذا ؟

وكم أسعده سؤالها !..

كم ملأ قلبه بحب لا حدود له ، وهو يتطلّع إلى وجهها الهادئ الجميل !..

وفى حنان حزين ، سألها :

ـ أما زال أمرى يهمك يا (سوسن) ؟

تخضّب وجهها بحمرة الخجل ، وأشاحت به مرتبكة ، فارتفع حاجباه فى حنان ، وخفق قلبه فى لهفة ..

إذن فهذا حقيقى ..

إنها لم تكرهه ، كما كان يتصوّر ..

إنها تحبه ..

مازالت تحبه ..

ولكن خجلها غلب حبها هذه المرة ، فنهضت محاولة الانصراف ، إلا أنه تشبّث بكفها ، قائلًا فى ضراعة :

ـ لا .. لا تنصرفى .. أرجوك .

سرت فى جسدها قشعريرة عنيفة ، مع تلامس يديهما ، وجذبت كفها منه فى توتر ، وهى تقول :

ـ ماذا تفعل ؟!.. أنسيت أننا وسط ساحة المدرسة .

قال متوسلًا :

ـ لا أحد هنا .. الإجازة الصيفية لم تنته بعد ، والجميع سوانا يحضرون متأخرين .

ثم كرّر :

ـ وأنا أحتاج إلى التحدث إليك .. أرجوك .

ترددت لحظة ، ثم عاودت الجلوس ، وسألته :

ـ أأنت حزين بسبب انفصالك عن (جيهان) ؟

ابتسم فى مرارة ، وهو يجيب :

ـ أنا حزين لألف سبب آخر ، فالسراى عندنا أصبحت كئيبة ، وكل شىء لم يعد على ما يرام ، منذ أصيبت (شريفة) بالانهيار العصبى ، وأصبحت منعزلة فى حجرتها طوال الوقت ، و (فاطمة) هى التى تقوم بكل العمل وحدها ، ولا تتوقف عن الشكوى والصياح ، وشقيقتى (توحيدة) تتدهور صحتها باستمرار .. ويمكنك إضافة انفصال (جيهان) غير المفهوم .. هل تكفيك كل هذه الأسباب لتبرير حزنى ، أم أنك مستعدة لسماع الباقى ؟!

أشاحت بوجهها ، وهى تقول :

ـ (جيهان) لم تكن تناسبك أبدًا .. لقد سعت خلف ثرائك ،

وتصوّرت أنك منقذها من الفقر الذى تعيش فيه ، وعندما كشفت أن كل شىء باسم (حسين) ، انهار السبب الذى سعت إليك من أجله ، فانفصلت عنك دون تردد .

قال فى دهشة :

ـ أهذا كل ما يهمها ؟!.. المال والثروة ؟!

تنهّدت قائلة :

ـ ربما بدا لك هذا نوعًا من الحقارة والوصولية ، ولكنك لم تذق طعم الفقر أبدًا ، ولو أنك فعلت ، فمن يدرى ما ستكون عليه شخصيتك ، وما ستسير عليه من مبادئ .

قال فى ضيق حاد :

ـ لو أننا التمسنا الأعذار ، لكل خائن ومنافق ، لما وجدنا من يستحق العقاب فى العالم أجمع ، فالسارق يحتاج إلى النقود ، والقاتل مضطر لما فعل ، وحتى النصاب والمغتصب والسفاح .. كل منهم لديه المبرّر لما فعل .. أمام نفسه على الأقل .

أشارت إليه قائلة :

ـ فليكن .. لم أكن أقصد ما قلته بالضبط .. كانت مجرّد محاولة لتهدئة الموقف ، ولكن يبدو أننى أسأت التعبير .

تنهّد فى عمق ، وقال :

ـ معذرة .. من الواضح أن أعصابى متوترة للغاية .

غمغمت فى خفوت :

ـ من الواضح أن انفصال (جيهان) عنك يؤرقك .

هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليس انفصالها فى حد ذاته ، ولكن الوسيلة التى استخدمتها

لتفعله .. لقد تجاهلتنى تمامًا ، وراحت تعاملنى بجفاء شديد ، وغلظة لا مبرّر لها ، وفى النهاية ، أخبرتنى بكل قسوة أنها لن تستمر معى ، لأنها مرتبطة بآخر .

تطلّعت إليه (سوسن) لحظات فى حذر ، قبل أن تسأله :

ـ ألم تخبرك من هو هذا الآخر ؟

أجاب فى تلقائية :

ـ كلّا .

ثم انعقد حاجباه بغتة ، وهو يسترجع أسلوب ولهجة (سوسن) ، فى نطق السؤال ، والتفت إليها ، يقول فى توتر :

ـ ولكنك تعرفينه يا (سوسن) .. أليس كذلك ؟

ارتبكت (سوسن) ، وهى تقول :

ـ الواقع أننى ..

قاطعها فى انفعال :

ـ أخبرينى من هو .. إنك تعرفينه .. لا داعى للإنكار .

خفضت (سوسن) عينيها لحظات فى صمت وأسى ، قبل أن تجيب :

ـ إنه (حسين) .

تراجع (مفيد) كالمصعوق ، وهو يقول :

ـ (حسين) ؟!.. (حسين) من ؟!

غمغمت (سوسن) :

ـ (حسين) شقيقك .. (حسين البنهاوى) .

وكانت الصدمة عنيفة ..

عنيفة للغاية ..

★ ★ ★

تطلّع (حسين) إلى (إبراهيم مكّى) فى دهشة لبضع لحظات ، قبل أن يمسك ذقنه بسبّابته وإبهامه ، قائلًا فى حذر :

ـ إذن فـ (فؤاد) يفكّر جديًا فى الإبلاغ عن تجاوز أرض (البنهاوى) للحد الأقصى للملكية الزراعية !

أومأ (إبراهيم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. ولقد طلب منى مساعدته على القيام بهذا .

عقد (حسين) حاجبيه ، وتراجع قليلًا ، وهو يتطلّع إلى ابتسامة (إبراهيم) الخبيثة ، قبل أن يقول :

ـ يدهشنى أنك لم تفعل .

اتسعت ابتسامة (إبراهيم) ، إزاء هذه المواجهة الصريحة ، وهو يقول :

ـ من المؤكّد أن هذا كان كفيلًا بإثارة سعادتى وحماسى ، فى ظروف أخرى ، أما الآن ، وبعد أن واجهت بعض المواقف ، التى قلبت الموازين فى رأسى ، وبعد دراسة متأنية للأمر ، وجدت أنه من الأكثر حكمة ألا أفعل .

ابتسم (حسين) فى سخرية ، قائلًا :

ـ لا تقل لى : إنك فجأة ، أصبحت تهتم بمصالحى .

هزّ (إبراهيم) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ مطلقًا .

ثم تراجع بمقعده ، مستطردًا بنفس الابتسامة ، التى تسيل خبثًا ودهاءً :

ـ ولكننى أطبّق قاعد بسيطة ، علمتك إياها قديمًا .. أيام كنت مجرّد طالب فى الكلية الحربية .. هل تذكرها ؟

سأله (حسين) فى حذر :

ـ كلّا .. ما هى بالضبط ؟

اتسعت ابتسامة (إبراهيم)، وهو يميل نحوه مرة أخرى، ويجيب :

ـ فكّر جيدًا ، قبل أن تتخذ قرارك ، واختر دائمًا الجانب الأقرب إلى الربح .

فتح (حسين) شفتيه ، وهمّ بقول شىء آخر ، عندما اقتحم (صلاح) الحجرة بغتة ، وهو يهتف فى انزعاج واضح :

ـ هل سمعتما آخر الأخبار ؟

التفت إليه الاثنان فى دهشة وتساؤل ، وهو يتابع فى سرعة :

ـ لقد قام السوريون بانقلاب عسكرى ، وأعلنوا انفصالهم عن الوحدة ، وأيقظوا المشير (عبد الحكيم عامر) من نومه ، ووضعوه فى الطائرة بالبيجاما ، وأرسلوه إلى هنا .

وثب (حسين) من مقعده ، وهو يقول :

ـ يا لها من تطورات !.. كنت أتوقع هذا .. كنت أتوقعه منذ عودتى من (دمشق) .

واختطف سترته ، مستطردًا :

ـ أراهن على أن الموقف متوتر للغاية الآن ، وأن سيادة الرئيس سيطلبنى على الفور .

هتف به (إبراهيم) ، وهو يتابع انصرافه السريع :

ـ إلى أين ؟

أجابه (حسين) فى انفعال :

ـ هل تعتقد أننى سأنتظر ، حتى يطلبنى سيادته .

وكعادته ، لم يضع (حسين) لحظة واحدة ، وانطلق بسيارته

بأقصى سرعة ، حتى وصل إلى منزل الرئيس ، وهناك ، كان من الواضح أن الموقف متأزم للغاية ، فقد اجتمع الرئيس (جمال) بالمشير (عبد الحكيم عامر) ، الذى ارتدى ثيابه العسكرية ، ومعهما (على صبرى) ، وعدد من قادة الجيش ، الذين يرغون ويزبدون ، والرئيس يواجههم فى صرامة ، هاتفًا :

ـ كلّا .. هذا قرارى الأخير ، ولن أتراجع فيه قط .

مال (حسين) على أذن السكرتير الخاص للرئيس ، وهو يسأله :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه السكرتير فى توتر ، عم المكان كله :

ـ عندما عاد المشير من (سوريا) ، كان منفعلًا وغاضبًا للغاية ، حتى أنه أقنع سيادة الرئيس بإرسال فرقة من رجال المظلات إلى هناك ، لقمع الانقلاب ، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه ، وبعد أن انطلقت الطائرة بالفعل ، راجع الرئيس موقفه ، وبدا له أن هذا الإجراء لا يناسب الموقف أبدًا ، فمعناه الوحيد أننا قد تحوّلنا إلى دولة استعمارية ، تفرض الوحدة بالقوة ، وهكذا أصدر سيادته أوامره بإلغاء العملية ، وعودة الطائرة ، قبل هبوط جنود المظلات ، والمشير غاضب للغاية ، ويحاول إقناع الرئيس باستخدام القوة ، وسيادة الرئيس يرفض الآن بشدة .

أومأ (حسين) برأسه متفهمًا ، وهو يقول :

ـ موقف حكيم .

ثم سأل فى اهتمام :

ـ ولكن هل تعتقد أن وجودى ضرورى الآن ؟

أجابه السكرتير فى لهجة مهذبة :

ـ أنت من المرحَّب بوجودهم فى أى وقت يا أستاذ (حسين) ، والأوامر لدى حرّاس البوابة ، تتيح لك القدوم وقتما تشاء ، ولكننى أعتقد أنه من الأفضل ، فى مثل هذه الظروف ، أن تترك القادة وحدهم ؛ فهم لا يميلون إلى أن يشاهدهم أحد ، فى لحظات الغضب والثورة .

مرة أخرى ، أومأ (حسين) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ فليكن .. أنا فى منزلى ، لو طلبنى السيِّد الرئيس .

لم يكن ذلك الانفصال مفاجئًا له بالفعل ، فقد اطلع بنفسه على تردّى الأحوال فى (دمشق) ، وكان يتوقّع بلوغ هذا الحد ..

وفى منزله ، راح يدرس الموقف مرة أخرى ، ويحاول استنتاج التطورات القادمة ، وهو يرتشف قدح شاى ساخن فى الشرفة ، متطلّعًا إلى شروق الشمس ، و ...

وفجأة ، ارتفع رنين جرس الباب ..

وفى دهشة ، تطلّع (حسين) إلى ساعته ، وهو يتمتم :

ـ عجبًا !.. من يأتى فى مثل هذه الساعة ؟

استيقظ الخادم على رنين الجرس ، ولكن (حسين) سبقه إلى الباب ، وفتحه فى لهفة ، وهو يتوقّع رؤية أحد رجال الحرس الجمهورى ، أو زملاء عمله ، أو ...

واتسعت عيناه فى دهشة بالغة ، وهو يحدّق فى وجه الأميرة (عايدة) ، التى ابتسمت فى صعوبة ، وهى تقول :

ـ هل .. هل أيقظتك ؟

لم تكن (عايدة) نفسها التى يعرفها ، وإنما كانت أخرى ، منتفخة الأجفان ، زائغة البصر ، وبين سبّابتها ووسطاها سيجارة مشتعلة ،

امتدّ رمادها لسنتيمترين أو يزيد ، وثوبها مرتبك ، وكأنما ترتديه منذ شهر كامل ..

وعلى الرغم من دهشته ، أفسح لها (حسين) الطريق فى سرعة ، وهو يقول :

ـ مطلقًا .. إننى مستيقظ بالفعل .. تفضلى يا (عايدة) .. تفضّلى .

دلفت إلى الشقة فى خطوات مرتبكة ، ولوّحت بيدها ، قائلة :

ـ معذرة يا (حسين) ، ولكننى شعرت برغبة عارمة فى رؤيتك ، ولم أستطع مقاومة الحضور ، و ...

قاطعها (حسين) فى قلق :

ـ متى وصلت من (باريس) يا (عايدة) ؟

ارتجفت شفتاها ، وهى تقول :

ـ منذ .. منذ ثلاثة أيام .

هتف فى دهشة :

ـ ولماذا لم تأت إلىَّ على الفور ؟

خفضت عينيها ، وبدت له يائسة بائسة ، على نحو لم يعهده فيها قط من قبل ، حتى أنه ، وعلى الرغم من كل ما فعلته به ، شعر نحوها بالشفقة ، وكرّر فى صوت منخفض :

ـ لماذا يا (عايدة) ؟

وفجأة انفجرت (عايدة) باكية ، وهى تهتف :

ـ (حسين) .. إننى أشعر بالخوف .

ثم ألقت نفسها بين ذراعيه ، وتركت دموعها تغسل صدره ، مستطردة :

ـ أكاد أموت خوفًا .

ـ (حسين) .. إننى أشعر بالخوف :

ثم ألقت نفسها بين ذراعيه ، وتركت دموعها تغسل صدره ..

احتواها فى حنان قلق ، وهو يهمس فى أذنها :

ـ لا تخافى أبدًا وأنت معى يا (عايدة) .. لا أحد يمكنه أن يمسّ شعرة واحدة منك ، وأنا على قيد الحياة .

دفنت رأسها فى صدره ، وهى تبكى فى مرارة ، قائلة :

ـ لا أريد العودة إلى (باريس) يا (حسين) .. أرجوك .. لا أريد العودة إلى هناك .

تنهَّد وهو يربِّت على رأسها ، مغمغمًا :

ـ سنرى ما يمكننا فعله يا (عايدة) .. سنرى .

ولكن عقله ظلّ يردِّد فى شك حذر قلق : «ولكن لماذا يا (عايدة) ؟!.. لماذا ؟!.. »

وكان على حق فى تساؤله ..

لماذا تخشى العودة إلى (باريس) إلى هذا الحد ؟..

لماذا ؟!..

★ ★ ★

قهقه (ميخائيل بن ناثان) فى ظفر ، وهو يقول لمساعده :

ـ وبالشهامة المصرية التقليدية ، لن يستطيع (حسين) بك مقاومة دموع الأميرة المسكينة ، التى طارت من (باريس) إلى (القاهرة) ، فى حالة مؤسفة مزرية ؛ لتستنجد بفارسها المغوار ، الذى سيسعى لإثبات تفوّقه أمامها ، ويحتويها فى قبضته ، دون أن يدرى أنها هى التى تحتويه فعليًا .

سأله مساعده فى قلق :

ـ ولكن هل تعتقد أن الأميرة ستحسن القيام بدورها ، وستظلّ على ولائها لنا ؟

أجابه (ميخائيل) فى ثقة :

ـ اطمئن .. كل النساء موهوبات فى فن التمثيل والخداع ، والأميرة تخشانا فى شدة ، ولن تجرؤ على خداعنا قط .

أومأ المساعد برأسه ، قائلًا :

ـ المهم أن يصدّقها الرجل .

ضحك (ميخائيل) ، قائلًا :

ـ إنه غارق فى هواها ، والمصريون لديهم مثل شعبى يقول : « مرآة الحب عمياء » ، ثم إن مبرراتها منطقية للغاية ، فقد تعرّضت معه لمحاولة قتل بالفعل ، فى قلب (باريس) ، ومن الطبيعى أن تخشى العودة إليها .

قال المساعد مبتسمًا :

ـ نعم يا سيّدى .. أعتقد أن كل شىء سيسير على ما يرام .

لوّح (ميخائيل) بيده ، قائلًا :

ـ بالتأكيد .. لقد أحسنّا وضع الخطة ، وقريبًا جدًا ، سيصبح لدينا جاسوس مثالى ، يجهل حتى أنه يعمل لحسابنا .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ جاسوس فى مكتب الرئيس المصرى .. فى مكتب (جمال عبد الناصر) نفسه .

وانطلقت ضحكته ظافرة مجلجلة .

* * *

٢٣ ـ تمـرّد ..

« هل سمعت آخر الأخبار يا أستاذ (مفيد) ؟.. »

نطق الحاج (سعفان) هذه العبارة ، فى محاولة لانتزاع (مفيد) من شروده ، وهما يجلسان فى المقهى الجديد ، الذى أقيم فى نفس الموقع ، الذى كان يحتله مقهى (جودة) ، فالتفت إليه (مفيد) فى بطء ، وقال :

ـ ما هى ؟!

أشار الحاج (سعفان) إلى الصحيفة التى يمسكها ، قائلًا :

ـ المؤتمر القومى وافق على صدور الميثاق ، وتقرّر إلغاء الاتحاد القومى ، وتشكيل الاتحاد الاشتراكى .

ابتسم (مفيد) فى سخرية مريرة ، وهو يقول :

ـ وما الفارق ؟!

هتف الحاج (سعفان) :

ـ فارق كبير يا أستاذ (مفيد) .. هذا اتحاد قومى ، وذاك اتحاد اشتراكى .

ضحك (مفيد) ساخرًا ، وهو يقول :

ـ وما الفارق بينهما وبين هيئة التحرير ؟!.. صدقنى يا عمدة ، كلها مسميات لنظم سخيفة وفاشلة ، ترسم صورة باهتة لديموقراطية زائفة ، فى محاولة لإخفاء وجه الديكتاتورية ، أو تجميله بأصباغ خادعة .

امتقع وجه الحاج (سعفان) ، وتلفّت حوله فى ذعر ، هاتفًا :
ـ ماذا تقول يا (مفيد) يا ولدى ؟
أجابه (مفيد) فى حدة ، وفى صوت سمعه الجميع :
ـ أقول الحقيقة يا عمدة .. إننا نعيش فى ظل نظام ديكتاتورى صرف ، وإلا ما ارتجفتم جميعًا ، لمجرّد أننى أقول الحقيقة .
سرت موجة من التوتر فى المقهى ، وبدأ رواده يتسللون منصرفين ، وكأن كلمات (مفيد) تبث فى نفوسهم الرعب ، فى حين مال عليه الحاج (سعفان) ، هامسًا فى ارتياع :
ـ لا داعى لهذا يا ولدى .. أرجوك .. حديثك هذا لن يجلب لنا سوى المتاعب ..
قال (مفيد) بصوت أكثر ارتفاعًا ، وكأنه يتحدّى العالم كله :
ـ أعلم هذا يا حاج (سعفان) .. أعلم أنه لم يعد لنا حتى حق الاعتراض أو الانتقاد .. بل وأعلم أن هذا المقهى ليس مجرّد مكان عادى ، لتناول الشاى والقهوة ، أو لعب النرد والدومينو والشطرنج .. ألم تسأل نفسك من (شعبان) هذا ، الذى ظهر فى القرية من العدم ، وأنشأ هذا المقهى ، فى موضع مقهى (جودة) القديم بالتحديد ؟!.. ألم ينتبه أحدكم إلى أن اهتمامه بالأحاديث الدائرة فى المقهى ، يفوق اهتمامه بطلبات زبائنه ؟!.. ثم أين ذهب (جودة) ؟.. أين اختفى ؟!.. لو أننا فى بلد حر يا حاج (سعفان) ، لما تلاشى مواطن هكذا من الوجود ، بحيث لم تعد أمه نفسها تعلم أين هو ، ولا ماذا أصابه .
تلفّت الحاج (سعفان) حوله فى توتر هلع ، وهمهم بكلمات مضطربة متوترة ، ثم نهض فى حدة ، وهو يقول :

ـ معذرة يا (مفيد) يا ولدى .. لقد تذكّرت فجأة موعدًا هامًا .
وهرول مبتعدًا عن المقهى ، الذى خلا من رواده تقريبًا ، فتابعه (مفيد) ببصره فى ازدراء ، وهو يقول :
ـ لك الله يا (مصر) .. لم يعد أحد يجرؤ حتى على سماع الحقيقة .
لم يكد يعود إلى موضعه ، حتى اصطدمت عيناه بعينى (شعبان) ، الشبيهتين بعينى ثعلب ، وهو يقول بابتسامة لا تبعث الارتياح :
ـ أية مطالب أخرى يا (مفيد) بك ؟
أجابه (مفيد) فى صرامة :
ـ نعم .. لدى مطلب واحد .
ثم نهض فى حركة حادة ، مستطردًا :
ـ اتركنا لحالنا ، وعد إلى رؤسائك ، وقل لهم : « الله يمهل ولا يهمل » .. ولا تنسى ذكر اسمى وعنوانى .
لم ينبس (شعبان) ببنت شفة ، ولم تختف ابتسامته أو تخفت ، أو تفقد طابعها الثعلبى الخبيث .
إنه حتى لم يعترض ..
لقد ظلّ صامتًا ، مبتسمًا ، وهو يراقب (مفيد) ، الذى غادر المكان فى حدة ، هاتفًا :
ـ ولكن ما الفائدة ..
وعندما بلغ (مفيد) ذلك الطريق الترابى ، الذى يمتد إلى السراى ، اغرورقت عيناه بالدموع ، وتصاعدت غصة كبيرة إلى حلقه ، وانقبض صدره فى مرارة ..
إنه لم يعد يحتمل حبس كل هذا القهر والغضب فى أعماقه ..
لم يعد يحتمل كل ما يحدث حوله ..

لقد مرّت عليه الأشهر الستة الماضية كألف عام ، منذ علم من (سوسن) أن (جيهان) قد تركته وتخلّت عنه ، لتلقى نفسها فى أحضان (حسين) ..

(حسين) ، شقيقه الأكبر ، الذى تسبّب بأنانيته ونرجسيته فى تدمير الجميع ..

(شريفة) أصبحت مجرّد ظل امرأة ، تتحرّك وتعمل ، وتؤدى كل المطلوب منها ، دون أن تشكو أو تعترض ، أو حتى تدخل فى تلك المشاحنات المستمرة مع (فاطمة) ..

و (فاطمة) نفسها أصبحت أكثر شراسة ، تميل للتحرّش بالجميع دون مبرّر ، حتى بزوجها (حافظ) ..

الوحيد الذى لم يفقد مرحه وشقاوته هو (طارق) ..

(طارق) ، الذى لولاه لأصبحت الحياة فى السراى أشبه بالعيش داخل قبر مغلق ..

أما (سوسن) فقد تحسّنت علاقتها به ، ولكنها لم تعد أبدًا كما كانت ..

لقد افتقرت لعامل بالغ الأهمية ..

للثقة ..

إنها تشعر معه بالقلق والحذر ، على الرغم من أنهما يلتقيان فى المدرسة ، ويتحدثان لفترات طويلة ، قد تصل إلى ساعة أو ما يزيد ..

حتى فى فترة الدراسة ، كانا ينتهزان الفرصة فى فترة الفسحة ، وفترات الراحة بين الحصص المختلفة ، ليتبادلا بعض الحديث والآراء ..

وفى كل مرة تقريبًا ، كانت (جيهان) تلمحهما ، ثم تبتسم فى سخرية ، وكأنها تعلن انتصارها ، وانتقالها من (البنهاوى) البسيط ، إلى ملك البنهاوية وصاحب السلطة والسطوة (حسين البنهاوى) ..

ومع ابتسامتها هذه ، كانت (سوسن) تذوب خجلًا وارتباكًا ، وتضطرب فى وقفتها معه ، أو تنصرف مسرعة ، وحمرة الخجل تخضّب وجهها ..

وكان من الواضح أن (حسين) سخىَ للغاية فى علاقته بـ (جيهان) ، فقد تبدّلت هيئتها ، وازدادت فتنتها وتضاعف سحرها ، وأصبحت ترتدى ثيابًا جديدة أنيقة ، وأحذية لامعة غالية الثمن ، وبلغت ثقتها بنفسها حدًا فاق الغرور ، حتى أنها استوقفت (سوسن) ذات مرة ، قائلة :

ـ كيف حال حبيب القلب ؟

ارتبكت (سوسن) عندئذ ، وهى تقول :

ـ حبيب القلب من ؟!

أجابتها (جيهان) فى سخرية :

ـ لا داعى للمناورة .. كلنا نعرف أن علاقتك بـ (مفيد) عادت أفضل مما كانت من قبل .

تخضّب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تتمتم مرتبكة :

ـ الأمر ليس كما تتصوّرون .. (مفيد) مجرّد زميل ، و ...

قاطعتها (جيهان) بضحكة ساخرة ، ضاعفت خجلها وارتباكها ، قبل أن ترمقها بنظرة متعالية متهكمة ، وهى تقول :

ـ لا تقلقى أو تضطربى هكذا يا عزيزتى (سوسن) ، فأمر (مفيد) لم يعد يعنينى على الإطلاق .. إنه مثل حذاء أعجبنى ، فارتديته بعض الوقت ، ولن يقلقنى قط التفكير فيمن سيرتديه من بعدى .

كانت عبارة وقحة للغاية ، وتفتقر إلى أبسط قواعد الذوق واللياقة ، حتى أنها مزّقت قلب (سوسن) فى عنف ، وجعلتها تنفجر باكية ، فارتسمت على شفتى (جيهان) ابتسامة ظافرة ، وكأنها بهذا قد بلغت ما تبتغيه ، وانصرفت فى زهو ظافر مختال ..

ولولا بكاء (سوسن) العنيف ، وأعصابها المنهارة ، لما علم (مفيد) بما حدث قط ..

إنه حتى لم يعرفه من (سوسن) نفسها ، وإنما من زميلة لها ، تصادف أن التقط سمعها الجزء الأخير من الحوار ..

ويومها اشتعل غضبًا ، وكاد ينقضّ على (جيهان) ، ويشبعها ضربًا ، لولا أن منعته تربيته وأخلاقه ، وتوسّلت إليه (سوسن) ألا يفعل ، حتى لا يتحوّل الأمر إلى فضيحة ، وبالذات فى بلدة صغيرة مثل (طنطا) ..

ومنذ ذلك اليوم ، كره (مفيد) (جيهان) ..

كرهها وكره موقفها ، وموقف (حسين) ، الذى لم يجد غضاضة فى انتزاعها منه ، دون أن يتردّد لحظة واحدة ..

وكعادته ، لم يحتمل كتمان الأمر فى أعماقه ، فواجه به (حسين) ، واتهمه بخيانته وخداعه ، ولكن (حسين) استقبل الأمر فى برود عجيب ، واكتفى بأن قال :

ـ صدقنى يا (مفيد) .. هذه الفتاة لا تناسبك .

قال له فى غضب :

ـ ومن أدراك أنها لا تناسبنى ؟

رمقه (حسين) بنظرة خاوية ، قبل أن يجيب :

ـ لو أنها تناسبك ، لما تركتك بهذه البساطة .

لم تستغرق مناقشتهما أكثر من هذا ، وشعر (مفيد) أن (حسين) على حق تمامًا فيما قاله ، وأن (جيهان) لم تكن تناسبه بالفعل ..

ولكن هذا لم ينتزع حنقه وغضبه من أعماقه ..

وربما كانت ثورته المضاعفة هذه ، على الدولة وسياساتها والحريات المفقودة فيها ، ليست سوى انعكاس لغضبه وثورته على (حسين) ..

ربّما ..

« (مفيد) بك .. (مفيد) بك .. » ..

انتزعه النداء من شروده وأفكاره ، ورأى شيخ الخفراء (بسيونى) يهرع نحوه ، فسأله فى لهفة قلقة :

ـ ماذا هناك يا (بسيونى) ؟.. ماذا حدث ؟

لهث الرجل فى شدة ، وهو يجيب منفعلًا :

ـ شقيقتك يا (مفيد) بك .. شقيقتك (توحيدة) .

هتف (مفيد) فى هلع :

ـ مالها أصابها يا رجل ؟!.. أجب .

خفض (بسيونى) عينيه ، مغمغمًا فى حزن وأسى :

ـ البقاء لله يا (مفيد) بك .

وكانت صدمة عنيفة ..

★ ★ ★

لم يحدث فى تاريخ القرية كلها ، أن حظيت امرأة بسرادق عزاء ، فى ضخامة ذلك الذى أقيم لـ (توحيدة البنهاوى) ..

لقد احتلّ مساحة واسعة للغاية ، أمام السراى مباشرة ، ليمكنه استقبال تلك الأعداد الهائلة من المعزين ، الذين توافدوا من القرية

ومن (طنطا) و(القاهرة)، لتقديم واجب العزاء لعائلة (البنهاوى) ..

وبالذات لـ (حسين البنهاوى) ..

ويبدو أن القرى البسيطة لا تعتاد رؤية كبار القوم فى سهولة، فعلى الرغم من أن العديدين من أصحاب الوجوه المعروفة، والأسماء الشهيرة، قد زاروا سراى (البنهاوى) مرة أو مرتين، فى ضيافة (حسين)، إلا أن وجودهم جميعًا فى زمان ومكان واحد، كان كفيلًا بإبهار أهل القرية، ومضاعفة احترامهم ورهبتهم من عائلة (البنهاوى) ..

ولم يتخلَّف شخص واحد عن الحضور ..

حتى (عمر)، جاء لتقديم واجب العزاء، وأصرَّ على البقاء حتى النهاية، وتلقَّى العزاء بنفسه، باعتباره أحد أفراد العائلة ..

أما النساء، فقد كان حزنهنَّ عارمًا وعنيفًا ..

صحيح أن (توحيدة) ظلَّت تعانى المرض طويلًا، ولكن أحدًا لم يكن يتصوَّر أن مشوار العلاج الطويل سينتهى بها إلى الموت ..

وخاصة أن زوجها (عبد الحكيم) لم يدخر جهدًا أو مالًا، فى سبيل علاجها، وكانت صحتها قد تحسَّنت بالفعل فى أيامها الأخيرة، كما لو أنها تستنفد آخر أنفاسها دفعة واحدة ..

أو أنها صحوة الموت ..

ولقد بكت (شريفة) كثيرًا فى ذلك اليوم، وكأنها انتهزت الفرصة لإفراغ كل دموع وانفعالات نفسها دفعة واحدة ..

و(فاطمة) نفسها بكت، كما لم تبك من قبل ..

ربما لأن (توحيدة) كانت أقل أفراد عائلة (البنهاوى) قسوة، فى التعامل معها ..

أو لأنها لم تكن تحتك بها كثيرًا ..

أما الأطفال، فلم يثر الأمر فيهم الكثير من الانفعالات أو الأحزان ..

كل ما ملأ قلوبهم الصغيرة، هو أنها فرصة اجتمعوا فيها، ليمارسوا لهوهم ولعبهم معًا، فانتشروا فى الحديقة الخلفية، وتعالت صيحاتهم المرحة، لتمتزج بنحيب النساء، وأصوات المقرئين، وتصنع صورة خاصة، لا يمكنك أن تراها فى مثل هذه الظروف ..

ووسط كل هذا، وصلت (جيهان) إلى القرية ..

كانت ترتدى ثوبًا أسود بسيطًا، وتتحرَّك فى توتر ملحوظ، وعيناها تجوبان المكان فى لهفة واضحة ..

ولم يكد بصرها يقع على (حسين)، وهو يودِّع (إبراهيم مكى) و(مراد صقر) و(صلاح)، حتى اتجهت نحوه فى جرأة، ودون أن تتردَّد لحظة واحدة، وانتظرت حتى انطلق الثلاثة بسيارتهم، وتقدَّمت نحو (حسين)، قائلة:

- البقاء لله يا (حسين) بك.

التفت إليها (حسين) فى حركة حادة، ورمقها بدهشة وضيق، قبل أن يصافحها قائلًا:

- سعيك مشكور يا آنسة (جيهان) .. تفضَّلى بالداخل، فعزاء النساء هناك، و ...

قاطعته بعصبية هامسة :

ـ لماذا تتجاهلنى هكذا ؟

انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ ليس هذا مكان وزمان مناقشة مثل هذه الأمور .

تابعت ، وكأنها لم تسمعه :

ـ لقد اتصلت بك عشر مرات على الأقل ، وحاولت مقابلتك أكثر من مرة ، ولكنك تتجاهلنى تمامًا .

قال فى حدة :

ـ قلت لك : ليس هذا وقت مناقشة تلك الأمور .

صاحت فى حنق :

ـ متى إذن ؟

كان صوتها أعلى مما ينبغى ، حتى أنها لفتت إليها أنظار الجميع ، فأثار هذا حنق (حسين) فى شدة ، وجعله يقول لها فى صرامة :

ـ اسمعى .. لم تخلق بعد المرأة ، التى يمكنها أن تضعنى فى موقف محرج ، مهما كانت الظروف .. انصرفى الآن ، أو ادخلى السراى ، لتقديم واجب العزاء لشقيقاتى ، ولكن إياك أن تتكلمى أو تتحدثى معى الآن ، فى أى شأن كان .

قالت متحدية :

ـ وماذا لو لم أفعل ؟

انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ ستدفعين الثمن غاليًا .. غاليًا جدًا .

وبدلًا من أن تخيفها كلماته ، كما كان يتوقع ، اندفعت تقول فى حدة :

ـ ماذا تظننى يا (حسين) بك ؟.. واحد من رجالك فى العمل ؟!.. هل تتصوَّر أننى سأنسحب أو أتراجع ، لمجرَّد أنك هدَّدتنى على هذا النحو ؟!.. ما الذى يمكنك أن تفعله معى ؟.. هل ستحاول اعتقالى ؟

أجابها ، وقد بلغ غضبه ذروته :

ـ هناك وسائل أكثر فاعلية .

أطلقت ضحكة عالية ، فجَّرت دهشة الجميع ، قبل أن تقول :

ـ أرنى تلك الوسائل إذن يا (حسين) بك .. هيا .. هأنذا أمامك .. حاول أن ..

أخرستها بغتة صفعة قوية ، هوت على خدها ، من يد (حسين البنهاوى) ، الذى صاح فى أحد رجاله فى غضب :

ـ ألق هذه الحقيرة خارجًا .

حدَّقت (جيهان) فى وجهه بذهول ، قائلة :

ـ (حسين) !.. أنا لم أكن أقصد أن ..

انقضَّ عليها رجال (حسين) ، فلم تستطع إكمال عبارتها ، فى حين تطلَّع (حسين) إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول غاضبًا :

ـ لا تنسى ما قلته لك .. ستدفعين الثمن غاليًا .

انتزعها الرجال بعيدًا ، قبل أن تضيف حرفًا واحدًا ، وساد وجوم عجيب فى المكان ، والكل يتساءلون عن الفتاة ، وعما فعلته ، مما استفزَّ (حسين) إلى هذا الحد ، ولكن هذا الأخير استعاد سيطرته على نفسه بسرعة مدهشة ، والتفت إلى الجميع ، قائلًا فى هدوء عجيب :

ـ شكر الله سعيكم .

(مفيد) وحده كان يختنق مما حدث ، على الرغم من أنه لم يحاول التدخل أبدًا ..

لقد فهم من الموقف أن (حسين) لم يعد يلتقى بـ (جيهان) كذى قبل ..

لقد بدأ يتجاهلها فى لا مبالاة كعادته ، كلما سئم ما لديه ..

ولكن ، هل كان (حسين) جادًا ، عندما أشار إلى أنه سيجعلها تدفع الثمن ؟!..

ثم ما ذلك الثمن ، الذى يمكن أن تدفعه (جيهان) ؟!..

ما هو بالتحديد ؟..

مر به السؤال فى ذهنه طويلًا ، وحمل عشرات الأجوبة ، ولكن (مفيد) لم يكن واثقًا من أى جواب منها ..

لم يكن واثقًا أبدًا ..

الشىء الوحيد الذى يثق به ، هو أن (حسين) لن يغفر لها ما فعلته أبدًا ، وأن الثمن الذى ستدفعه سيكون فادحًا ..

فادحًا للغاية ..

★ ★ ★

« أخطأت يا (جيهان) .. »

هتفت شقيقتها بالعبارة فى جزع ، قبل أن تستطرد مذعورة :

ـ ما كان لك أن تفعلى هذا قط .. إنك تتحدين (حسين البنهاوى) ، على الرغم من ثقتك بسلطاته وقدرته على الانتقام !!.. كيف تقع (جيهان) فى مثل هذا الخطأ ؟.. لقد كنت أعتبرك دائمًا أستاذة فى التخطيط والتدبير !.. كيف غلبك انفعالك هذه المرة ؟!

فركت (جيهان) كفيها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ لست أدرى .. أنا نفسى أدهشنى ما حدث ، ولكن (حسين) يتجاهلنى بالفعل ، منذ فترة طويلة ، مما أثار أعصابى بشدة ، وجعلنى أشعر أن كل ما بنيته ووضعت خططه ، ينهار أمام عينىّ بمنتهى البساطة .

ثم لوّحت بذراعها ، مستطردة فى حدة :

ـ هل تعلمين ما يعنيه تخلّى (حسين) عنى ؟!.. إنه يعنى أننى قامرت بكل أوراقى على جواد خاسر .

أجابتها شقيقتها فى حذر :

ـ لست أدرى يا (جيهان) .. يلوح لى أنك أخطأت حساباتك هذه المرة .

قالت (جيهان) فى عصبية شديدة :

ـ أخطأت ؟!.. لماذا أخطأت ؟.. لقد درست الأمر ألف مرة ، وجمعت كل المعلومات الممكنة عن عائلة (البنهاوى) ، وبالذات عن (حسين) ، وبعدها زرته فى منزله .

هزّت شقيقتها رأسها ، وقالت :

ـ كان تصرفًا بالغ الجرأة منك .

أجابتها فى حزم عصبى :

ـ ولكنه كان ضروريًا .. لقد أنفقت يومها نصف ما لدى ، لشراء زجاجة عطر جديدة ، لها رائحة أنثوية فوّاحة ، تدير رءوس الرجال ، ونجحت فى استمالته بالفعل ، حتى أننى لم أغادر منزله ، إلا بعد أن طلب منى أن ألقاه مرة أخرى .. وطوال ثلاثة أشهر كاملة ، كان كل شىء يسير على ما يرام ، فأسافر إليه فى نهاية كل أسبوع ،

وأقضى يومى كله معه ، وهو يغمرنى بالهدايا والثياب والعطور ، حتى تصوَّرت أننى أحكمت قبضتى عليه تمامًا ، ولكنه فجأة ألقانى جانبًا ، وراح يتجاهلنى تمامًا ، فلم أحتمل الأمر ، ووجدت أن موت شقيقته فرصة مناسبة لمقابلته ، وكان ما كان .

تنهَّدت شقيقتها فى أسف ، قائلة :

ـ وفى هذه المقابلة خسرت كل شىء ، والأدهى أنه هدَّدك بالانتقام منك .

قالت (جيهان) فى غضب :

ـ بل الأدهى أنه جرؤ على صفعى أمام الجميع .

وضعت شقيقتها يدها على كتفها ، قائلة فى تعاطف حنون :

ـ (جيهان) .. صحيح أننى شقيقتك الصغرى ، ولكن أرجوك أن تستمعى إلى نصيحتى .. تخلى عن هذا الأمر يا (جيهان) ، فاللعبة أصبحت أكبر منك .. اتركى كل شىء ، قبل أن تنقلب الأمور على رأسك ، وتندمين عندما لا ينفع الندم .

هتفت (جيهان) فى حنق :

ـ مستحيل !.. مستحيل !

ثم انتزعت نفسها من يد شقيقتها ، مستطردة فى عصبية شديدة :

ـ أنت تطلبين منى التخلّى عن أحلامى .. عن طموحاتى .. عن الصورة التى وضعت نفسى فيها ، كزوجة لرجل ثرى ، من ذوى النفوذ ، تطلبين منى الانسحاب ، وبكل بساطة ، من معركة حشدت كل جيوشى من أجلها .. لا .. لن أتراجع الآن قط ، وسأمضى فى معركتى حتى النهاية .

سألتها شقيقتها فى قلق مشفق :

ـ ولكن ماذا ستفعلين ؟!.. لقد سد (حسين) فى وجهك كل الطرق .

أجابتها فى حدة :

ـ ليس بعد .

ثم انعقد حاجباها فى تصميم ، وهى تستطرد :

ـ مازال أمامى إجراء أخير .. إجراء قد يعيد إلىَّ كل ما خسرته ، ويجعلنى أربح المعركة فى النهاية .

تضاعف قلق شقيقتها ، وهى تسألها :

ـ أى إجراء هذا ؟

ولم تجب (جيهان) ، فقد كانت تدرك أن هذا الإجراء بالذات بالغ الجرأة ..

أو بالغ الحماقة ..

* * *

٢٤ ـ قـرار ..

تنحنح (صلاح) ، وارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة المقيتة الصفراء ، وهو يدلف إلى مكتب (حسين) ، قائلًا بلهجة ملؤها النفاق والتزلّف :

ـ صباح الخير يا (حسين) بك .. كيف حال سعادتك هذا الصباح ؟

لم يبال (حسين) بالرد على التحية ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ هل أنجزت ما طلبته منك يا (صلاح) ؟

أجابه (صلاح) بنفس الابتسامة :

ـ بالطبع يا (حسين) بك .. طلباتك كلها أوامر .. إننى لا أتأخر لحظة واحدة ، فى تنفيذ كل ما تأمرنى به ، وعلى أكمل وجه ممكن .

انعقد حاجبا (حسين) ، وهو يقول :

ـ أريد أن يتم الأمر بالصورة التى طلبتها تمامًا .

انحنى (صلاح) ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا (حسين) بك .. لقد أعددنا كل شىء ، ولا ينقصنا سوى أوامر سيادتكم ، وإشارتكم بالتنفيذ .

ثم سأل فى خبث :

ـ هل حدّدت سعادتك الموعد المناسب للتنفيذ ؟

صمت (حسين) لحظات ، ثم أشار بيده ، قائلًا :

ـ ليس بعد .

اعتدل (صلاح) ، وهو يقول :

ـ فليكن يا (حسين) بك .. نحن رهن إشارتك دائمًا .

أشار إليه (حسين) بالانصراف ، ولكن (صلاح) ظلّ واقفًا ، حاملًا ابتسامته الثقيلة على شفتيه ، فسأله (حسين) فى حدة :

ـ ماذا هناك ؟

أجابه (صلاح) ، بنفس اللهجة المتزلّفة :

ـ معذرة يا (حسين) بك ، ولكن هناك أمر ما ، أعتقد أنه من الأفضل أن أطلعك عليه .

تسلّل القلق إلى نفس (حسين) وصوته ، وهو يسأل :

ـ أى أمر هذا ؟

مال (صلاح) نحوه ، وهمس :

ـ أمر يتعلّق بشقيق سيادتكم (مفيد) بك .

أزاح القلق كل المشاعر الأخرى ، عند هذه النقطة ، واحتلّ مكان الصدارة فى قلب (حسين) ، الذى سأل فى توتر :

ـ ماذا يخصّ (مفيد) ؟.. أخبرنى يا رجل ؟

اعتدل (صلاح) ، بعد أن تيقّن من أنه قد ترك التأثير المنشود ، وأجاب :

ـ سيادتك تعلم أننا أقمنا مقهى آخر ، فى موضع مقهى (جودة) ، وأننا عيّنّا هناك واحدًا من رجالنا ، لتسمّع الأحاديث ، وجمع المعلومات عن كل من يناهض النظام ، ولقد وافانا رجلنا هذا بتقرير ضخم عن (مفيد) بك ، يقول فيه : إنه يهاجم الدولة وسياساتها ، وقوانينها ، ونظمها علانية ، وطوال الوقت .

امتقع وجه (حسين) ، وهو يقول :

ـ وأين هذا التقرير ؟

هزَّ (صلاح) رأسه فى أسف ، قائلًا :

ـ لقد راودتنى نفس الفكرة يا (حسين) بك .. أن أحضر التقرير وأعدمه ، ولكن (شعبان) أصرّ على تسليمه لـ (مراد) بك مباشرة .

سرت قشعريرة فى جسد (حسين) ، ثم لم تلبث أن تحوّلت إلى غضب هادر ، وهو يدرس الموقف فى سرعة :

ـ إذن فهذه لعبة (مراد صقر) الجديدة ..

هذا هو الأسلوب ، الذى توصّل إليه ، للانتقام منه ، وإضعاف مركزه ..

لقد حصل على معلومات رسمية ، تؤكّد أن (مفيد) أحد المناهضين للنظام ، ولن يجد صعوبة فى استصدار أمر باعتقاله على الفور ..

و (مفيد) منحه هذه الفرصة على طبق من فضة ..

(مفيد) بعناده وسخافاته ، أصرّ على تحدّى النظام كله ، حتى أوصل الأمور إلى هذه الهاوية ..

كم نصحه ألا يفعل ..

كم حاول إقناعه بالعدول عن حماقاته وسخافته ..

ولكن .. ما فائدة البكاء والندم الآن ؟!..

لقد وقع المحظور ، وأصبح (مراد صقر) يمتلك سلاحًا قويًا ، يصلح لتدميره تمامًا ..

وهو يعلم ما سيفعله (مراد) بهذه المعلومات ..

إنه لن يكتفى بإصدار أمر باعتقال (مفيد) ، وإنما سيقدّم تقريره ، ليؤكّد أنه شقيقه ، ويطالب باستبعاده من العمل ، وإحالته للتقاعد ..

ولن تكون هناك وسيلة لمنع هذا ..

ولكن لا ..

انتفض جسد (حسين) فى حزم ، وهو يطلق تلك الصرخة فى أعماقه ..

لن يحطّم (مفيد) مستقبله ، بسبب تصرّفاته الهوجاء غير المسئولة ..

لن يدمّر أحلامه كلها ..

لن يقف فى سبيل طموحاته ..

ولكن ، كيف السبيل لمنع كل هذا ؟

انطلق عقله يدرس ويبحث فى سرعة وتوتر ..

وفجأة ، قفزت الفكرة إلى رأسه ..

كانت فكرة عنيفة ، قاسية ..

ولكنها كانت الحل الوحيد ..

وبلا تردّد ، وبكل الحزم فى أعماقه ، رفع (حسين) عينيه إلى (صلاح) ، وقال :

ـ أريد أن أسند إليك عملًا عاجلًا .

اعتدل (صلاح) ، قائلًا :

ـ أنا رهن إشارتك يا (حسين) بك .

وبدون كلمة إضافية ، سحب (حسين) ورقة كبيرة من أمامه ، وراح يدوّن بها قراره ..

أصعب قرار فى حياته كلها ..

★ ★ ★

ارتفع حاجبا خادم (حسين) فى دهشة ، وهو يتطلّع إلى وجه (جيهان) ، التى بدت فى ذلك اليوم صورة للفتنة الطاغية ، فى ثوبها الوردى الأنيق ، الذى يتناسق على جسدها فى إبداع كامل ، وزينتها المتقنة ، وذلك العطر الأنثوى الفوّاح ، الذى يدير رءوس أعتى الرجال ..

وفى ارتباك ، قال الخادم :

ـ معذرة يا آنستى .. (حسين) بك أمرنى بـ ...

دفعته فى حزم ، وأزاحته جانبًا ، وهى تدلف إلى الشقة ، قائلة :

ـ (حسين) هو الذى طلب منى الحضور إلى هنا .

ارتبك الخادم أكثر ، وغمغم :

ـ ولكنها أوامره .

استدارت إليه ، ورسمت على شفتيها ابتسامة عذبة ، وهى تقول :

ـ هل تصوّرت أنه من الممكن أن أحضر إلى هنا ، لو لم يطلب منى ذلك بنفسه ؟

بدت الحيرة على وجه الخادم ، وتردّد بضع لحظات ، قبل أن يحسم أمره ، قائلًا :

ـ فليكن يا آنستى ، مادامت هذه أوامر (حسين) بك .

أشارت بيدها فى رقة ، قائلة :

ـ عظيم .. والآن .. أعدّ لى كوبًا من عصير الليمون ، فالجو حار جدًا فى الخارج ، وحلقى جاف للغاية .

انحنى لها الخادم فى احترام ، قائلًا :

ـ أمرك يا آنستى .

ولم يكد ينصرف لإعداد عصير الليمون ، حتى تطلّعت إلى المرآة ، وتحسّست شعرها فى حذر ، وتأمّلت ثوبها وزينتها ، وقلبها يخفق فى عنف ..

لقد قرّرت أن تستخدم آخر سلاح فى جعبتها ، للاستيلاء على قلب (حسين البنهاوى) ..

أنوثتها ..

اليوم ستحكم سيطرتها عليه ..

ستجعله يتنسّم عطر أنوثتها ، كما لم يفعل من قبل ..

ولكنه لن يمسّ شعرة واحدة منها ..

ستلهب مشاعره ، وتسيّل لعابه ، دون أن تسمح له بالاقتراب ..

وهذا سيشعله حتمًا ..

سيستفز رجولته فى عنف ..

ومع إصرارها ، سيدرك أنه ما من سبيل إليها ، سوى الزواج ..

فقط الزواج ..

وابتسمت مزهوة بنفسها ، وهى تطالع وجهها فى المرآة للمرة الأخيرة ، فى نفس اللحظة التى سمعت فيها صوت المفتاح ، يدور فى ثقب الباب ، فاستدارت تواجه القادم ، وهى ترسم على شفتيها أكثر ابتساماتها سحرًا وعذوبة ، و ...

وانتفض جسدها كله فى عنف ..

لم يكن ذلك القادم هو (حسين) كما توقّعت ، ولكنه (عايدة) ..

الأميرة (عايدة) ..

وفى دهشة ، حدّقت كل منهما فى الأخرى ، والأسئلة تصرخ فى العيون ، وتسيل من الشفاة ..

ما الذى يعنيه هذا ؟..
فاتنة تدخل المنزل بمفتاحها ، فتجد أمامها أخرى فى ردهته !!..
أى موقف هذا ؟..
من صاحبة الحق فى التواجد هناك ؟!..
وفى ذهول ، هتفت (جيهان) :
ـ من أنت ؟!
رمقتها (عايدة) بنظرة طويلة ، تفيض بالاستعلاء والازدراء ، من أسفلها إلى أعلاها ، قبل أن تقول :
ـ يا له من سؤال ، يشفّ عن السخافة والحماقة !
ثم صاحت فى صرامة :
ـ (رشاد) .. أين أنت ؟
هرع إليها الخادم ، وهو يرتجف قائلًا :
ـ فى خدمتك يا سمو الأميرة .
صرخت (جيهان) :
ـ سمو ماذا ؟
أجابتها (عايدة) فى سخرية لاذعة :
ـ سمو الأميرة يا عزيزتى .. ألم تسمعى اللقب من قبل ؟.. إنه يعنى أننى نبيلة الأصل ، ذات دماء زرقاء ، وأنه من التواضع الجمّ أن أتحدّث لفتاة مثلك ، من عامة الشعب .
كان من الواضح أن (عايدة) قد استرجعت شخصيتها الطبيعية تمامًا ، فقد احتقن وجه (جيهان) ، وهى تقول فى عصبية :
ـ كنت أتصوّر أن زمن الأميرات قد انتهى ، مع قيام الثورة .

أطلقت (عايدة) ضحكة طويلة ساخرة ، قبل أن تقول :
ـ لا تصدّقى كل ما يدرّسونه لك فى المدرسة أيتها الذكية .
هتفت بها (جيهان) ، ودموعها تكاد تفرّ من عينيها :
ـ كيف تجرؤين على ..
قاطعتها (عايدة) بصيحة صارمة :
ـ اخرسى .
تراجعت (جيهان) كالمصعوقة ، و (عايدة) تتابع فى غضب :
ـ أنا أجرؤ على فعل ما يحلو لى .. أنا التى أحمل مفتاح الشقة ، وهذا يعنى أن صاحبها لم يسمح لسواى بدخولها .
وأشارت إليها ، وهى تسأل الخادم :
ـ من سمح لهذه الحشرة بالدخول ؟
ارتبك المسكين ، وهو يقول :
ـ لقد أخبرتنى أن سيّدى (حسين) هو الذى ...
صاحت (جيهان) فى حدة :
ـ لست حشرة .
صاحت بها (عايدة) :
ـ بالتأكيد ، فأنت أحقر من هذا .
اندفعت (جيهان) نحوها ، وهى تهتف :
ـ أنا أيتها الـ ...
استقبلتها (عايدة) بصفعة عنيفة ، صارخة :
ـ إياك أن تنطقيها .
جنّ جنون (جيهان) مع الصفعة ، فانقضّت على (عايدة) ، وجذبتها من شعرها فى قسوة ، وارتفع صريخهما معًا ،

وهما تتشابكان بالأيدى ، والخادم المسكين يحاول عبثًا تخليصهما ، حتى ارتفع صوت (حسين) فجأة ، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟

انفضّ الاشتباك فجأة ، فور سماعهما لصوته ، وهتفت (عايدة) :

ـ (حسين) .. من حسن الحظ أنك وصلت الآن .. هذه المتوحشة اقتحمت المنزل ، وانهالت علىّ ضربًا .

صرخت (جيهان) :

ـ بل هى التى صفعتنى على وجهى ، وكادت تفقأ عينى بأظفارها الطويلة .

صاحت (عايدة) :

ـ كاذبة حقيرة .. أنت التى ...

قاطعهما (حسين) فى غضب :

ـ كفى .. لو نطقت إحداكما بحرف واحد ، سألقيها من النافذة دون تردّد .

ثم التفت إلى (جيهان) ، وسألها فى شراسة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

أجابته متوترة :

ـ أتيت لزيارتك .. كنت أودّ أن ...

قاطعها فى حدة :

ـ ومن طلب منك الحضور لزيارتى ؟

تراجعت كالمصعوقة ، وهتفت :

ـ (حسين) .. إننى ..

مرة أخرى ، قاطعها ، وهو يشير بسبّابته إلى الخارج ، قائلًا فى غضب :

ـ اخرجى .

هتفت مصدومة ، مع ابتسامة (عايدة) الظافرة الساخرة :

ـ (حسين) ؟!.. هل تطردنى ؟

أجابها فى قسوة :

ـ نعم .. إننى أطردك من المنزل .. ومن حياتى كلها .. هيا .. اخرجى .. لا أريد رؤية وجهك بعد الآن قط .

احتقن وجهها بشدة ، وبدا لحظة ، من انفراجة شفتيها ، وارتفاع حاجبيها ، أنها ستتوسّل إليه ، إلا أنها لم تلبث أن هتفت فى صرامة :

ـ كلّا يا (حسين) .. لن أخرج .. لن أخرج إلا بعد أن أؤكّد لك أننى لن أتهاون عن فضح أمرك فى (مصر) كلها .. لقد خدعتنى يا (حسين) .. خدعتنى وجعلتنى أتخلّى عن الدنيا كلها من أجلك ، ولن أرضى لك بأقل من الفضيحة .

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى غضب :

ـ هل تتصوّرين أنك قادرة على تحدّى (حسين البنهاوى) ؟

كانت ترغب فى إجابته بالإيجاب ، إلا أن شيئًا ما فى لهجته ، أو صوته ، أو نظرة عينيه الحادة الغاضبة ، جعل لسانها ينعقد فى حلقها ، ومنحه الفرصة ليستطرد :

ـ فليكن .. سأعلّمك كيف تكون الفضيحة يا (جيهان) .

ارتجف جسدها كله ، مع آلام الهزيمة والذل والهوان ، واندفعت تغادر شقته عدوًا ، ثم انفجرت باكية ، تنعى خسارتها واندحارها ..

أما (عايدة) ، فقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ظافرة ، وهى تقول :

ـ هذا هو (حسين) الذى أعرفه .

ألقى عليها (حسين) نظرة صارمة محنقة ، ثم التقط سمّاعة الهاتف ، وطلب رقم الإدارة ، ولم يكد يسمع صوت محدّثه ، حتى قال في حزم :

ـ (صلاح) .. بالنسبة للأمر الذى أعددته ، بخصوص (جيهان) .. أريد منك أن تنفذ المطلوب الليلة .

وعندما أنهى المحادثة ، كان وجهه كله يتصبّب عرقًا ؛ فاتخاذ قرار رهيب كهذا ، يحتاج إلى حزم ..

بل إلى قسوة ..

قسوة بلا حدود ..

★ ★ ★

توقّفت اثنتان من سيارات الشرطة أمام سراى (البنهاوى) ، فى السادسة مساء ، وهبط منها عدد من الجنود المسلحين وضابط واحد ، اقتحم السراى فى وقاحة عنيفة ، جعلت (فاطمة) تطلق شهقة قوية ، وهى تهتف :

ـ ما هذا ؟.. ماذا تفعلون ؟!.. احترموا حرمة السراى .

سألها الضابط فى صرامة :

ـ أهذه سراى (البنهاوى) ؟

أجابته فى حدة خشنة :

ـ نعم .. هذه سراى (البنهاوى) .. ماذا تريدون منها ؟

وصلت (شريفة) فى هذه اللحظة ، وانقبض قلبها لمرأى رجال الشرطة ، فسألت ضابطهم فى قلق :

ـ ماذا تريد يا حضرة الضابط ؟

أجابها فى صرامة :

ـ أريد (مفيد البنهاوى) .. أين هو ؟

سألته مضطربة :

ـ وماذا تريدون من (مفيد) ؟

صاح بها الضابط :

ـ أهو هنا أم ماذا ؟

أتاه صوت (مفيد) ، وهو يهبط من الطابق العلوى ، قائلًا :

ـ أنا هنا يا حضرة الضابط .

التفت إليه الضابط فى حركة حادة ، وانعقد حاجباه ، عندما لاحظ تحوله الواضح ، وقال :

ـ أنت (مفيد البنهاوى) .

وصل عنده (مفيد) ، وهو يجيب :

ـ نعم .. أنا (مفيد البنهاوى) .. ما المطلوب منى بالضبط ؟!

شدّ الضابط قامته ، وهو يقول :

ـ معى أمر مباشر باعتقالك .

اتسعت عيون الجميع فى ذهول ، وشهقت (فاطمة) فى ارتياع ، فى حين صرخت (شريفة) :

ـ مستحيل !.. أنت مخطئ بالتأكيد أيها الضابط .. لا يمكن أن يكون لديك أمر باعتقال (مفيد) !.. ألا تعلم شقيق من هذا ؟!.. إنه شقيق (حسين بك البنهاوى) .

ابتسم الضابط فى سخرية ، وهو يلتقط ورقة من جيبه ، قائلًا :

ـ من الأفضل أن تطالعى أمر الاعتقال هذا يا سيّدتى .

اختطفت (شريفة) الورقة من يده ، ومال (مفيد) ليطالع التوقيع على الأمر ، ولم يكد يفعل ، حتى انطلقت من حلقه وحلق (شريفة) صرخة استنكار ذاهلة ..

هذا لأن أمر الاعتقال كان يحمل - وبكل وضوح - توقيع (حسين) ..

(حسين البنهاوى) .

* * *

٢٥ - الفضيحة ..

حفر الذهول ملامحه فى وضوح ، على وجه (عمر) ، وهو يضرب كفًا بكف ، ويهتف فى استنكار :

- هل وصل الأمر بـ (حسين) إلى هذا الحد ؟!.. يا للعار !

أومأ (عبد الحكيم) برأسه فى أسى ، وقال :

- أنا نفسى لم أصدّق هذا فى البداية ، ولا (شريفة) صدّقته ، فهرعت إلى (حسين) فى (القاهرة) ، ولكنه أكّد لها فى وقاحة ، أنه هو الذى أصدر أمر اعتقال (مفيد) ، بتهمة مناهضة السياسة العليا للدولة ، وقال لها : إن (مفيد) هو المسئول عن اتخاذه لهذا القرار ؛ لأنه ظلّ يتحدّى النظام ، ويعلن معارضته للدولة فى كل مكان ، وكان من الضرورى كبح جماحه ، قبل أن يتسبّب فى تدمير العائلة كلها .

ابتسم (عمر) فى سخرية ، على الرغم من المرارة التى حفل بها صوته ، وهو يقول :

- بل قل : قبل أن يتسبّب فى الإساءة إلى (حسين) نفسه ؛ فلا أحد يعرف ابن (البنهاوى) هذا مثله .. إنه مستعد لإشعال النار فى القرية كلها ، لو أن هذا يناسب طموحاته .

قال (عبد الحكيم) فى أسى :

- ولكنك لا تعلم ما فعله قراره هذا بالعائلة .. بل بالقرية كلها .. إننى أعتقد أن الشىء الوحيد ، الذى أجمع عليه الكل ، فى قريتنا هذه ، هو حب (مفيد البنهاوى) ، فالشاب مثال للأدب والتهذيب

وحسن المعاملة .. هل تعلم أن (شريفة) تكاد تستنفد دموعها ، من كثرة البكاء عليه ؟.. حتى (فاطمة) ، تبكى فى حرقة من أجله .

لوّح (عمر) بكفه ، وقال :

ـ ومن المؤكّد أن (نعيمة) تشاركهما انهيارهما ، فهى تعتبر (مفيد) هذا مثل ابنها .

هزّ (عبد الحكيم) رأسه فى أسف ، وقال :

ـ عجيب هو (حسين) هذا !!.. أحيانًا يبدو لى ابن بلد ، شهمًا وكريمًا ومجاملًا ، وفى أحيان أخرى أجده قاسيًا ، صارمًا ، لا يرحم .

أجابه (عمر) فى مقت واضح :

ـ إنه مزيج من كل هذا ، ومن الممكن أن تبرز شهامته ، ويبهرك كرمه ، لو لم يتعارض الأمر مع طموحاته وأحلامه ، أما عندما يحدث هذا ، فإنه ينقلب على الوجه الآخر مباشرة ، فيلقى الكرم والشهامة جانبًا ، ويتحوّل إلى وحش كاسر ، لا يتورّع عن افتراس أقرب الناس إليه ، دفاعًا عن نفسه .

قال (عبد الحكيم) مستنكرًا :

ـ كلنا نعرف عنه هذا ، ولكن أن يصل الأمر إلى اعتقال شقيقه ، فهذا ما لا يمكننى هضمه أبدًا !

ابتسم (عمر) مرة أخرى فى سخرية ، وقال :

ـ لو أنك تفهم (حسين) مثلما أفهمه ، لما أدهشك هذا قط .. أراهنك على أن بعضهم حاول استغلال موقف (مفيد) ، وتحدياته العلانية لسياسة الدولة ، لضرب (حسين) نفسه ، وكإجراء وقائى ، لم يجد (حسين) أمامه سوى أن يأمر هو نفسه باعتقال (مفيد) ، وهكذا يثبت أنه شديد الانتماء للدولة وسياساتها ، حتى أنه لا يتردّد لحظة واحدة فى اعتقال شقيقه نفسه ، لو عارضها .

حدّق فيه (عبد الحكيم) فى انبهار ، قبل أن يقول :

ـ ألا توجد حدود لما يمكن أن يفعله (حسين البنهاوى) ؟

هزّ (عمر) رأسه ، وقال :

ـ مطلقًا .. عندما يتعلّق الأمر بطموح (حسين) أو مظهره وكبريائه ، فلا توجد حدود لما يمكن أن يفعله .. لا توجد حدود مطلقًا ..

قالها دون أن يدرى أنه فى هذه الليلة بالذات ، سيثبت (حسين) أنه لا حدود لردود أفعاله ، أو ...

أو لانتقامه ..

★ ★ ★

« أنا يطردنى من منزله ؟!.. أنا ؟!.. »

تقافز غضب هادر من كلمات (جيهان) ، وهى تنطق هذه العبارة ، وتلوّح بذراعيها فى ثورة ، فقالت شقيقتها محاولة تهدئتها :

ـ كان ينبغى أن تتوقّعى رد فعل كهذا ، وخاصة مع شخص مثل (حسين البنهاوى) ، الذى اعتاد أن يأمر فيطاع .

صاحت (جيهان) فى غضب :

ـ ليس معى .. ليس مع (جيهان) .. تلك الحقيرة التى تطلق على نفسها لقب الأميرة ، لا يمكنها أن تبلغ ربع جمالى وفتنتى ، و (حسين) لن يحتمل البقاء معها لشهر واحد .

قالت شقيقتها فى حذر :

ـ ولكنه احتمل هذا البقاء لعدة شهور بالفعل .

هتفت فى حنق عصبى :

ـ لن يستمر هذا طويلًا .. صدقينى .. أنا أعرف من أنا ، وما تأثيرى عليه .. لقد رأيت الرغبة فى عينيه ، كلما تطلَّع إلىَّ ، عندما كنا نلتقى .. أنا أعلم أنه لن يحتمل فراقى طويلًا ، وسترين .. سترين أنه لن يلبث أن يسعى إلىَّ راكعًا على ركبتيه .

شعرت شقيقتها بالإشفاق عليها ، وهى تغمغم :

ـ طبيعتك لا يمكنها احتمال الخسارة يا (جيهان) .

صاحت بها فى عصبية :

ـ الخسارة ؟!.. أية خسارة ؟!.. قلت لك : إنه سيسعى إلىَّ بنفسه .

قالت شقيقتها فى توتر :

ـ فلنأمل فقط ألا يحاول الانتقام منك .

صرخت (جيهان) فى ثورة :

ـ إنك لا تفهمين .. لا تفهمين أبدًا .

دخلت والدتهما الحجرة ، فى هذه اللحظة ، وهى تقول فى دهشة :

ـ هل تتشاجران ؟

انعقد حاجبا (جيهان) فى توتر ، فى حين أسرعت شقيقتها تقول :

ـ أبدًا .. كنا نناقش أمرًا نختلف فيه كثيرًا .

نقلت الأم عينيها بينهما فى شك ، ثم لم تلبث أن تنهدت ، قائلة :

ـ هذا شأنكما .

ثم التفتت إلى (جيهان) ، مستطردة :

ـ جارتنا (هناء) تطلب مقابلتك يا (جيهان) .

لوَّحت (جيهان) بكفها فى ضجر ، قائلة :

ـ دعيها تأتى .

لم تمض لحظات ، حتى كانت (هناء) معهما فى حجرتهما ، فتصافحا ، وتبادلا القبلات ، وبعض العبارات التقليدية ، قبل أن تختلس النظر إلى شقيقة (جيهان) ، وهى تهمس لهذه الأخيرة :

ـ لقد اتصل بك شخص ما فى منزلى .

تألقت عينا (جيهان) ، وهى تسألها فى لهفة :

ـ وما اسمه ؟

بدت الدهشة على وجه (هناء) ؛ لهذه اللهفة الواضحة ، وتطلَّعت إلى شقيقة (جيهان) فى قلق ، فقالت الأخيرة فى عصبية :

ـ تحدَّثى فى حرية .. إنها تعرف كل شىء .

بدا الارتياح على وجه (هناء) ، وأجابت بسرعة :

ـ اسمه (حسين البنهاوى) .

قفزت (جيهان) من مكانها ، وهى تهتف :

ـ من ؟!

ثم التفتت إلى شقيقتها ، مستطردة فى انفعال جارف :

ـ ألم أقل لك ؟!.. ها هو ذا يتصل بى .. ألم أقل لك : إنه لن يحتمل فراقى طويلًا .

وعادت إلى (هناء) ، تسألها فى انفعال أكبر :

ـ ماذا كان يريد ؟.. هه .. ما الذى طلبه منك ؟

أجابتها (هناء) مبتسمة :

ـ يريد مقابلتك الآن ، لأمر عاجل للغاية .

صفقت (جيهان) بكفيها جزلًا كالأطفال ، وهتفت :
ـ رائع .. هذا أعظم مما كنت أتمنى .
ثم تلاشى حماسها بغتة ، وهى تقول متوترة :
ـ ولكن كيف أقابله ؟!.. لا يمكننى السفر إلى (القاهرة) ليلًا .
هزّت (هناء) رأسها ، وهى تقول :
ـ إنه ليس فى (القاهرة) .. إنه هنا .. فى (طنطا) .
بهتت (جيهان) ، وحدّقت فى وجهها بدهشة ، قائلة :
ـ هنا فى (طنطا) ؟!.. أين ؟!
ناولتها (هناء) ورقة مطوية ، قائلة :
ـ ها هو ذا العنوان .. لقد أملانى إياه عبر الهاتف .. إنه ينتظرك فى لهفة .
وثبت (جيهان) إلى دولاب ملابسها ، صائحة :
ـ سأذهب إليه على الفور .. لن أضيع لحظة واحدة ..
نطقتها دون أن تدرى أنها تنطلق ، بكل هذه اللهفة ، إلى المصيدة ..
مصيدة (حسين البنهاوى) ..

★ ★ ★

ارتسمت ابتسامة مفعمة بالثقة والزهو ، على شفتى (جيهان) الجميلتين ، وهى تقف أمام الشقة ، التى طلب (حسين) مقابلتها فيها ، والتى تطلّ على ميدان الساعة ، أكبر وأشهر ميادين مدينة (طنطا) ، وتحسّست شعرها الكستنائى الناعم ، وهى تغمغم فى ظفر ..
ـ كنت أعلم أنه لن يقاوم طويلًا .

كانت تشعر بثقة كبيرة ، فى جمالها ونكائها ، وفى قدرتها على التأثير على الآخرين ، وعلى الرغم من هذا فقد أخرجت المرآة الصغيرة من حقيبة يدها ، وتأملت ملامحها وزينتها لحظة ، قبل أن تتسع ابتسامتها ، وتتضاعف ثقتها ، فشدّت قامتها ، وضغطت جرس الباب فى انفعال .
ومضت ثوان قليلة ، بعد رنين الجرس ، بدت لها وكأنها استغرقت دهرًا كاملًا ، ثم خفق قلبها فى عنف ، عندما انفتح الباب ، و ...
وتراجعت (جيهان) فى عنف ودهشة ..
لم يكن الواقف أمامها هو (حسين البنهاوى) ..
بل لم يكن حتى يشبهه ..
كان رجلًا قصيرًا ، أصلع الرأس ، له ابتسامة خبيثة ، أشبه بابتسامة ثعلب متمرّس ، وصوت لزج أجش ، انطلق من بين شفتيه خشنًا ، وهو يقول :
ـ أهلًا يا آنسة (جيهان) .. تفضّلى .
سألته فى توتر :
ـ هل (حسين) هنا ؟.. أقصد الأستاذ (حسين البنهاوى) ؟
أفسح لها (صلاح) الطريق ، وهو يدعوها للدخول ، قائلًا :
ـ بالطبع .. إنه ينتظرك .. تفضّلى .
تردّدت (جيهان) لحظة ، ثم بدا لها أنه من الحماقة أن تتراجع الآن ، بعد أن وصلت إلى المكان ، فدلفت إلى الشقة ..
وارتفع حاجباها فى دهشة مرة ثانية ..
ولكنها لم تكن دهشة خالصة هذه المرة ..
كانت تمتزج بالكثير من القلق والتوتر ..

ـ وخاصة مع المشهد الذى طالعها فى الردهة ..

كان هناك عدد من الرجال والنساء ، والجميع يبتسمون ابتسامات عجيبة ، وفى أيديهم كئوس الخمر ، وبين أصابعهم سجائر مشتعلة ..

ولكن ثياب النساء كانت السبب الفعلى لقلقها ..

كن يرتدين ثيابًا ، أقل ما يقال عنها ، هو أنها فاضحة ..

وفى توتر شديد ، قالت (جيهان) :

ـ أين (حسين) ؟

أغلق (صلاح) الباب ، قائلًا بلهجته الخبيثة :

ـ سيصل بين لحظة وأخرى ..

تفجَّر الارتياع بغتة فى أعماقها ، فتراجعت مذعورة ، وصرخت :

ـ دعنى أخرج من هنا .

احتواها (صلاح) بين ذراعيه بغتة ، وهو يضحك متشفيًا ، ويقول :

ـ لا تتعجَّلى هكذا يا جميلة الجميلات .. سنخرج كلنا بعد لحظات .

صرخت ، وهى تتملَّص منه :

ـ أتركنى .. أتركنى انصرف من هنا .

ثم اندفعت نحو باب الشقة ، وفتحته ، و ...

، فليبق كل فى مكانه ... ،

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تحدِّق فى وجه الضابط ، الذى أطلق العبارة ، والذى فوجئت به أمام الشقة ، وهتفت فى هلع :

ـ لست أنتمى إليهم .

ولكن الضابط أمسك يدها فى قسوة ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها عدد من الجنود والمخبرين إلى الشقة ، وألقوا القبض على الباقين ، دون مقاومة تذكر ، وكأنهم كانوا ينتظرون وصول رجال الشرطة ، فى حين صرخت هى :

ـ ماذا تريدون منى ؟

ابتسم الضابط فى سخرية ، قائلًا :

ـ نحن شرطة مكافحة جرائم الآداب .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، وصرخت فى رعب وانهيار :

ـ لا .. لا شأن لى بهم .. أقسم لك .

ولكن (صلاح) مال على أذنها ، وهو يقول ساخرًا :

ـ لا فائدة .. (حسين) بك يرسل تحياته ، ويسأل : هل عرفت الآن ما تعنيه كلمة فضيحة ؟!

حدَّقت فى وجهه برعب ، قبل أن تنهار هاتفة :

ـ لا .. أرجوك .. ليس هذا .. إننى مستعدة لتقبيل قدمى (حسين) ، ولكن لا تدعه يفعل بى هذا .

ظلَّت تصرخ وتتوسَّل ، ورجال الشرطة يجذبونها مع الأخريات إلى الخارج ، وكل سكان البناية تقريبًا يتطلعون إليهن فى ازدراء ..

وفى تلك اللحظة فقط ، تذكَّرت (جيهان) قول شقيقتها ..

لقد تجاوزت حدود اللعبة بالفعل ..

تجاوزتها كثيرًا ..

ولقد خسرت هذه المرة ..

وكانت خسارة كبيرة ، و ...

وفادحة ..

★ ★ ★

ولكن الضابط أمسك يدها فى قسوة ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها عدد من الجنود والمخبرين إلى الشقة ..

هتفت إحدى زميلات (جيهان) ، فى تلذذ سادى عجيب ، وهى تروى القصة للمدرسين والمدرسات ، فى ساحة المدرسة :

ـ وكانت فضيحة رهيبة ، وخاصة عندما وضعوا الأغلال فى معصميها ، وقاد الضابط قطيع الساقطات كله ، من البناية إلى القسم ، عبر ميدان الساعة .. كان الأمر يبدو كما لو أنه يتعمّد فضحهن .

قالت أخرى ، وهى تمصمص شفتيها فى حسرة زائفة :

ـ هذا يفسّر ذلك التطور ، الذى بدا عليها فى الأشهر الماضية .. الثياب الأنيقة ، والأحذية المتناسقة ، والعطور الغالية .. كان ينبغى أن نفهم هذا على الفور .

هزّت ثالثة كتفيها ، قائلة :

ـ الخبيثات مثلها لا يظهرن حقيقتهن أبدًا .. إنها تتظاهر طوال النهار بأنها فتاة شريفة ، فى حين أنها فى الحقيقة ..

لم تتم عبارتها ..

ولم تكن بحاجة إلى هذا فى الواقع ، فقد فهم الجميع ما تعنيه على الفور ، وانفجرت شفتا زميلة رابعة ، همّت بقول شىء ما ، لولا أن اندفعت (سوسن) تقول فى حدة :

ـ هل تشعرون بالارتياح الآن ؟

التفت الجميع إليها فى دهشة ، وقال أحد الزملاء :

ـ ماذا يغضبك هكذا يا آنسة (سوسن) ؟

صاحت فى حنق :

ـ هل تسألنى ؟!.. ألم تنتبه إلى ما يغضبنى يا أستاذ التربية الدينية ؟!.. هل يروق لك أن تنهش فى عرض زميلة ، قبل أن تتيقّن من جريمتها .

أجابها فى عصبية :
ـ لقد ألقوا القبض عليها متلبسة .
قالت غاضبة :
ـ هل رأيت هذا بنفسك ؟
أجابها متحديًا :
ـ كلَّا ، ولكن شقيقى شاهد الموقف كله ، و ...
قاطعته قائلة فى توتر :
ـ كل ما شاهده شقيقك هو أن رجال الشرطة ألقوا القبض عليها .
أجاب زميل آخر :
ـ هذا يكفى .
التفتت إليه ، تسأله فى حدة :
ـ وماذا لو ثبت أنها برينة ؟
أجابتها إحدى زميلاتها :
ـ هذا لن يصنع فارقًا كبيرًا يا (سوسن) ، فلقد تلوَّثت سمعتها وانتهى الأمر ، ولن يقدم شاب واحد على طلب الزواج منها بعد الآن .
وابتسمت أخرى فى خبث ، وقالت وهى ترمق (سوسن) بنظرة جانبية :
ـ ألتمس العذر لـ (سوسن) ، فغياب زميلنا (مفيد) يصيبها بالتوتر .
تخضَّب وجه (سوسن) بحمرة الخجل ، واحتقن فى شدة ، وانحبست الكلمات فى حلقها ، ولم تستطع النطق بكلمة واحدة للدفاع عن نفسها ..
ولكن لماذا تحاول الدفاع عن نفسها ؟!..
إن زميلتها لم تخطئ أبدًا ..

السبب الحقيقى لتوترها وعصبيتها هو غياب (مفيد) ، وما سمعته عن اعتقاله ..
لقد تأكَّدت الآن فقط من أنها تحبه ..
تحبه كما لم تحب شخصًا من قبل ..
ولكن السؤال هو : ما مصير (مفيد) الآن ؟!..
وفى تلك الفترة ، كانت إجابة مثل هذا السؤال مستحيلة .. مستحيلة تمامًا .

* * *

٢٦ ـ المستحيل ..

نفثت (عايدة) دخان سيجارتها فى عصبية شديدة، وهى تدلف إلى بهو فندق (سميراميس)، المطلّ على نيل (القاهرة)، وأحكمت وضع المنظار الشمسى الداكن فوق عينيها، وهى تعبر البهو فى خطوات سريعة، ثم تنحرف يسارًا، حيث استقرت أريكة صغيرة من مقعدين، فى ركن هادئ صغير، أسفل سلم الطابق الثانى، ووقفت لحظة، تلفّتت خلالها حولها، ثم اتخذت مجلسها فوق الأريكة، وراحت تنقر بأطراف أظفارها على مسندها فى توتر ..

ولم تمض دقائق خمس، حتى اتجهت نحوها سيّدة أنيقة، فى أواخر الأربعينات من عمرها، وجلست إلى جوارها، قائلة فى هدوء:

ـ هل تأخّرت عليك ؟

أجابتها (عايدة) فى عصبية:

ـ كلّا، ولكننى أشعر بتوتر بالغ، فى كل مرة نلتقى فيها هنا.

ابتسمت السيّدة، قائلة:

ـ اطمئنى يا سمو الأميرة، كل شىء على ما يرام .. رجالنا يدرسون مثل هذه الأمور بمنتهى الدقة.

تلفّتت (عايدة) حولها مرة أخرى، وهى تطفئ سيجارتها فى عصبية، وتلتقط أخرى من علبتها، لتشعلها قائلة:

ـ ولو .. لست أشعر بالارتياح.

مطّت السيّدة شفتيها فى ازدراء، وكأنما تبغض هذه الصورة من الضعف البشرى، وسألتها:

ـ هل من معلومات جديدة ؟

ناولتها (عايدة) مظروفًا صغيرًا فى توتر، وهى تقول:

ـ هذا كل ما أمكننى الحصول عليه ؟

التقطت السيّدة المظروف فى رشاقة، وألقته فى حقيبتها الصغيرة، وأغلقتها فى سرعة، وهى تقول فى هدوء شديد:

ـ مسيو (روبير) يقول: إنه ينبغى أن ننتقل إلى النقطة التالية.

أجابتها (عايدة) فى حدة:

ـ محاولة تجنيد (حسين) ؟!.. لا .. مستحيل !.. لن أقدم على هذا أبدًا .. أنت لا تعلمين ما الذى يمكن أن يفعله (حسين)، لو أننى فعلت هذا.

ابتسمت السيّدة، قائلة:

ـ اتركى لنا التفكير فى هذا الأمر، فلدينا خبراء نفسانيون، يجيدون تحليل مثل هذه الأمور.

قالت (عايدة) فى عصبية:

ـ ولكننى شاهدت نتائج المحاولة الأولى بنفسى .. لقد كاد (حسين) يفتك بى، عندما التقى بـ (روبير) فى (باريس) ..

أجابتها السيّدة:

ـ هذا لأن الأمر باغته حينذاك، أما هذه المرة، فنحن نؤهله لاستقبال الأمر، ولدينا عدة أسلحة كافية لإخضاعه .. الفيلم الذى التقطته للقائه مع (روبير) مثلًا .. سيدهشك ما فعلناه به، وكيف حوّله خبراؤنا إلى دليل يدينه تمامًا .. ثم هناك تلك المعلومات، التى

كنت تنقلينها إلينا ، عن لقاءاته بالرئيس (جمال) .. إنها تكفى لإدانته بتهمة التجسّس ، أو على الأقل بتهمة إفشاء أسرار الدولة .

سألتها (عايدة) فى قلق :

ـ هل ستواجهونه بهذا ؟

أطلقت السيّدة ضحكة خبيثة ، قائلة :

ـ لقد واجهناه بكل هذا بالفعل .

تراجعت (عايدة) بدهشة بالغة ، وهى تهتف :

ـ متى فعلتم هذا ؟

بدا الزهو على السيّدة ، مع قولها فى ثقة :

ـ قلت لك اتركى لنا هذا الأمر .. كل ما يمكنك معرفته الآن ، هو أن (حسين) أصبح مؤهلًا للتجنيد تمامًا ، خاصة مع طموحاته الشديدة ، وخوفه الدائم من كل ما يعترضها .

ثم تراجعت ، مستطردة فى خيلاء :

ـ صدقينى يا سمو الأميرة .. نحن نجيد مثل هذه الأمور تمامًا ، ومهما بلغ المصريون من ذكاء ، لن يمكنهم أن يبزّونا فى هذا المجال قط .

نفثت (عايدة) دخان سيجارتها مرة أخرى ، قبل أن تقول فى حدة :

ـ وماذا أفعل أنا الآن ، ما دمتم تتعاملون معه مباشرة ، من خلف ظهرى ؟

أجابتها فى صرامة :

ـ وجودك ضرورى جدًا ؛ لأنك جزء من خطة السيطرة على الرجل .. إنه غارق فى حبك ، وهذا يجعله أسلس انقيادًا .

زفرت (عايدة) فى عصبية ، قائلة :

ـ ما زلت لا أشعر بالارتياح !

تطلّعت إليها السيّدة لحظة ، ثم قالت فى بطء :

ـ هل تحبين أن أمنحك دليلًا على ثقتنا فى الأمر ، واطمئناننا إلى أن عملية تجنيد (حسين البنهاوى) ، لن تفشل قط .

نظرت إليها (عايدة) بعينين متسائلتين ، فتابعت بابتسامة غامضة :

ـ هل تعرفين من سيصل إلى هنا غدًا ، للقاء (حسين البنهاوى) ، والتعامل معه مباشرة ؟

سألتها (عايدة) فى لهفة وفضول :

ـ من ؟!

اكتسبت ابتسامة السيّدة الكثير من الثقة ، وهى تجيب :

ـ مسيو (روبير) نفسه .

وارتفع حاجبا (عايدة) فى دهشة بالغة ، فقد كان هذا بالفعل أكثر مما تتوقعه ..

أكثر بكثير ..

★ ★ ★

عندما دخل (حسين البنهاوى) إلى مكتب الرئيس (جمال عبد الناصر) ، فى ذلك الصباح ، كان الرئيس واقفًا أمام النافذة ، يتطلّع إلى حديقة منزله فى صمت ، وهو يوليه ظهره ، فتنحنح (حسين) لينبهه إلى وجوده ، وهنا التفت إليه الرئيس ، وابتسم قائلًا :

ـ صباح الخير يا (حسين) .

قال بسرعة :

ـ صباح الخير يا سيادة الرئيس .. بلغنى أن سيادتك طلبت مقابلتى على وجه السرعة .

أشار الرئيس إلى الأريكة ، وهو يقول :

ـ اجلس يا (حسين) .. أريد التحدّث إليك فى أمر ما .

شعر (حسين) بالدهشة ، عندما جلس الرئيس إلى جواره فى بساطة ، بدلًا من أن يجلس خلف مكتبه كالمعتاد ، فقال فى حماس :

ـ أنا رهن إشارتك يا سيادة الرئيس .

ابتسم الرئيس (جمال) ، وهو يسأله :

ـ هل أصدرت أمرًا باعتقال شقيقك يا (حسين) ؟

انتفض جسد (حسين) فى عنف ، مع هذا السؤال المباغت ، وهتف :

ـ سيادة الرئيس .. أريد توضيح الموقف .

اتسعت ابتسامة الرئيس ، وهو يربّت على كتف (حسين) ، قائلًا :

ـ لا داعى .. يمكننى فهم الأمر جيدًا .. أنا نفسى اضطررت لاعتقال أحد أشقائى يومًا ؛ لأنه حاول استغلال أخوته لى ، لتحقيق مصالح ومكاسب شخصية .

ثم تنهّد فى عمق ، قبل أن يضيف :

ـ أعلم جيدًا أنه ليس بالقرار السهل ، ففى أعماقك ، تتصارع مشاعرك مع واجبك ، وتتقاتل عاطفتك مع عقلك ، وإحساسك بالمسئولية والواجب ، وحتمية أن تكون قدوة ، فى تطبيق المبادئ والأخلاقيات ، التى تنادى بها .

وعادت إليه ابتسامته ، وهو يربّت على كتف (حسين) ثانية ، مستطردًا :

ـ وصدقنى يا (حسين) .. قليلون هم من يمتلكون القدرة على اتخاذ مثل هذا القرار ، والانتصار للمبادئ على حساب العواطف والمشاعر والأحاسيس .

واكتسى صوته بالفخر والإعجاب ، وهو يقول :

ـ وأنت واحد من هؤلاء يا (حسين) .

خفق قلب (حسين) فى قوة ، ورقص بين ضلوعه ، وهو يستمع إلى حديث الرئيس ..

إذن فقد أتت لعبته ثمارها ..

رسالته وصلت بالصيغة التى أرادها بالتحديد ..

وفى نشوة كاملة ، راح يستمع إلى الرئيس ، الذى نهض ، وأخذ يسير فى حجرة مكتبه ، متابعًا :

ـ الأمور لم تعد كما كانت بالتأكيد ، ولم تعد لى السيطرة على مواقف مختلفة .. تصوّر أن المشير يعود من (سوريا) بتلك الصورة المخزية ، ثم يصرّ على عدم محاكمة رجاله ، على ما اقترفوه هناك ، مما تسبّب فى استفزاز الشعب السورى ، والوصول إلى الانفصال !!.. كان المفروض أن يفقدوا رتبهم على الأقل ، ولكن ماذا أفعل ، والجيش كله فى قبضة (عبد الحكيم) ؟!..

ثم التفت إلى (حسين) ، وعاد يبتسم ، قائلًا :

ـ ولكن اطمئن .. شقيق (فؤاد) لن يضايقك بعد الآن .. لقد أخبرنى أنك تمتلك أرضًا تفوق الحد الأقصى للملكية الزراعية ، ولكننى تحرّيت الأمر ، وعلمت أنك الراعى الرسمى لتلك المساحة ،

وأنك تنفق إيرادها على الجميع ، وهذا يجعلها ملكهم كلهم ، بصورة أو بأخرى .

اتسعت عينا (حسين) فى دهشة ، إزاء تلك المفاجأة ، وانفرجت شفتاه لحظة ، وكأنه يهمّ بقول شىء ما ، إلا أنهما لم تلبثا أن انطبقتا ، محافظتين على صمته ، فى حين واصل الرئيس حديثه ، قائلًا :

ـ ولقد أصدرت أوامرى للجميع بعدم المساس بك ، مهما كانت الأسباب ، وأخبرتهم أنك تحت رعايتى مباشرة .

وربّت على كتفه للمرة الثالثة ، مستطردًا :

ـ ليس من السهل أن يجد المرء رجالًا مثلك يا (حسين) .

كاد (حسين) يطير فرحًا ، وهو يستمع إلى تلك الكلمات ، من بين شفتى الزعيم ، ولم يسعفه لسانه إلا بغمغمة مرتبكة :

ـ أشكرك يا سيادة الرئيس .. أشكرك كثيرًا .

أومأ الرئيس (جمال) برأسه مبتسمًا ، ثم قال :

ـ بقى أمر واحد .

سأله (حسين) فى لهفة :

ـ وما هو يا سيادة الرئيس ؟

أجابه الرئيس :

ـ يقولون فى الأمثال : « من أجل الورد نسقى الأشواك » ، وأنا أميل إلى تطبيق هذا المثل كثيرًا ، ولهذا ، فمن أجل مواقفك ، أصدرت أمرًا بالإفراج عن شقيقك ، وإعادته إلى عمله .

وكان هذا ذروة ما يتمناه (حسين البنهاوى) ، فى تلك اللحظة ..

لقد ربح المعركة ..

ربحها بكل جدارة ..

★ ★ ★

« ماذا تريد منى ؟!.. »

نطقها (مفيد) فى غضب هادر ، أو انفجر بها فى وجه (حسين) ، فى ردهة السراى ، قبل أن يضيف فى عصبية شديدة :

ـ لقد فعلت بى أسوأ ما يمكن أن يفعله أخ بأخيه .. لقد أكلت لحمى نيئًا يا (حسين) ، ولم يعد من حقك أن تعلن أخوتك لى .

كان من الواضح أن التجربة كانت مريرة للغاية ..

تجربة الاعتقال ، والسجن ، والتأديب ..

صحيح أن الجميع فى المعتقل ، كانوا يعلمون أنه شقيق (حسين) ، وأنه لن يبقى طويلًا هناك بالتأكيد ، فعزلوه عن باقى المعتقلين ، وأحسنوا معاملته على نحو كبير ، إلا أنه كان يلتقى بالآخرين فى الصباح ، فى ساحة المعتقل ، ويرى آثار التعذيب فى أجسادهم ، ويستمع منهم إلى قصص يشيب لهولها الولدان ..

وهناك تعلّم (مفيد) الكثير ..

تعلّم أكثر مما تعلّمه طيلة عمره ..

هناك فقط ، أدرك كم تتردى البلاد فى الهاوية ..

هناك فقط علم أن (مصر) تسير نحو نهاية مفزعة ..

لا يمكن أبدًا أن ينمو شعب ويتطوّر ، والحريات تهان وتمتهن فيه على هذا النحو ..

من المستحيل أن تتلمّس الأصابع سلم الحضارة ، وهى تنحدر بالآدمية والإنسانية إلى ما بعد الدرك الأسفل ..

مستحيل !..

مستحيل !..

والعجيب أنه التقى هناك بـ (جودة) ، صاحب المقهى القديم .. وكانت دهشته عارمة ..

ليس لأنه التقى به هناك ، ولكن لأن وجوده كشف عن فجوة أخرى ، فى ذلك العالم الرهيب ..

لقد أعاد (جودة) صنع عالمه الخاص ، فى قلب المعتقل ..

صنع مقهى صغيرًا ، يعدّ فيه الشاى والقهوة ، ويمنحهما مجانًا للضباط والجنود ، وبالذات لصول المعتقل الضخم ، الذى يشبه ذلك الفيل الهندى ، الذى كان حديث الصحف يومًا ، ولكنه يبيعها لزملائه ، مقابل الطعام أو الخدمات ..

ولكن العجيب أنه يبيع المخدرات أيضًا ..

لا أحد يدرى من أين يمكنه الحصول عليها ، ولكن بعض الأصابع تشير إلى الصول نفسه ، وإلى أنه الممول الفعلى لتلك التجارة الملعونة ..

وفى المعتقل ، التقى (مفيد) أيضًا بعدد من أفضل العلماء والأدباء والمفكرين ، الذين كانوا دائمًا مثار إعجابه واحترامه وتقديره ..

ومنهم تعلّم الكثير ..

وعرف الأكثر ..

وعلى الرغم من الفترة القصيرة للغاية ، التى قضاها داخل أسوار المعتقل ، إلا أن التجربة لم تمح من عقله قط ..

وفى ذلك اليوم ، عندما حضر (حسين) لرؤيته ، تفجّر غضبه وحنقه وثورته دفعة واحدة ، فراح يصرخ فى وجهه ، ويتهمه بالخيانة والحقارة والجحود ..

ومن العجيب أن (حسين) لم يعترض بحرف واحد ..

لقد ترك شقيقه يفرغ كل غضبه وتوتره وانفعاله ، وكأنه يعترف بجرمه ، ثم قال فى صرامة :

ـ أنت المسئول عن كل ما أصابك .. لقد نصحتك مرارًا بالكف عن انتقاد الدولة وسياساتها ، ولو لم أعتقلك أنا لفعلها آخر ، ولما كان من الممكن أبدًا أن تعود إلى منزلك الآن .

كان (مفيد) يعلم أنه على حق تمامًا ، ولكنه قال فى حدة :

ـ وما الذى تريده منى الآن ؟.. تصفيقًا حارًا ، أم اعترافًا بعبقريتك ؟!

قال (حسين) فى صرامة مخيفة ، وهو يتطلّع إلى عينى (مفيد) مباشرة :

ـ لا هذا ولا ذاك .. كل ما أريده هو ألاّ تضطرنى لإعادتك إلى المعتقل ثانية .

بُهِتَ (مفيد) ، وحدّق فى عينى شقيقه ، فى مزيج من الدهشة والارتياع ، فتابع (حسين) بنفس الصرامة :

ـ كف عن اعتراضاتك السخيفة هذه ، وابتلع انتقاداتك ، واكتف بتصليح المنكر بقلبك فحسب ، وإلا ...

ولم يكن بحاجة لإتمام عبارته ، فاللهجة التى نطق تهديده بها ، وتلك النظرة المخيفة فى عينيه ، والذكريات التى تداعت فى ذهن (مفيد) ، كانت كلها كافية لتسرى فى جسده قشعريرة مفزعة ، جعلته يتساءل ..

لو أنه يشعر بكل هذا الخوف ، من العودة إلى المعتقل ، على الرغم من أنه لم يذق ذرة واحدة ، مما ذاقه الآخرون هناك ، فكيف يكون شعورهم هم ؟

كيف يواصل بعضهم نضاله وقتاله من أجل الحرية ، بعد أن خطا بقدميه إلى الجحيم نفسه ؟!..

وفى أعماقه ، شعر (مفيد) بموجة عارمة من الاحتقار والازدراء ..

احتقار خوفه ، وازدراء روح الجبن فى أعماقه ..

وفى تلك اللحظة بالذات ، ومع الغصة فى حلقه ، والمرارة فى قلبه ، والدموع فى مقلتيه ، شعر (مفيد) بالاشتياق إلى شخص واحد بالتحديد ..

إلى (جودة) ..

★ ★ ★

« لقد أفرجوا عن (جيهان) ... »

نطقت (سوسن) هذه العبارة فى سعادة واضحة ، انتزعت (مفيد) من شروده ، فالتفت إليها ، هاتفًا فى لهفة :

ـ حقًا ؟!

أجابته (سوسن) ، فى ارتياح واضح :

ـ نعم .. النيابة برأتها تمامًا ، وخاصة بعد أن اختفى كل الرجال ، الذين ألقت الشرطة القبض عليهم فى الشقة ، فى تلك الليلة المشئومة ، ولم يعد هناك أى شهود للواقعة .

هزَّ (مفيد) رأسه ، وهو يقول فى سخرية مغموسة فى الألم والمرارة :

ـ إذن فما زالت لديه قطرة من الرحمة .

سألته فى دهشة :

ـ من تقصد ؟

صمت لحظة ، وهو يمطّ شفتيه متأسّيًا ، قبل أن يقول :

ـ أقصد ذلك النذل ، الذى دبَّر هذا كله .. كان يمكنه أن يواصل لعبته القذرة حتى النهاية ، ويدين تلك المسكينة بالفعل ، ولكنه اكتفى بالفضيحة ، ومنع رجاله من التواجد ، لتنهار القضية من أساسها .

تنهَّدت (سوسن) ، قائلة :

ـ هذا لا يصنع فارقًا ، بالنسبة لـ (جيهان) المسكينة للأسف ، فالفضيحة تتساوى مع الإدانة ، فى نظر الجميع ، وحتى لو أصدرت محكمة النقض نفسها ألف حكم ببراءتها ، ستظل فى نظر الكل مدانة ، بأبشع تهمة ، يمكن أن تدان بها فتاة .

تجمَّعت دمعة كبيرة فى عينيه ، وهو يتمتم :

ـ الله (سبحانه وتعالى) يمهل ولا يهمل .

ولم يدر لماذا قفز ذهنه لحظتها إلى (مديحة) ؟!..

لماذا انتخبها عقله ، ليملأ بها كيانه ، ويعيد إلى قلبه ذكريات أعوام مضت ؟!..

ربما لأنها هى أيضًا ، كانت واحدة من ضحايا (حسين) ..

بل كانت أوَّل ضحاياه ..

من أجل حبها لـ (مفيد) ، اضطرها (حسين) للزواج من ابن عمها ، ومغادرة القرية إلى الأبد ..

ولن ينسى (مفيد) أبدًا أن (حسين) هو الذى حطَّم حبه آنذاك .. حطَّم أوَّل حب فى حياته ..

« ما رأيك فى قدح شاى دافئ ؟.. »

ألقت عليه (سوسن) السؤال ، وهى تبتسم فى حنان ، فى محاولة لانتزاعه من شروده الحزين ، الذى رسم ملامحه على وجهه ، فتنهَّد بذهن نصف شارد ، وغمغم :

ـ ليست بى رغبة لتناول أى شىء الآن يا (مديحة) .
لم يكد الاسم يتجاوز شفتيه ، حتى انتبه إلى ما فعله ، فانتفض جسده كله فى عنف ، واستدار إلى (سوسن) فى ارتياع ، مستدركًا :
ـ أقصد يا (سوسن) ..
ولكن نظرة واحدة إلى وجهها ، جعلت قلبه يهوى بين قدميه ..
لقد غاضت منه الدماء دفعة واحدة ، وتركته شاحبًا ممتقعًا ، زائغ البصر ، منفرج الشفتين ، تطلّ الصدمة من كل خلجة من خلجاته ..
وفى هلع ، تمتم (مفيد) :
ـ (سوسن) .. اعذرينى ، فقد ...
ولكنها لم تسمح له بإتمام عبارته ..
لقد اندفعت مبتعدة عنه بغتة ، على نحو جعل كيانه كله يمتلئ بالندم ، ولكن ..
بعد فوات الأوان .

* * *

٢٧ ـ الثعالب ..

أشعل (ميخائيل بن ناثان) قدّاحته فى بطء ، وأدنى شعلة اللهب من طرف سيجارته ، وهو يبتسم فى ثقة وظفر ، ويتطلّع مباشرة إلى (حسين البنهاوى) ، الذى بدا شديد التوتر ، يتلفّت حوله فى عصبية ، ويعدّل وضع منظاره الشمسى ، كل لحظة وأخرى ، وعيناه تتعلقان مرة بأهرامات الجيزة ، التى تقف شامخة ، على بعد أمتار قليلة منه ، ثم تعودان ثانية إلى وجه (ميخائيل) ، الذى نفث دخان سيجارته فى تلذّذ ، قبل أن يقول :
ـ اهدأ يا عزيزى (حسين) .. اهدأ .. المفروض أن تكون العصبية من نصيبى أنا ، فأنت تجلس فى وطنك .
أجابه (حسين) فى حدة :
ـ وماذا لو رآنى أحدهم معك ؟
ضحك (ميخائيل) فى ظفر ، قائلًا :
ـ اطمئن يا (حسين) بك .. أنت ترى بنفسك ما فعله خبراؤنا بملامحى .. لقد حلقت شاربى ولحيتى ، وارتديت هذا الشعر الأسود المستعار ، مع المنظار الطبى ، وتبدّلت هيئتى تمامًا ، ثم إن جواز سفرى صادر من (بيروت) ، واسمى أصبح (غندور الصافى) ، تاجر لبنانى بسيط ، لا شأن له بعالم الجاسوسية والسياسة .
قال (حسين) ، وهو يلوّح بيده فى عصبية :
ـ هل تعتقد أنه يمكنك خداع المحترفين بهذا ؟

قهقه (ميخائيل) ضاحكًا هذه المرة ، وقال :
ـ أى محترفين يا (حسين) بك ؟.. أنت أكثر دراية منى بجهازكم ، وبالفساد الذى يستشرى فيه .. صحيح أنكم قمتم ببعض العمليات الناجحة ، وأفسدتم بعض عملياتنا ، إلا أن كفاءتكم لا تقارن قط بكفاءتنا .
تراجع (حسين) ، قائلًا فى غضب :
ـ هل تظن هذا ؟
نفث (ميخائيل) دخان سيجارته فى بطء ، قبل أن يقول :
ـ بل أثق به تمام الثقة ، وإلا لما جازفت بالحضور إلى هنا بنفسى .
هزَّ (حسين) كتفيه ، وقال :
ـ هذا يعتبر خطأ تكنيكيًا فى عالمنا .
قلب (ميخائيل) كفيه ، وهو يقول فى استهتار :
ـ على العكس يا (حسين) بك .. لقد درسنا هذه النقطة بالذات ، ووجدنا أننا أمام احتمالين ، لا ثالث لهما ، فإما أن القادم سيتفاوض معك مباشرة ، بكل وضوح وصراحة ، مطمئنًا إلى أنك لن تخدعه ، أو أن نشك فى الأمر كله ، فلا نرسل أى مخلوق ، وفى الحالة الأولى لن يكون هناك فارق كبير ، بين إرسال شخص جديد ، أو حضورى شخصيًا لأداء المهمة ، فالتفاوض مع شخص مثلك ، يحتاج إلى خبير كما تعلم .
سأله (حسين) :
ـ وماذا لو أننى أخدعكم ؟
ابتسم (ميخائيل) فى ثقة ، وهو يجيب :

ـ لقد راقبناك طويلًا ، وأصبحنا واثقين من أنك لن تحاول هذا .
عقد (حسين) حاجبيه فى ضيق ، وقال :
ـ اسمع يا (بن ناثان) .. إننى أشعر بالضجر مع المقدمات الطويلة .. أخبرنى مباشرة ماذا تريدون منى ، ودعنا ننته من هذا الأمر السخيف .
أومأ (ميخائيل) برأسه متفهمًا ، وقال :
ـ أنت قريب للغاية من الرئيس (جمال) ، وهذا يفيدنا كثيرًا .
سأله (حسين) فى عصبية :
ـ فيمَ ؟!
برقت عينا (ميخائيل) ، ومال نحوه بشدة ، وهو يجيب :
ـ فى التخلص منه .
تراجع (حسين) فى عنف كالمصعوق ، وهو يهتف :
ـ ماذا ؟!
أشار إليه (ميخائيل) ، قائلًا :
ـ رويدك يا رجل .. اخفض صوتك ، ولا داعى لأن نخبر كل سائح فى الهرم ، بأننا نخطط لتصفية زعيم الحرية العربية .
قال (حسين) فى عصبية شديدة ، وبصوت منخفض :
ـ هل تتصوَّر أنه من الممكن أن أساعدكم فى هذا العمل القذر ؟
أجابه (ميخائيل) فى صرامة :
ـ لست مخيّرًا فى هذا ، فإما أن تفعل ، أو ندمر مستقبلك تمامًا ، بالوثائق التى لدينا .
هتف (حسين) محنقًا :
ـ إنكم تدمرون مستقبلى فى الحالتين .

هزَّ (ميخائيل) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ مطلقًا .. لن يربط أحد بينك وبين ما سيحدث قط .. إننا لسنا جهازًا غبيًا ساذجًا ، حتى يحدث هذا يا رجل .. سيتم التخلّص من (جمال عبد الناصر) بأسلوب بطىء بارع ، لن يتم كشفه قط ، حتى بوساطة الطب الشرعى .

سأله (حسين) :

ـ أى أسلوب هذا ؟

تراجع (ميخائيل) فى بطء ، وابتسم قائلًا فى خبث :

ـ هل علموك أنه من السهل أن يكشف المرء أساليبه هكذا ؟

لوَّح (حسين) بكفه ، قائلًا :

ـ ومن يرغب فى معرفتها ؟.. لن أشارك فى هذا العمل قط .

انعقد حاجبا (ميخائيل) فى صرامة ، وهو يقول :

ـ اسمع يا (حسين) .. لست هنا لتدليلك ، أو التوسّل إليك للقيام بالعمل .. أنت تعلم ما يمكننا فعله بشأنك .. ستؤدى هذا العمل لحسابنا ، وليس أمامك بديل آخر .

صمت (حسين) لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ اسمع أنت يا (بن ناثان) .. أسلوبك السخيف هذا لن يفيد قط ، افعلوا ما يحلو لكم فعله ، ولكن (حسين البنهاوى) لن يجازف بحياته ومستقبله ، دون أن يعرف حتى كيف سيتم هذا .. دعنى أطمئن إلى الأسلوب أوّلًا ، وبعدها اطلب ما بدا لك ، إما هذا ، أو اكشف ما يحلو لك كشفه من أمور .

قالها ، وهبّ واقفًا ، مزمعًا الانصراف ، فتلفّت (ميخائيل) حوله فى عصبية ، وقال :

ـ انتظر .

تطلّع إليه (حسين) ، فى صمت صارم ، فاستطرد :

ـ اجلس ، وسأشرح لك الأمر .

عاد (حسين) للجلوس ، فأشعل (ميخائيل) سيجارة أخرى ، وهو يقول :

ـ حسن .. ما ستفعله بسيط للغاية ، فكل ما عليك هو أن تستبدل بالمحبرة الرخامية ، على مكتب الرئيس ، محبرة أخرى تشبهها تمام الشبه .

قال (حسين) فى دهشة :

ـ فقط ؟!

لوَّح (ميخائيل) بكفه ، قائلًا :

ـ فقط .

صمت (حسين) لحظات مفكّرًا ، قبل أن يقول :

ـ وما الذى ستفعله تلك المحبرة البديلة ؟.. هل تحوى جهاز تنصت مثلًا ؟

هزَّ (ميخائيل) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ بل تطلق نوعًا من غاز الأعصاب ، بلا لون أو رائحة ، ونظرًا لأن الرئيس يقضى معظم وقته فى مكتبه ، فسيصاب بتسمم بطىء ، وترتبك قراراته ، ويصبح عصبيًا ثائرًا ، ثم ينتهى به الأمر إلى شلل تام ، ثم وفاة حتمية .

اتسعت عينا (حسين) فى هلع ، وهو يستمع إلى هذا ، وغمغم مرتاعًا :

ـ يا لها من خطة !

ابتسم (ميخائيل) فى زهو ، وهو يقول :
ـ إننا نحسن عملنا .. أليس كذلك ؟
فرك (حسين) كفيه متوترًا ، وبدا الصراع واضحًا فى ملامحه ، قبل أن يسأل فى خفوت عصبى :
ـ وأين تلك المحبرة البديلة ؟
التقط (ميخائيل) حقيبة صغيرة ، وناوله إياها ، قائلًا :
ـ هنا .
فتح (حسين) الحقيبة ، وألقى نظرة سريعة على محتوياتها ، قبل أن يعيد إغلاقها ، ويضعها إلى جواره ، قائلًا :
ـ عظيم .. هذا كل ما كنا نرغب فى معرفته .
تراجع (ميخائيل) كالمصعوق ، هاتفًا :
ـ كنتم ؟!
لم يكد يتمّ عبارته ، حتى أحاط به فجأة عدد من الرجال ، وقال أحدهم فى صرامة :
ـ (ميخائيل بن ناثان) .. أنا وكيل نيابة أمن الدولة العليا .
اتسعت عينا (ميخائيل) فى ارتياع ، وحدّق فى وجه (حسين) ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، ثم هتف فى ثورة :
ـ إنها (عايدة) .. لقد خانتنا .. أليس كذلك ؟
هزّ (حسين) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :
ـ كلّا يا (بن ناثان) .. (عايدة) تجهل أننى كشفت أمرها منذ اللحظة الأولى ، وأننى طلبت من رجالى مراقبتها ، وعندما فعلوا ، كشفوا أمر لقاءاتها المتصلة بسيّدة الفندق ، وهكذا تظاهرت أمامها بالغباء ، ورحت أبلغها بعض المعلومات الوهمية ، بالتنسيق مع

السيد رئيس الجمهورية شخصيًا ، حتى اطمأن قلبكم ، وقرّرتم الانتقال إلى النقطة الثانية ، وتركناك تدخل البلاد فى بساطة ، وكأننا لم نكشف تنكرك ، حتى ألتقى بك شخصيًا ، ونكشف الغرض من لعبتكم ، والهدف من محاولة تجنيدى .
انعقد حاجبا (ميخائيل) فى شدة ، وهو يقول فى مرارة :
ـ أهنئكم .. لقد أحسنتم اللعبة هذه المرة .
هزّ (حسين) كتفيه ، قائلًا فى ظفر :
ـ بالطبع .. ثقتكم الزائدة بأنفسكم ، واستهتاركم التام بقدراتنا ، ساعدنا كثيرًا على الإيقاع بكم .. وبالمناسبة .. فى هذه اللحظة بالذات ، يلقى فريق من رجالنا القبض على سيّدة الفندق ، وعامل المحطة ، وباقى أفراد شبكة التجسّس .
ثم انعقد حاجباه ، مستطردًا فى صرامة :
ـ أما (عايدة) ، فقد طلبت منهم ادخارها لى ، فأنا أحب أن ألقى القبض عليها بنفسى .
وبرقت عيناه على نحو عجيب ..

★ ★ ★

اعترض (مفيد) طريق (سوسن) ، أمام فصلها تمامًا ، وهو يقول فى ألم وأسف :
ـ (سوسن) .. استمعى إلىّ أرجوك .. أريد تفسير موقفى .
أجابته فى صرامة ، وهى تشيح بوجهها عنه :
ـ أستاذ (مفيد) .. أرجوك .. ستبدأ حصتى بعد دقيقة واحدة .
قال فى ضراعة :
ـ أحتاج إلى نصفها لشرح ما حدث .

هزّت رأسها نفيًا فى عنف ، وقالت :

ـ لا فائدة يا أستاذ (مفيد) .. لم أعد أرغب فى سماع حرف واحد ، ثم ..

وانخفض صوتها ، وهى تستطرد :

ـ ثم إنه لم تعد هناك فائدة من هذا .

خفق قلبه فى هلع ، وهو يسألها :

ـ ماذا تعنين ؟

صمتت لحظة ، وهى تزدرد لعابها فى صعوبة ، ثم أجابت بصوت مختلج :

ـ أنت تعلم أن الأستاذ (حسن) قد عرض على الزواج أكثر من مرة ، و ...

لم تستطع إتمام عبارتها ، فابتلعتها فى مرارة ، جعلته يرتجف ، وهو يسألها :

ـ ماذا تعنين يا (سوسن) ؟

حاولت أن تجيب ، ولكن لسانها عجز عن هذا ، فاكتفت برفع كفها اليمنى أمام عينيه ، اللتين تعلّقتا بتلك الدبلة الذهبية فى وسطاها ، فانشق قلبه ، وهو يغمغم فى صعوبة :

ـ (سوسن) .. هل ...

جرت من أمامه ، قبل أن يتمّ سؤاله ، وغابت فى فصلها ، وأغلقت بابه خلفها ، تاركة إياه نصف صريع أمامه ، وخنجر من نار يمزّق قلبه بلا هوادة ..

لقد فقدها مرة أخرى ..

فقدها ، بعد أن تصوّر أنه صار قاب قوسين أو أدنى منها ..

وفى هذه المرة أيضًا ، فقدها بسبب (مديحة) ..

(مديحة) التى اختفت من أمام عينيه ، ولكنها لم تختف من حياته قط ..

وفجأة ، انتبه (مفيد) إلى أن دموعه تسيل من عينيه ، وتغرق وجهه كله ..

وفى أعماقه ، نما وتصاعد شعور قوى بالوحدة ..

وبالضياع ..

★ ★ ★

« السادة المسافرون على طائرة (مصر للطيران) ، المتجهة إلى (باريس) ، عليهم التوجّه مباشرة إلى بوابة السفر رقم سبعة ، وهذا هو النداء الأخير .. »

ألقت (عايدة) نظرة متوترة على ساعتها ، ونفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ أأنت واثق من أن السفر إلى (باريس) لن يعرّضنى للخطر ؟

أومأ (حسين) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ تمام الثقة ، فهم لا يعلمون أنك أبلغتنا بخطتهم ، منذ اللحظة الأولى ، وأنك تعاونت معنا للإيقاع بهم فى فخنا ، فقد أوهمناهم أنك مشتركة معهم فى محاولتهم للنيل من الرئيس ، وأننا نسعى لإلقاء القبض عليك ، وبعدها سنعلن غضبنا وسخطنا ؛ لأنك نجحت فى الفرار إلى (باريس) ، قبل أن نوقع بك .. ثم إن رحيلك المفاجئ ، بدون حقائب أو حتى أدوات زينة ، سيقنعهم بالأمر تمامًا .

حاولت أن تبتسم ، وهى تقول فى اضطراب :

ـ إذن فسيمكننى أن أحيا باطمئنان فى (باريس) .

أجابها فى هدوء :

ـ لن يمر الأمر بالبساطة التى تتصوَّرينها ، فالشك جزء من تكوينهم ، ولكن كل شىء سيؤيِّد أقوالك ، وبخاصة سفرك إلى (باريس) ، فالطبيعى ، فى حالة خيانتك لهم ، أن تفضّلى البقاء هنا ، خشية انتقامهم منك هناك .

هزَّت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ لست أحتمل العيش هنا .

أومأ برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ أعلم هذا .

التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، وتطلَّعت إليه طويلًا ، قبل أن تسأله :

ـ وماذا عن الفيلم ؟

هزَّ كتفيه فى لا مبالاة ، قائلًا :

ـ لم تعد له أية قيمة بعد ما حدث .

قالت مبتسمة :

ـ إذن فقد فقدت سلاحى الوحيد ، ولم يعد بإمكانى إقناعك .

سألها فى اهتمام :

ـ بماذا ؟

مالت على أذنيه ، وهمست :

ـ بأن تتزوَّجنى .

قالتها ، وطبعت قبلة دافئة على خده ، فابتسم قائلًا :

الوداع يا (عايدة) .

رفعت أحد حاجبيها ، قائلة :

ـ بل قل : إلى اللقاء ، فالتخلّص منى ليس بالبساطة التى تتصوَّرها .

مسح طلاء شفتيها عن خده ، وهو يراقب طائرتها ، التى انطلقت إلى (باريس) ، وانطلقت من صدره زفرة ارتياح ، وهو يراجع كل الأمور فى ذهنه ، ويبتسم فى ثقة واعتداد ..

لقد انتهت كل الأمور لصالحه هذه المرة ، وهذا يعنى أنه سينعم بفترة هدوء طويلة ..

طويلة للغاية ..

* * *

٢٨ ـ ويمضى الزمن ..

انعقد حاجبا (بسيونى) شيخ الخفراء ، وهو يزيح طاقيته ، ويهرش رأسه فى حيرة ، وأشار إلى سراى (البنهاوى) ، وهو يقول :

ـ انظر يا جناب العمدة .. السراى تزينه الأضواء .. هل سيتزوّج أحد أبناء (البنهاوى) .

تطلّع الحاج (سعفان) إلى السراى بدوره ، قبل أن يلوّح بيده ، قائلًا :

ـ كلّا .. إنه عيد ميلاد (طارق) .. هل نسيت تاريخ اليوم ؟

هتف (بسيونى) :

ـ آه .. هذا صحيح .

ثم هزّ رأسه ، مستطردًا :

ـ الحقيقة يا عمدة أن آل (البنهاوى) وحدهم يحتفلون بهذه المناسبة ، فى قريتنا كلها .. إنهم يتعالون علينا بتصرفاتهم ، وملابسهم البندرية .

قال الحاج (سعفان) فى صرامة :

ـ لا تدس أنفك فى شئون الآخرين يا (بسيونى) .

تمتم شيخ الخفراء فى بلادة ، وهو يحمل بندقيته على كتفه :

ـ بالطبع يا جناب العمدة .. بالطبع .. زادك الله (سبحانه وتعالى) حكمة ووقارًا .

سارا بضعة أمتار فى صمت ، ثم عاد (بسيونى) يسأل :

ـ هل بلغتك أخبار (طارق البنهاوى) يا جناب العمدة ؟.. إنه ولد شقى للغاية .. لقد بلغ الثانية عشرة من عمره ، ومازال يتصرّف كالأطفال ، فأمس اختطف طاقية (محمود) ، ابن (طه المنهراوى) ، و ...

قاطعه العمدة :

ـ قلت لك : لا تدس أنفك فى شئونهم .

مطّ (بسيونى) شفتيه ، وكأنما لم يرق له أن يمنعه العمدة من الخوض فى الحديث ، ولكنه قال صاغرًا :

ـ كما تأمر يا جناب العمدة .. كما تأمر .

حملتهما أقدامهما إلى ذلك المقهى ، عند مدخل القرية ، واستقرّ بهما المقام حول إحدى موائده ، وصفّق الحاج (سعفان) بكفيه ، قائلًا :

ـ قدحان من الشاى مع كثير من السكّر .

ارتفع عندئذ صوت مرح ، يهتف :

ـ طلبات العمدة على حسابى .

التفت العمدة وشيخ الخفراء إلى صاحب الصوت ، ثم هتف الأوّل :

ـ (جودة) ؟!.. غير معقول .

ونهض يعانقه فى حرارة ، وهو يسأله فى دهشة :

ـ متى أفرجوا عنك ؟!..

ابتسم (جودة) ، مجيبًا :

ـ أوّل أمس يا عمدة .. وعدت إلى هنا مساء أمس ، وهأنذا أبدأ عملى فى المقهى اليوم .

هتف الحاج (سعفان) مندهشا :

ـ تبدأ عملك هنا ؟!.. أين (شعبان) إذن ؟

هزّ (جودة) كتفيه ، وقال :

ـ أعتقد أنه رحل .. لم تعد هناك حاجة لوجوده بعد عودتى .

لم يفهم العمدة أو (بسيونى) ما علاقة وصول (جودة) برحيل (شعبان) ، إلا أن أحدًا منهما لم يتوقف ليفكر كثيرًا فى هذه النقطة ، وإنما قال (بسيونى) ، وهو يتطلع إلى (جودة) :

ـ لم تتغيّر كثيرًا يا (جودة) ، على الرغم من غيابك لخمس سنوات .

رفع (جودة) سبّابته ، قائلًا :

ـ بل ست يا (بسيونى) .. ست سنوات تقريبًا ، من عام ستين ، وحتى عام ستة وستين ..

ربّت العمدة على كتفيه ، قائلًا :

ـ خمس أو ست .. حمدًا لله على سلامتك ، على أية حال يا رجل .. قل لى .. هل ستستقر هنا .

لوّح (جودة) بكفه ، قائلًا بابتسامة كبيرة :

ـ بالطبع يا عمدة .. إنها قريتى ومسقط رأسى ، ثم إن العيش هنا صار يروق لى أكثر من ذى قبل .. يروق لى كثيرًا .

قالها ، وعيناه تتألقان ، وابتسامته تحمل الكثير من السخرية .. ومن الغموض ..

★ ★ ★

استرخى (مفيد) فى مقعد وثير ، متطلعًا إلى سقف حجرة الاستقبال فى السراى ، وأذناه تتجاهلان ذلك الضجيج ، الذى يصنعه أطفال العائلة من حوله ..

كان عقله يسبح بعيدًا .. بعيدًا ..

يسبح فى أربع سنوات مضت :

ومن قلبه ، سالت دمعة كبيرة ..

أمور كثيرة تغيّرت ، فى هذه السنوات الأربع ..

(سوسن) تزوّجت ، وأنجبت طفلتين ، واستقالت من العمل ؛ لتتفرّغ لتربيتهما ، وانقطعت صلته بها تمامًا ..

و (جيهان) اختفت من المدينة كلها ..

لم تحتمل العار والفضيحة ، فحملت حقيبتها ذات يوم ، واستقلّت القطار إلى (الإسكندرية) فى الفجر ، ولم يعد أى مخلوق يعرف عنها شيئًا ..

أما (شريفة) ، فقد استوعبت مصرع (أمجد) وهضمته ، وعادت تتعايش مع واقعها فى استسلام وانكسار ، وكأنما لم يعد أمامها سوى اليأس ، بعد أن بلغت السادسة والثلاثين من عمرها ، ولم تتزوّج بعد ..

ومازالت (فاطمة) تتعامل معها ، ومع الجميع بغلظة وخشونة ، ومشاحناتها مع نساء الأسرة لا تتوقف قط ..

و (حافظ) لا يتدخل فى مثل هذه الأمور قط ..

إنه ـ كما كان دائمًا ـ صامت ، منكسر ، يكتفى بمراقبة الأمور ، دون التدخل فيها أو حتى الاقتراب منها ..

وعلى الجانب الآخر ، يصرّ (فؤاد) دائمًا على دس أنفه ، فى كل ما يخص الأسرة ، بحجة أنه زوج (ناهد) ، على الرغم من أن (عمر) لا يحاول التدخل فى مثل هذه الأمور قط ، و (عبد الحكيم) انعزل تقريبًا ، بعد وفاة (توحيدة) ، منذ أربع سنوات ، ولم يعد يلتقى بالأسرة إلا فى الأعياد والمناسبات ، حين يلتقى الجميع ، ويزدحم السراى ، وينطلق الأطفال يلعبون ويمرحون ..

« أين (نادرة) ؟.. »

انتزعته (نعيمة) من شروده بسؤالها هذا ، فاعتدل يتطلّع إلى وجهها لحظة ، قبل أن يجيب ، وهو يتلفّت حوله :

ـ لست أدرى .. كانت هنا منذ قليل .. ربما ذهبت إلى الحديقة .

قالت (نعيمة) فى غضب :

ـ هذه السخيفة .. لقد طلبت منها معاونة خالتها فى المطبخ ، ولكنها اختفت تمامًا .

نهض يربّت على كتفها مهدّئًا ، وهو يقول :

ـ سأبحث عنها .. لا تقلقى نفسك بالأمر .

وراح يبحث عن (نادرة) فى حجرات الطابق الأرضى ، ثم سأل (عماد) ، ابن الراحلة (توحيدة) :

ـ هل رأيت (نادرة) يا (عماد) ؟

ابتسم (عماد) فى خبث ، وهو يقول :

ـ ربما تجدها فى الحديقة الخلفية مع (طارق) .. إنهما يجلسان هناك كثيرًا هذه الأيام .

بدت الدهشة على وجه (مفيد) ؛ لهذا الأسلوب الماكر ، الذى

يتحدّث به (عماد) ، الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره بعد ، وغمغم مبتعدًا :

ـ سأبحث عنهما هناك .

اتجه على الفور إلى الحديقة الخلفية ، ولم يكد يتجاوز مدخلها ، حتى ارتفع حاجباه فى تعاطف ، وهو يتطلّع إلى (طارق) و (نادرة) ..

كانا ينهمكان فى حديث هامس ، عند قاعدة شجرة الجوافة الجديدة ، فى ركن الحديقة الخلفية ، وكل منهما يولى الآخر كل اهتمامه وانتباهه ..

وتحرّك قلب (مفيد) فى صدره ..

كانا فى موقفهما هذا يذكرانه بأيام حبه الأولى مع (مديحة) ، عندما كانا يلتقيان عند الشجرة العتيقة فى الحقل ..

لقد بدأ حبه لها ، وهو بعد في الثالثة عشرة من عمره ..

تمامًا مثل عمر و (نادرة) الآن ..

ولكن (طارق) يصغر (نادرة) بعام كامل ، و ...

ما هذا الذى يفكّر فيه ؟..

ما شأنهما بمسألة العمر هذه الآن ؟..

من أدراه أن أحدهما قد راودته فكرة أن يتزوّج الآخر يومًا ؟!..

مجرّد الفكرة ..

« (طارق) .. »

لم يدر كيف انفلت النداء من بين شفتيه بغتة ، ولكن (طارق) سمعه ، فانتفض واقفًا فى سرعة ، وهو يقول :

ـ أنا هنا يا عمى .

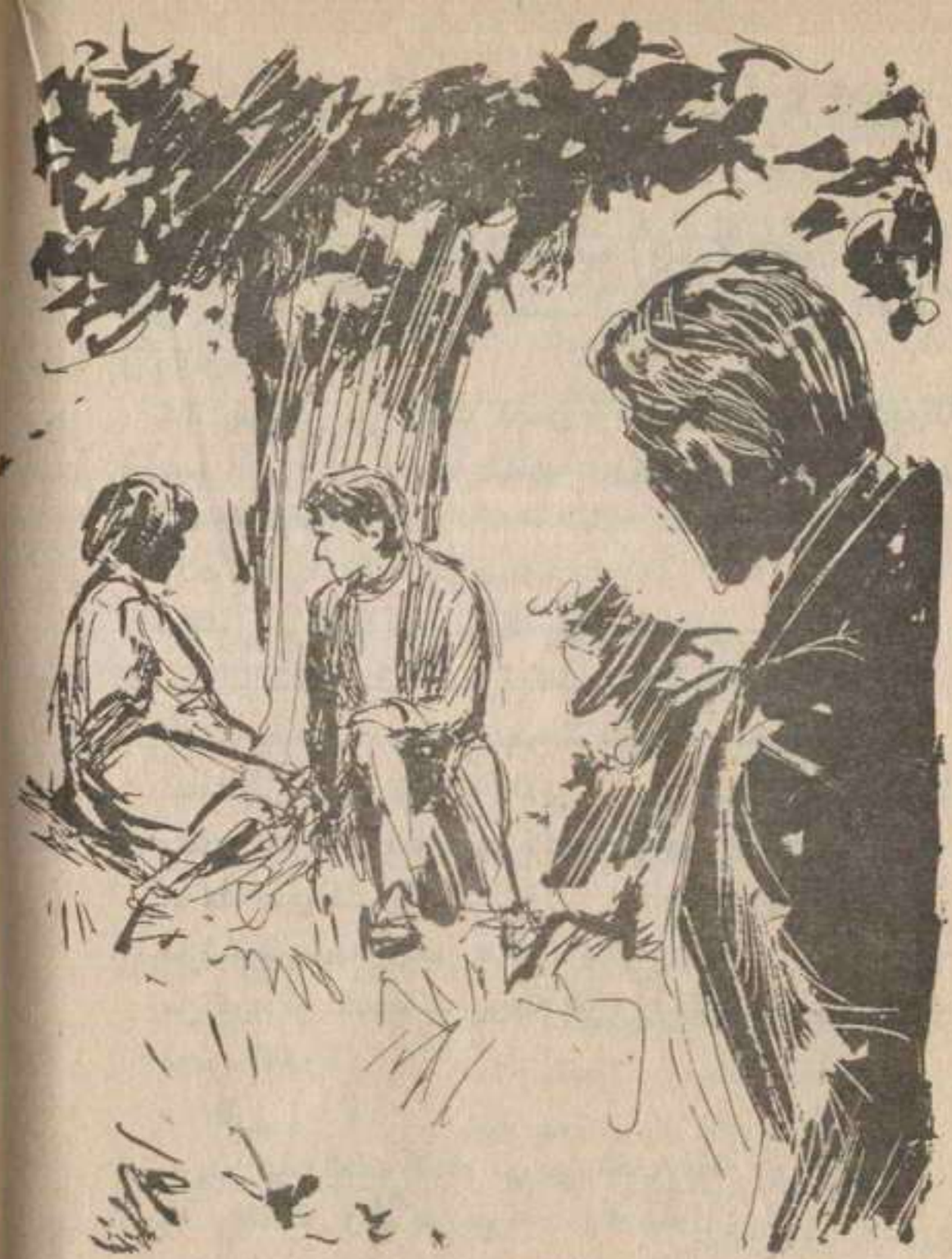

اتجه على الفور إلى الحديقة الخلفية ، ولم يكد يتجاوز مداخلها ، حتى ارتفع حاجباه فى تعاطف ..

أما (نادرة) ، فقد تخضّب وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت وهى تنهض بسرعة ، وخفضت عينيها أرضًا فى صمت ، فابتسم (مفيد) ، وقال :

ـ كنت أبحث عن (نادرة) ؛ فوالدتها تطلبها .

تمتمت (نادرة) فى ارتباك :

ـ سأذهب إليها على الفور .

أفسح لها الطريق ، فتجاوزته فى خطوات أقرب إلى الركض ، دون أن تنظر إليه ، فى حين تنحنح (طارق) فى حرج ، فأشار إليه (مفيد) ، قائلًا :

ـ هل تشعر بميل إليها ؟

تخضب وجهه بحمرة الخجل أيضًا ، وهو يجيب مرتبكًا :

ـ إنها ابنة عمتى ، و ...

لم يستطع إجابة السؤال ، من شدة خجله وارتباكه ، فتجاوز (مفيد) الأمر ، وهو يقول :

ـ الجميع هنا لحضور عيد ميلادك ، فلم لا تجلس معهم قليلًا .

أجابه (طارق) فى حرج :

ـ سأفعل بالطبع .

ابتسم (مفيد) فى حنان ، وهو يتابعه ببصره ، فى أثناء توجهه إلى حجرة الاستقبال ، وغمغم فى خفوت :

ـ الزمن يمضى ، والصغار يكبرون .

سمع صوتًا يهتف به :

ـ (مفيد) .. هل تحدّث نفسك ؟

التفت إلى (شريفة) ، وابتسم قائلًا :

ـ أعتقد أنها نهاية طبيعية ، لكل من ينتمى إلى عائلة (البنهاوى) .. أليس كذلك ؟

هتفت معترضة :

ـ بعدًا للشر .. عائلتنا هى أفضل عائلة فى البر كله .

ثم اتجهت إلى المطبخ ، مستطردة فى أسى :

ـ والمفروض أن أعدّ عشاءً يكفيها كلها .

ربّت (مفيد) على كتفها ، وهو يقول :

ـ هذا ليس جديدًا بالنسبة لك .

غمغمت فى حزن :

ـ بالطبع .. المهم أن يصبح يومًا مجرّد ذكرى .

أدرك ما تعنيه بقولها هذا ، فعاد يربّت على كتفها فى صمت ، ثم تركها متجهًا إلى حجرة الاستقبال ، وهناك كان (عبد الحكيم) يهمس لـ (عمر) فى اهتمام :

ـ هل بلغتك آخر أخبار (رضا العبد) ؟

هزّ (عمر) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ آخر ما وصلنى منه كان منذ ستة أشهر .. هل من جديد ؟

أجابه (عبد الحكيم) مبتسمًا :

ـ بل هناك الكثير من الأخبار الجديدة ، فقد تزوّج هناك من أمريكية ثرية ، ويدير كل أعمالها ومشاريعها ، إلى جوار مشاريعه الخاصة ، التى بلغ رأس مالها ما يقرب من مليون دولار .

أومأ (عمر) برأسه ، قائلًا :

ـ ماشاء الله .. ماشاء الله .. (رضا) يستحق كل خير .

وافقه (عبد الحكيم) بإشارة من رأسه ، وقال :

ـ مصنعنا أيضًا حقّق أرباحًا عظيمة هذا الموسم .

ابتسم (عمر) فى سخرية ، وقال :

ـ نعم .. و (حسين) حصل على ثلثها .

مال عليه (عبد الحكيم) ، وهمس :

ـ أما زلت تفكّر فى هذا الأمر ؟

عقد (عمر) حاجبيه ، وهو يسأله :

ـ وهل يمكنك نسيانه ؟

لوّح (عبد الحكيم) بيده ، قائلًا :

ـ لقد علّمت نفسى النسيان .. هذا أفضل كثيرًا .

أجابه (عمر) فى مقت :

ـ أما أنا ، فقد علّمت نفسى الصبر ، والانتظار .

سأله (عبد الحكيم) همسًا :

ـ هل تتوقّع تغير الأمور فى (مصر) ؟

هزّ (عمر) كتفيه ، وقال :

ـ سيحدث هذا إن عاجلًا أو آجلًا ، فدوام الحال من المحال .

ابتسم (عبد الحكيم) ، وهو يقول :

ـ السؤال هو : هل سيكون التغيير إلى الأفضل ، أم إلى الأسوأ ؟!

تنهّد (عمر) ، قائلًا :

ـ لا يمكنك التنبؤ بالجواب ، فى بلد كهذا .. تنام فيه على قرار بالسير نحو الشرق ، وتصحو لتجد أن الجميع يسيرون غربًا .

همّ (عبد الحكيم) بالتعليق ، لولا أن هتف (رأفت) ، ابن (ناهد) :

ـ خالى (حسين) وصل .

سرت موجة من التوتر فى المكان ، مع وصول (حسين) ، الذى جاء منفردًا هذه المرة ، ولم يصحب معه بعض المعارف أو الأصدقاء ، كما كان يفعل فى السنوات الماضية ..

لم يكن قد تجاوز الثامنة والثلاثين من عمره بعد ، إلا أن بعض الشعيرات البيضاء تسللت إلى شاربه وفوديه ، فمنحته مظهرًا يفوق عمره بعدة سنوات ، ويزيده هيبة ووقارًا ..

ونهض الجميع لتحيته فى احترام شديد ..

أو قل هو خوف ورهبة ..

وفى هدوء لا يخلو من الغطرسة ، صافحهم (حسين) ، ثم اتخذ مجلسه فى صدر المكان ، وسأله (عبد الحكيم) :

ـ هل أتيت وحدك هذه المرة يا (حسين) بك ؟

أجابه (حسين) فى شىء من اللامبالاة :

ـ رأيت أنه من الأفضل أن يكون الاحتفال عائليًا .

غمغم (فؤاد) فى شىء من الضجر :

ـ هذا أفضل .

التفت إليه (حسين) فى صرامة ، فأسرعت (ناهد) تقول :

ـ هل نبدأ الاحتفال على الفور ، أم ننتظر قليلًا ؟

نجحت مناورتها فى جذب انتباه (حسين) ، فاستدار إليها ، قائلًا :

ـ ولم الانتظار .. دعينا نبدأ الآن .

تحرّكت (ناهد) لإعداد الحفل ، ولكن (طارق) استوقفها ، قائلًا فى صرامة عجيبة ، لا تتفق أبدًا مع سنوات عمره الاثنتى عشرة :

ـ لحظة يا عمتى .

التفتت العيون كلها إليه فى دهشة ، وابتسم (حسين) فى حنان ، وهو يسأله :

ـ ماذا هناك يا (طارق) ؟

أجابه (طارق) فى حزم :

ـ قبل إعداد الحفل ، أحب أن أقول : إننى لا أرغب فى الاحتفال بعيد ميلادى هذا العام .

اتسعت العيون فى دهشة أكبر ، وهتفت (شريفة) :

ـ ماذا تقول يا (طارق) ؟

عقد ساعديه أمام صدره ، وهو يكرّر :

ـ أقول إننى لن أحتفل بعيد ميلادى هذا العام .. إلا إذا ..

سأله (حسين) فى سرعة :

ـ إلا إذا ماذا ؟

انتقل الانعقاد إلى حاجبى (طارق) ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ إلا إذا حضر أبى وأمى عيد ميلادى .

وفى هذه المرة ، لم تتسع العيون وحدها فى دهشة ، بل انفغرت الأفواه أيضًا ، وانتقلت الأبصار كلها إلى وجه (حسين) ، فى انتظار رد فعله ، بعد هذا التحدّى المباشر من (طارق) ، الذى التفت إلى عمه ، مستطردًا فى عناد واضح :

ـ ما رأيك يا عمى ؟

بقى (حسين) صامتًا لحظات ، ووجهه خال من أية تعبيرات ، ثم انفرجت شفتاه ، و ...

وألقى جوابه .

* * *

٢٩ ـ الخطـوة الأولى ..

أطلقت (عايدة) ضحكة عالية ، وهى تلوّح بكأسها فى الهواء ، فى ملهى (الليدو) ، وتهتف فى مرح عابث :

ـ فى صحة (فرنسا) الحرة .

ضربت كأسها فى كأس (جان) ، ثم جرعتها دفعة واحدة ، واحتقن وجهها فى شدة ، وهى تعاود الهتاف :

ـ فى صحة الحرية فى كل مكان .

ارتشف (جان) رشفة من كأسه ، وتطلّع مشفقًا إلى قطرة الدمع الكبيرة ، التى تجمّعت فى عينيها ، ثم مال نحوها ، هامسًا :

ـ (عايدة) .. هل تبكين ؟

مسحت دموعها بأصابعها بسرعة ، وهى تقول فى عصبية :

ـ أبكى ؟!.. مستحيل !.. إنها ذرة رمل تسللت إلى عينى ، و ...

قبل أن تتم عبارتها ، غلبها تأثرها بغتة ، وفوجئت بنفسها تنفجر باكية ، فتراجع (جان) فى دهشة ، وهتف :

ـ (عايدة) .. ماذا بك ؟

أجابته ، وهى تنتحب :

ـ يبدو أننى أسرفت فى الشراب .

ابتسم متعاطفًا ، وقال :

ـ بل يبدو أنك أسرفت فى الضغط على عواطفك .

قالت وهى تشيح بوجهها ، وتمسح دموعها ثانية :

ـ أنت لا تعرف ما تتحدّث عنه .

هزّ رأسه مبتسمًا فى إشفاق ، وهو يقول :

ـ بل أعرفه جيدًا يا (عايدة) .. وأنت أيضًا تعرفينه ، ولكنك ترفضين الاعتراف به ، وهذا ما بذّل حالك ، وغيّرك تمامًا ، ألم ترهقك المقاومة بعد ؟!.. إنك تصارعين قلبك منذ أربع سنوات .. ألم تحن لحظة استسلامك له بعد ؟

رفعت عينيها إليه ، وقالت :

ـ (جان) .. إننى ..

قاطعها بابتسامة حنون :

ـ أنت غارقة حتى أذنيك فى حب (حسين البنهاوى) .

هزّت رأسها نفيًا ، وأرادت أن تصرخ مستنكرة ، إلا أن مشاعرها لم تطاوعها ، فاكتفت بالصمت ، وتركت دموعها تنحدر على خديها ، وتابع (جان) :

ـ إننى أشعر بهذا منذ البداية .. ما من رجل شغل تفكيرك ، مثلما فعل (حسين) هذا .. إنك متيّمة به يا (عايدة) ، ويمكننى أن أقول ، دون أدنى تردّد ، إنه الحب الوحيد فى حياتك .

ثم عاد يميل نحوها ، ويسألها :

ـ لماذا لا تعودين إليه ؟

أجابته ، وهى تبكى فى مرارة :

ـ لم يعد بإمكانى هذا .. عودتى إلى (القاهرة) ستكون بمثابة اعتراف صريح ، بأننى خدعت الإسرائيليين ، وعندئذ لن أسلم من انتقامهم ، لو حاولت العودة إلى هنا .

ابتسم قائلًا :

ـ هل تتصوّرين أن الإسرائيليين مازالوا يذكرونك ؟!.. لقد مضت

أربع سنوات كاملة ، ولو أنهم يشكون فى أمرك ، فما الذى منعهم من الانتقام منك ، طوال كل هذه الفترة .. ثم إنك لو عدت إلى (القاهرة) ، وتزوجت (حسين) ، فما حاجتك للعودة إلى هنا ؟!.. لا تتحجُجى بمتجر الثياب ، فسنجد من يديره بكفاءة ، ويرسل لك إيراداته شهريًا .. ليست هذه هى المشكلة .

ومدّ أصابعه يمسح دموعها ، قبل أن يستطرد :

ـ المشكلة الحقيقية هى : هل يحبك (حسين) مثلما تحبينه ؟ ، وهل هو مستعد للزواج منك ؟

حاولت أن تبحث عن جواب مؤكّد فى عقلها وقلبها ، إلا أنها وجدت نفسها تقول فى النهاية :

ـ لا يمكننى الجزم .

تراجع ، قائلًا :

ـ اسأليه إذن .

تمتمت :

ـ ماذا تقول ؟

أجاب فى حزم :

ـ أقول إنك سألته الزواج يومًا ، عندما كنت تهددينه بذلك الفيلم الزائف ، أما الآن ، فأريد منك أن تسأليه : هل يقبل الزواج منك ، إذا ما عدت إلى (القاهرة) ؟

ارتجفت أصابعها ، وهى تلتقط سيجارتها ، وعجزت عن إشعالها بقدّاحتها عدة مرات ، وهى تقول :

ـ أتعتقد أن هذا الأسلوب يليق بأميرة مثلى ؟

ابتسم قائلًا ، وهو يشعل سيجارتها بقدّاحته :

ـ بل يليق بعاشقة والهة .

ارتبكت وهى تنفث دخان سيجارتها ، وغمغمت :

ـ هذا يحتاج إلى بعض التفكير يا (جان) .

قالتها وعقلها يعتصر قلبها لاتخاذ قرار حاسم ..

قرار يمكنه أن يغيّر مصيرها ..

بل حياتها كلها ..

★ ★ ★

اتحبست الأنفاس فى الصدور ، وجفّت الحلوق والعيون ، والكل ينقلون أبصارهم بين (طارق) و (حسين) ، فى انتظار لما سيسفر عنه الموقف ..

(مفيد) بالذات راح يراقب المشهد فى لهفة وفضول ، وهو يتساءل : من سيفرض رأيه هذه المرة ؟..

وعلى الرغم من كل توقعاتهم ، وكل ما استنتجوه بشأن ما سيحدث ، إلا أن الدهشة كانت من نصيبهم جميعًا ، عندما ابتسم (حسين) ، قائلًا :

ـ فليكن .. طلباتك أوامر أيها (البنهاوى) الصغير .

كانت مفاجأة مدهشة بحق ، أثبتت أن (طارق) بالذات يحتلّ فى قلب (حسين) مكانة خاصة ، لا ينافسه فيها أحد ..

مكانة ، جعلته يتخلّى عن عناده ، ويوافق على انضمام (فاطمة) و (حافظ) لحفل عيد الميلاد ، لأوّل مرة فى حياتهما ..

أما (فاطمة) ، التى كانت تتصبّب على ما يحدث ، فقد خفق قلبها فى عنف ، وهتفت بزوجها فى سعادة بلا حدود :

ـ هل سمعت يا (حافظ) ؟.. هل فهمت يا رجل ؟.. إننى وأنت سنحضر حفل عيد ميلاد (طارق) !.. يا لصغيرى الحبيب .. لقد صار رجلًا ، ولم يقبل هواننا أبدًا .

تهللت أسارير (حافظ) ، وهو يقول :

ـ لقد فعل ما طلبته منه أنت بالضبط .

احتقن وجهها ، وهى تهتف به :

ـ يا للمصيبة !.. إياك أن تشير إلى هذا يا رجل .. هل تحب أن يتراجع (حسين) بك فى رأيه ؟

أجابها هلعًا :

ـ كلًا .. كلًا .. إننى أتمنى حضور عيد ميلاد (طارق) منذ مولده .

لم يكد يتم عبارته ، حتى اقتحم (طارق) الحجرة ، وهو يقول فى سعادة :

ـ أبى .. أمى .. استعدا .. ستنضمان إلى العائلة ، لحضور حفل عيد ميلادى .

أغرورقت عينا (حافظ) بالدموع ، وهو يقول :

ـ عيد ميلاد سعيد يا ولدى .

انكبّ (طارق) على كف والده ، يغمره بالقبلات ، ثم استدار إلى أمه ، التى احتوته فى صدرها ، وسكبت دموع الفرح على شعره ، وهو يقول بصوت متهدّج :

ـ لم يمكننى الاحتفال بدونكما .

هتفت (فاطمة) بصوتها الأجش الغليظ ، الذى لم يحجب نبرة الحنان القوية فيه :

ـ بوركت يا (ولدى) .. بارك الله فيك يا (طارق) .

ثم التفتت إلى (حافظ) ، مستطردة فى لهفة :

ـ لقد احتفظت لنا بثوبين نظيفين ، لحضور الحفل .

غمغم (حافظ) :

ـ أكنت وَاثقة من النتائج إلى هذا الحد ؟

أجابته فى شراسة :

ـ إنه ابنى الوحيد .

ثم ضمّت (طارق) إلى صدرها ثانية ، مستطردة :

ـ إنه الأمل .

ومن عينيها ، أطلّ بريق قوى ..

ومخيف ..

★ ★ ★

كان لعيد ميلاد (طارق) طعمًا مختلفًا فى هذا العام ، وطابعًا متميزًا ، يختلف عن كل السنوات الماضية ، لاجتماع الأسرة كلها فيه لأوّل مرة ..

ولقد سكب (حافظ) دموعًا غزيرة ، فى حين ظلّت (فاطمة) قوية متماسكة ، يملؤها شعور بالزهو والفخر ، أثار حنق (نعيمة) و (شريفة) ، اللتين تعمدتا تجاهلها تمامًا طوال الوقت ، فى حين بدا (حسين) بسيطًا ، على نحو أثار دهشة الجميع ، وملأهم بالحيرة والقلق ، فهمس (عبد الحكيم) فى أذن (عمر) :

ـ هل يبدو لك (حسين) طبيعيًا الليلة ؟!

ابتسم (عمر) فى سخرية ، قائلًا :

ـ حتى الشيطان يحتاج أحيانًا إلى لحظة من الراحة .

تمتم (عبد الحكيم) ، وهو يختلس النظر إلى (حسين) :

ـ أهذا رأيك ؟

هزَّ كتفيه ، قائلًا :
ـ هل أصبحت الآراء الشخصية محظورة أيضًا ؟
بدا (عبد الحكيم) شاردًا ، وهو يتطلَّع إلى (حسين) ، فلكزه (عمر) بمرفقه ، قائلًا بابتسامة خبيثة :
ـ لا تتردَّد هكذا !.. هيا .. افتح معه الحوار مباشرة .
سأله (عبد الحكيم) فى قلق :
ـ هل تعتقد هذا ؟
لوَّح (عمر) بكفه ، وقال مبتسمًا :
ـ لن تجد ظروفًا أفضل من هذه .
تردَّد (عبد الحكيم) لحظة ، ثم حسم أمره ، قائلًا :
ـ أنت على حق .. سأفاتحه فى الأمر ، على بركة الله .
قالها ، واتجه نحو (حسين) مباشرة ، ولكنه لم يكد يبلغه ، حتى زايله حسمه ، وذهبت عنه شجاعته ، فارتبك وتنحنح ، مغمغمًا :
ـ عيد ميلاد سعيد لـ (طارق) يا (حسين) بك .
أجابه (حسين) فى هدوء عجيب :
ـ شكرًا يا (عبد الحكيم) .
تردَّد (عبد الحكيم) لحظة أخرى ، ثم اندفع يقول :
ـ هل يمكننى التحدَّث إليك وحدنا ؟!
تطلَّع إليه (حسين) فى دهشة ، ثم نهض قائلًا :
ـ بالتأكيد .. تعال بنا إلى الحجرة الأخرى .
ذهبا معًا إلى حجرة الضيوف ، وجلسا صامتين لدقيقة أو يزيد ، و (حسين) يتطلَّع إلى (عبد الحكيم) مترقبًا ، قبل أن يقول فى ضجر :
ـ ماذا لديك يا (عبد الحكيم) ؟

تنحنح (عبد الحكيم) مرة أخرى ، وقال فى ارتباك :
ـ أنت تعلم أننى ، ومنذ وفاة (توحيدة) ، أحيا وحيدًا ، مع (عماد) و (وحيد) و (رأفت) ، وأتولَّى كل شئونهم ، إلى جانب عملى فى المصنع ، وإشرافى على الحدائق التى أمتلكها .
قال (حسين) فى اهتمام :
ـ نعم .. أعلم هذا .
ازدرد (عبد الحكيم) لعابه ، وقال :
ـ ولكن الأمور تزداد صعوبة فى كل يوم ، ولم يعد باستطاعتى وحدى تحمّل كل هذه المسئوليات ، و ...
قاطعه (حسين) بغتة ، وهو يقول فى صرامة :
ـ (عبد الحكيم) .. هل تفكِّر فى الزواج مرة أخرى ؟
ارتبك (عبد الحكيم) بغتة ، ثم أجاب بسرعة :
ـ هذا صحيح ، ولكن ...
قاطعه (حسين) مرة أخرى فى صرامة أكبر :
ـ ولكن ماذا ؟
توتَّر (عبد الحكيم) أكثر ، وهو يجيب :
ـ ولكن اختيار الزوجة المناسبة عملية شاقة للغاية ، وخاصة مع وجود ثلاثة أولاد .. مَنْ تلك التى ستحتمل تربية ثلاثة من أبناء زوجة سابقة ؟.. الدافع الوحيد لهذا ، هو أن يكون حبها لهم مساويًا لحب أمهم ، أو مقاربًا له .
سأله (حسين) فى حيرة :
ـ وأين ستجد زوجة كهذه ؟

أجابه (عبد الحكيم) فى سرعة :
ـ لقد وجدتها بالفعل .
تطلّع إليه (حسين) فى دهشة ، فاستدرك فورًا :
ـ إنها (شريفة) .. الآنسة (شريفة البنهاوى) ..
وكانت مفاجأة ..

★ ★ ★

« مستحيل !.. »
هتفت بها (شريفة) فى عنف ، قبل أن تتفجّر الدموع من عينيها ، مستطردة :
ـ لن يمكننى أبدًا أن أحتل مكان (توحيدة) .. لست أتصوّر نفسى أبدًا فى منزلها أو فراشها .. إننى مستعدة لرعاية أبنائها ، حتى آخر نفس فى صدرى ، ولكن دون أن أتزوّج (عبد الحكيم) .
قال (حسين) فى صرامة :
ـ ولكننى أجدها فرصة مناسبة ، وأنا شخصيًا أوافق على زواجك منه .
تفجّر غضب هادر فى أعماقها ، وكادت تصرخ فى وجهه ..
الآن يجدها فرصة مناسبة أن تتزوّج زوج شقيقتها الراحلة !..
لماذا إذن رفض كل من تقدّم لخطبتها من قبل ؟!..
لماذا رفض زواجها من (أمجد) ، دون مبرّر واضح ؟!..
إنه المسئول عما آل إليه حالها ..
وهى لن تسمح له بتدميرها ..
أو بمعنى أدق ، بتدمير ما تبقّى منها ..

واحتفظت (شريفة) بصرخاتها فى أعماقها ، وهى تجيب شقيقها فى عصبية :
ـ فليكن يا (حسين) .. وافق على زواجى من (عبد الحكيم) ، ولكن عليك أن تعلم أنك بموافقتك هذه ، لا تضع أمامى سوى حل واحد .
وصرخت فى ثورة :
ـ أن أنتحر .
قالتها ، وانهارت باكية فى حرارة ، على نحو أثار شفقته وإحساسه بالذنب فى أعماقه ، فصمت تمامًا ، وهو يتطلّع إليها مليًا ، ثم قال :
ـ (عبد الحكيم) ليس متعجّلًا يا (شريفة) .. لقد فاتحنى فى الأمر أمس ، فى أثناء عيد ميلاد (طارق) ، وقال : إنه يعلم أن الأمر ليس سهلًا ، لذا فهو يمهلك كل ما تحتاجينه من الوقت للتفكير واتخاذ القرار .
ثم ربّت على كتفها ، مستطردًا :
ـ خذى كل ما تريدينه من وقت يا (شريفة) .. لن يتعجّلك أحد .
لم تصدّق نفسها ، وهى تسمع كلماته الحانية الرقيقة ، وتابعته ببصرها فى دهشة ، وهو ينطلق بسيّارته عائدًا إلى (القاهرة) ، ومسحت دموعها فى حيرة ، وهى تتمتم :
ـ عجبًا !.. أهذا هو (حسين) ؟
هزّت رأسها ، وعادت أدراجها إلى الداخل ، ولكنها سمعت خفير السراى ، يهتف ، وهو يهرول نحوها :
ـ (شريفة) هانم .. (شريفة) هانم .

كانت تبغض هذا الخفير بالذات ، لذا فقد أشاحت بوجهها عنه ، فلحق بها وهو يلهث ، قائلًا :

ـ سيِّدتى (شريفة) .. أرجوك سامحينى .. أربع سنوات كاملة ، وأنت ترفضين مجرَّد النظر إلى وجهى .. ماذنبى يا سيِّدتى ؟.. كيف لى أن أعلم أن ذلك الذى يعبر سور السراى هو خطيبك ؟!.. لقد طلبت منه التوقف ، ولكنه واصل الجرى ، فأطلقت عليه النار .

قالت له فى حدة :

ـ ماذا تريد يا رجل ؟

كاد الخفير يبكى ، وهو يجيب :

ـ ضميرى يؤنبنى طوال أربع سنوات يا سيِّدتى ، ولا أنام الليل قط ، ولكن ما ذنبى ؟.. السيِّدة (فاطمة) أخبرتنى أنها تلمح لصًا يحوم حول السراى ، فـ ...

اتسعت عينا (شريفة) من فرط الصدمة والذهول ، والتفتت إليه صارخة :

ـ تقول من ؟!.. من أخبرك بهذا ؟

تراجع الرجل مذعورًا ، وأجاب مرتجفًا :

ـ (فاطمة) هانم .. هى التى طلبت منى مراقبة الأسوار .

اشتعلت النيران فى قلب (شريفة) ، وصرخ الغضب فى أعماقها ..

إذن فـ (فاطمة) هى التى فعلتها ..

هى التى خطَّطت لقتل (أمجد) ..

لقد استدرجته إلى السراى ، وجعلته يطمئن إليها وإلى موقفها المؤيِّد ، ثم أرسلت الخفير خلفه ، وشحنته بقلق ومخاوف زائفة ، اعتصرت زناد بندقيته ، وجعلته يطلق النار على (أمجد) ..

وفى ثورة ، اندفعت (شريفة) نحو المطبخ ، وهى تصرخ :

ـ (فاطمة) .. أيتها اللعينة الحقيرة .

وانقضت عليها ، لتنتزعها من مكانها ، مستطردة :

ـ أنت قتلت (أمجد) .. أنت السبب فى مصرعه .

صاحت بها (فاطمة) ، وهى تتملَّص منها فى عنف :

ـ ماذا تقولين أيتها المجنونة ؟

انتزعت (شريفة) سكينًا من المطبخ ، صارخة :

ـ أنت فعلتها .. أنت قتلت (أمجد) .. ستدفعين الثمن .. ستدفعينه من دمك .

كانت تهم بطعنها بالسكين ، من فرط غضبها ، ولكن (فاطمة) أمسكت معصمها فى قوة ، ولوته فى عنف ، فأسقطت السكين من يدها ، ثم صفعتها فى عنف ، قائلة فى غلظة صارمة خشنة :

ـ إياك أن تفعلى هذا ؟.. فى المرة القادمة سأقتلك لو فعلت .

ودفعتها فى قسوة ، فألقتها أرضًا ، وهى تستطرد :

ـ نعم .. أنا فعلتها .. أنا خططت لحرمانك من حبك .. أنا تعمَّدت أن يقتله الخفير .. ماذا يمكنك أن تفعلى ؟.. هل ستخبرين أخاك ؟!.. هيا .. أخبريه ، وسأشرح له كيف كنت تلتقين بـ (أمجد) هذا فى الحديقة الخلفية ، وكيف كنت تخططين لتمريغ شرف عائلة (البنهاوى) فى الوحل ، بالفرار معه ، والزواج منه .

صرخت (شريفة) :

ـ أيتها الحقيرة .. أيتها الملعونة !

مطّت (فاطمة) شفتيها الغليظتين ، ومسحت بيدها على شعرها الخشن ، وهى تقول :

ـ حقيرة وملعونة ، ولكننى لست ساذجة أو ضعيفة يا سيّدة الدار .. أنا زوجة شقيقك ، وأم الذكر الوحيد فى العائلة كلها ، الذى يحمل اللقب .

وبرقت عيناها فى قوة ، مع استطرادتها :

ـ لقب (البنهـاوى) .

قالتهـا ، وكأنهـا تتحدّى العـالم كله ، أو ...

أو تقرأ لـوح الغيب المسطـور .

* * *

٣٠ ـ أيـام الخطـر ..

استقبل (مراد صقر) (حسين) فى مكتبه بنظرة غاضبة ، وبادره بصوت ثائر ، وهو يقول فى حدة :

ـ من أبلغ الرئيس بأمر زواج المشير والفنانة (برلنتى) ؟

عقد (حسين) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ هل تشكّ فى أننى فعلت هذا ؟

أشار إليه (مراد) فى غضب ، صائحًا :

ـ بل إننى أتهمك بهذا .

أثار الأسلوب حنق (حسين) ، وجعله يقول فى عصبية :

ـ إذن فمعلوماتك قاصرة للغاية ياسيادة المدير .. (برلنتى) نفسها أعلنت هذا ، وطبعته على هيئة منشور ، وزعته على المسئولين ، لتعلن زواجها بالمشير .

ارتفع حاجبا (مراد) فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ مستحيل !

ثم استعاد صرامته فى سرعة ، مستطردًا :

ـ ولكننى واثق من أنك ذلك الشخص ، الذى أوصل المنشور للرئيس .

قال (حسين) فى عصبية :

ـ وحتى لو كنت أنا من فعل هذا ، فما المشكلة ؟!.. هل حاول الرئيس منع المشير من العيش مع زوجته الجديدة ؟.. هل طلب منه

أن يطلقها ؟.. إنه لم يحاول التدخل قط فى حياته الشخصية ، على الرغم من غضبه مما حدث ؟

صاح به (مراد) مرة أخرى :

ـ آه .. هأنتذا تعترف بأنك ناقشت الأمر مع الرئيس .

قال (حسين) فى صرامة :

ـ سل الرئيس نفسه .

انعقد الغضب فى وجه (مراد) ، وتقافزت ثورة هائلة من عينيه ، وهو يقول :

ـ لقد تجاوزت حدودك بالفعل يا (حسين) .. صلتك المباشرة بالرئيس ملأت نفسك غرورًا ، وجعلتك تتصوَّر أنك فى مأمن ، وأن أحدًا لن يمكنه النيل منك قط .

أجابه (حسين) بابتسامة ساخرة :

ـ لكل شخص الحق فى أن يحاول .

قال (مراد) فى غضب :

ـ هكذا ؟!.. فلتعلم إذن أن الرئيس (جمال) ليس القوة الوحيدة ، التى تحكم (مصر) .. لقد أثرت غضب وسخط المشير ، وهو لن يغفر لك هذا أبدًا .

قال (حسين) فى حدة :

ـ كم يدهشنى موقفك هذا يا سيادة المدير .. بل كم يدهشنى موقف المشير نفسه !.. الموقف متوتر تمامًا على كل الجبهات ، ونحن نطالب قوات الطوارئ الدولية بالانسحاب من (سيناء) ، والرئيس يفكِّر فى اتخاذ قرار بإغلاق خليج (العقبة) ، فى وجه الملاحة الإسرائيلية ، وأنت لا تقلق نفسك إلا بأمر زواج المشير ؟!

صاح به (مراد صقر) فى غضب :

ـ حذار أن تتجاوز حدودك مرة أخرى .

أجابه (حسين) :

ـ فليكن .. لن أتجاوز حدودى مرة أخرى ، لأننى لن أظلّ هنا .

قالها ، واندفع يغادر مكتب (مراد صقر) ، ويتجه إلى مكتبه ، والتقى فى طريقه بـ (إبراهيم مكّى) ، الذى سأله مبتسمًا :

ـ ماذا حدث ؟.. كلنا سمعنا صياحكما ، أنت والمدير .. هل كنتما تتشاجران ؟

أجابه (حسين) ، وهو يلتف إلى مكتبه :

ـ دعك منه .. إنه يتحرَّش بى عمدًا ، ولكننى لا أخشاه ، فسيادة الرئيس يشملنى برعايته ، ولن يمكنه المساس بى قط .

دخل (إبراهيم) المكتب بدوره ، وجلس على أوَّل مقعد صادفه ، وهو يقول :

ـ حذار أن تعتمد على هذا ، لا أحد يدرى ما الذى يمكن أن يأتى به الغد ؟

مطَّ (حسين) شفتيه ، وهو يجلس خلف مكتبه ، قائلًا :

ـ لم يعد بمقدورى الاحتمال .

قال (إبراهيم) فى دهشة :

ـ ماذا أصابك ؟.. إنك قوى الشكيمة فى المعتاد .

زفر (حسين) فى توتر ، وهو يقول :

ـ لم أذق طعم النوم منذ ليلتين كاملتين ، فلقد طلب سيادة الرئيس تقريرًا مفصَّلًا ، عن موقف رجالنا فى (اليمن) ، وعن الموقف على خط المواجهة مع الإسرائيليين ، بالإضافة إلى كل ما وصلنا من

معلومات ، بعد الحديث عن انسحاب قوات الطوارئ ، وإغلاق خليج (العقبة) ، ويبدو أنه يستعد لخوض الحرب .

صمت (إبراهيم) لحظات مفكرًا ، ثم قال :

ـ لست أعتقد أننا مستعدون لخوض حرب مع الإسرائيليين الآن .

سأله (حسين) فى دهشة :

ـ ولِمَ لا ؟!.. المفروض طبقًا لما لدينا من معلومات ، أن تسليحنا يفوق تسليح الإسرائيليين .

هزَّ (إبراهيم) رأسه ، وقال :

ـ المسألة ليست مجرَّد تفوّق فى التسليح .. إنها تتجاوز هذا إلى التدريبات ، والإعداد ، والاستعداد النفسى للقتال ، ولقد أهدرنا الكثير من جهدنا وقواتنا فى حرب (اليمن) ، وليس لدينا القادة المؤهلين لخوض المعركة .

ابتسم(حسين) ، وهو يقول :

ـ قل هذا للرئيس (جمال) ، فالمفروض أن يلتقى بالقادة غدًا ، ليشرح لهم الموقف السياسى والعسكرى كله .

أومأ (إبراهيم) برأسه ، قائلًا :

ـ آه .. لهذا يريد التقارير والمعلومات .

تثاءب (حسين) ، وهو يقول :

ـ ولهذا لم أنق طعم النوم .

تأمّله (إبراهيم) لحظة فى صمت ، ثم سأله فجأة :

ـ كيف حال الأميرة (عايدة) ؟

ابتسم (حسين) ، وهو يقول :

ـ إنها تخاطبنى هاتفيًا باستمرار ، وأعتقد أن العلاقة بيننا تتطوَّر ، من الحسن إلى الأحسن .

سأله (إبراهيم) فى اهتمام :

ـ ألم تقرّر الزواج منها بعد ؟

هزَّ (حسين) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ لا .. ليس بعد .

كانا يتحدثان كما لو أنهما صديقان حميمان ، لم يتربّص أحدهما بالآخر ، منذ سنوات قليلة مضت ..

ربما لأن الظروف قد جمعتهما معًا ، ضد (مراد صقر) ، ومجموعته المؤيدة للمشير (عبد الحكيم عامر) ..

أو لأن كلًا منهما قد أدرك مدى ما يتمتعان به من قوة ، عندما يعملان جنبًا إلى جنب ..

ولكن صداقتهما الجديدة هذه لم تكن خالصة ..

كانت أشبه بتحالف ثعلبين ، يتفقان على اقتحام حظيرة الدجاج ، دون أن يغفل أحدهما عن الآخر لحظة واحدة ..

علاقة بنيت على الحذر والتوجس وعدم الثقة ..

إلا أن (إبراهيم) بالذات كان يتشبّث بهذه الصداقة ، ويسعى لتقويتها وتدعيمها ..

ربّما لأنه مازال يتبع نفس المبدأ القديم ..

مبدأ الانحياز لصاحب الفرصة الأكبر ..

أما (حسين) ، فقد وجد أمر ارتباطه بـ (إبراهيم) هو أفضل وسيلة ، لتفادى شرور وخداع هذا الأخير ..

ليس لأن الصداقة ستمنعه من إيذاء (حسين) ، ولكن لأنها ستجعلهما قريبين ، إلى الحد الذى يتيح لـ (حسين) مراقبة كل خطوة يخطوها (إبراهيم) ..

ومن منطلق التقارب الحذر ، روى (حسين) لـ (إبراهيم) كل ما حدث بينه وبين (مراد) ، فقال (إبراهيم) فى قلق :

ـ عليك أن تحترس إذن ، فـ (مراد صقر) ليس بالرجل الهيِّن أو السهل .. إنه مزيج من الثعلب الماكر والذئب المفترس ، وليس من الحكمة أن نقلِّل من قدره .

وجدت هذه الكلمات طريقها إلى قلب (حسين) وعقله ، وبدأ شعور بالقلق والخوف يتصاعد فى أعماقه ..

لقد تحدّى (مراد صقر) علانية ، دون أن يضع فى اعتباره ما يمكن أن يفعله هذا الأخير ..

والآن بدأ يشعر بأن بإمكان (مراد) أن يصنع الكثير ..

والكثير جدًا ..

★ ★ ★

« عمى (مفيد) .. »

ردَّد (طارق) الكلمة فى حذر ، فالتفت إليه (مفيد) ، وابتسم حينما قرأ الخجل والارتباك فى ملامحه ، وسأله :

ـ ماذا تريد يا (طارق) ؟

تردَّد (طارق) بضع لحظات ، قبل أن يخفض عينيه فى حياء ، مغمغمًا :

ـ كنت أريد التحدّث معك قليلًا .

وضع (مفيد) يده على كتفه ، قائلًا :

ـ كلى آذان مصغية .

ظلّ (طارق) على خجله بضع لحظات ، فابتسم (مفيد) فى حنان ، ومال على أذنه ، هامسًا :

ـ أهو أمر يخصّ (نادرة) ؟

تضاعف خجل (طارق) ، وهو يومئ برأسه إيجابًا فى صمت ، فقال (مفيد) فى جدية :

ـ لا يوجد ما يخجل فى هذا الأمر ، ما دامت عواطفك نحوها شريفة وجادة .

تنهَّد (طارق) ، وقال :

ـ إننى أحبها للغاية يا عمى ، وهى تحبنى كذلك ، وكل مانتمناه هو أن نتزوَّج عندما نكبر .

ارتفع حاجبا (مفيد) فى دهشة ، وهو يستمع إلى هذا القول ، الذى بدا له أكبر من عمر الصبى ، ولكنه ابتسم قائلًا :

ـ لو أنكما جادين فى مشاعركما هذه ، فما الذى يمنع زواجكما فى المستقبل ؟

تنهَّد (طارق) ، وهزَّ رأسه فى أسى ، وهو يقول :

ـ للأسف يا عمى .. إننا نشعر أن هذا سيكون عسيرًا للغاية .

سأله فى دهشة :

ـ لماذا ؟!

أجابه فى حزن لا يليق بعمره :

ـ كلنا نعلم أن أحدًا فى العائلة لا يحب أمى أو يميل إليها .. كلهم يكرهونها لسبب أجهله .. ألم تلاحظ أن عمتى (شريفة) تعاملها ببغض شديد ، منذ عيد ميلادى الماضى ؟!.. إنها تتحرَّش بها طوال الوقت ، وتتدخل معها فى مشاجرات ومشاحنات عنيفة ، وتعاملها دائمًا وكأنها خادمة ، وليست فردًا من أفراد الأسرة .

انفطر قلب (مفيد) مع حديث الصبى ، ووضع يده على كتفه ، قائلًا :

ـ أنت واهم بالتأكيد يا (طارق) ، فوالدتك بالفعل فرد من أفراد الأسرة .

سأله الصبى فى حدة :

ـ لماذا إذن ترتدى ثيابًا مزرية هى وأبى ، فى حين ترتدون جميعًا أفضل الثياب ؟!.. إننى أبغض ارتداء ما يحضره لى عمى (حسين) من ثياب أنيقة ، لأن أبى وأمى لا يحصلان على مثلها .

ولم يجد (مفيد) ما يقوله لـ (طارق) ، ولكنه شعر فى أعماقه أن الجيل الجديد من أحفاد (البنهاوى) ، سيصنعون انقلابًا فى العائلة ..

انقلابًا عنيفًا ..

★ ★ ★

مطَّ (مراد صقر) شفتيه فى شدة ، وهو يجلس فى مكتبه ، بعد عودته من ذلك الاجتماع ، الذى ضمّ الرئيس (جمال عبد الناصر) ، مع كل قيادات الجيش ، وأشار إلى (صلاح) ، قائلًا :

ـ من يتصوَّر (جمال عبد الناصر) نفسه هذه المرة ؟!.. أهو كاهن أم عرَّاف يتنبأ بالمستقبل والغيب ؟!

ضحك (صلاح) ، وهو يقول :

ـ هل سمعته وهو يؤكِّد أن الإسرائيليين سيهاجموننا يوم الرابع أو الخامس من يونيو ؟!.. لقد شرح الخطة كلها ، وكأنه قرأها فى اللوح المسطور .. بل وحدَّد أنهم سيهاجمون ما بين السابعة والعاشرة صباحًا ، وسيبدءون بضرب المطارات الحربية ، وممرات الهبوط .

ثم قهقه ضاحكًا ، قبل أن يستطرد :

ـ يبدو أنه نسى تنبؤاته السابقة ، أيام تأميم قناة (السويس) ، عندما أكَّد أن البريطانيين والفرنسيين لن يحاولوا اللجوء إلى القوة العسكرية ، حتى لا يتهمهم المجتمع الدولى بأنهم مستمرون فى سياستهم الاستعمارية .

هزَّ (مراد صقر) رأسه فى أسف ، قائلًا :

ـ وكل تنبؤاته كانت فاشلة حينذاك ، وعلى الرغم من هذا ، فقد انتصر فى معركته السياسية ، بعد خسارته المعركة العسكرية ، ولولا تدخل الأمريكيين والسوفيت ، وتوجيههما للإنذارين التاريخيين ، لكانت هزيمة منكرة .

سأله (صلاح) فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أن أحدًا من القادة سيصدِّق تنبؤاته هذه المرة ؟

هزَّ (مراد) رأسه نفيًا ، وأجاب فى وقار :

ـ مطلقًا .. لقد تعلَّموا الدرس من المرة السابقة .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ ولكن دعنا من الرئيس وتنبؤاته ، وأخبرنى .. ماذا فعلت بشأن (حسين البنهاوى) ؟

هزَّ (صلاح) رأسه قائلًا :

ـ إنه حريص للغاية ، وعلاقته المباشرة بالرئيس تحميه من الوقوع فى أى مأزق عادى .

قال (مراد) فى عصبية :

ـ ماذا تعنى ؟.. ألا توجد وسيلة للتخلّص منه إذن ؟

أطلّ المكر من عينى (صلاح) ، وهو يقول :

ـ بل توجد وسيلة واحدة .

ثم مال نحو رئيسه ، مستطردًا ، بلهجة ذات مغزى خاص :

تراجع (مراد صقر) بمقعده ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، ويفكّر فى عمق ، ثم لم يلبث أن سأل :

ـ ومن سيقوم بالتنفيذ ؟

ابتسم (صلاح) ، وهو يعتدل قائلًا :

ـ كل ما عليك هو أن تأمر يا (مراد) بك ؟

ازداد انعقاد حاجبى (مراد) لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ فليكن .. اتخذ ما يلزم يا (صلاح) ، وعندما أذهب لقضاء الصيف فى (المعمورة) ، فى يوليو القادم ، لا أحب أن يكون هناك وجود لمن يحمل اسم (حسين البنهاوى) ..

وهكذا صدر الحكم ..

حكم الإعدام ..

★ ★ ★

استنشق (حسين) هواء الصباح النقى ، وهو يقف فى شرفة شقته المطلّة على النيل ، فى (جاردن سيتى) ، وارتشف رشفة من قدح الشاى الدافئ ، وراح عقله يسبح مع عشرات الأفكار والمشكلات ، التى لا تفارقه قط ..

كانت كلمات (إبراهيم) تقلقه كثيرًا ، وتجعله يشعر بأن (مراد صقر) يتربّص به ، وأنه ينتظر الفرصة المناسبة ، ليطيح به من مكانه ، ويسحقه سحقًا ..

وهذا يعنى أن عليه أن ينتبه دائمًا ..

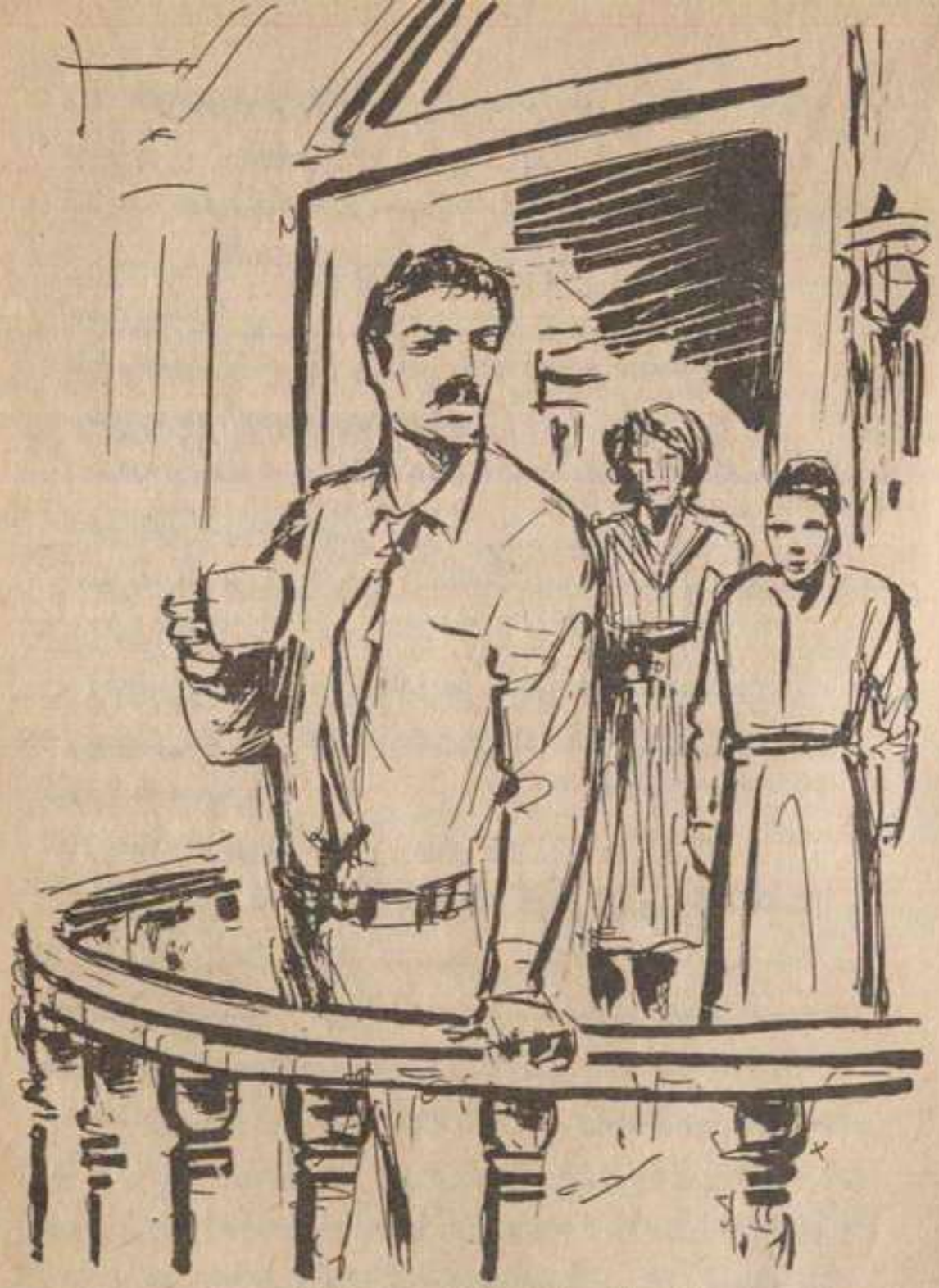

وارتشف رشفة من قدح الشاى الدافئ ، وراح عقله يسبح مع عشرات الأفكار والمشكلات ، التى لا تفارقه قط ..

وألا يغمض عينيه أبدًا ..

« سيِّدى .. السيِّدة وصلت .. »

انتزعته عبارة خادمه من شروده ، وأدهشه أنه لم ينتبه إلى رنين جرس الباب ، فالتفت إليه يسأله :

ـ أية سيِّدة ؟

فاجأه صوت (عايدة) ، وهى تقول للخادم مبتسمة :

ـ قل : سمو الأميرة أيها الوقح .

لا يمكنه أن ينكر أن رؤيتها أسعدته كثيرًا ، حتى أنه هتف متهللًا :

ـ (عايدة) .. مستحيل !

ألقت نفسها بين ذراعيه دون مقدمات ، وطبعت قبلة على خده ، وهى تقول :

ـ (نابليون) قال : « فى قاموسى لا توجد كلمة مستحيل .. » .. لقد أوحشتنى كثيرًا ، ولم أعد أحتمل فراقك ، فتركت (باريس) كلها ، وأتيت إليك مباشرة .

ملأ عينيه بوجهها الفاتن ، وهو يقول :

ـ ولكنها مجازفة كبيرة ، فلو علم الإسرائيليون أنك أتيت إلى هنا ، سيتأكدون من أنك قد خدعتهم ، و ...

وضعت أصابعها على شفتيه ، لتمنعه من الاستطراد ، وهى تهمس :

ـ اطمئن .. لقد استخدمت نفوذ (جان) ، واستخرجت جواز سفر زائفًا ، ودرت حول نصف الأرض ، قبل أن آتى إلى هنا .. من (باريس) إلى (جنيف) ، ومنها إلى (روما) ، ثم إلى (مصر) .. كل هذا بشعر مستعار وثياب لا تناسب أميرة .

ابتسم وهو يلقى نظرة على ثوبها الفاخر ، قائلًا :

ـ ولكنك تبدين فى خير حال .

ضحكت قائلة :

ـ لقد أبدلت ثيابى فى الفندق بالطبع .

ران عليهما الصمت لحظات ، وكل منهما يتطلَّع إلى الآخر ، قبل أن يقول (حسين) بابتسامة كبيرة :

ـ أوحشتنى حقًا يا (عايدة) .. لقد تضاعف جمالك ، خلال السنوات الأربع الماضية .

ضربت صدره بقبضتها فى دلال ، قائلة :

ـ لو أن هذا صحيح ، لبذلت شيئًا من الجهد لرؤيتى ، كما فعلت أنا .

هزَّ كتفيه ، وقال :

ـ لست مجنونًا مثلك .

هتفت ضاحكة :

ـ أيها الوقح ، ما كان ينبغى أن أفعل هذا .

قال فى سعادة حقيقية :

ـ بل أحسنت فعلًا .

لم يكد ينطقها ، حتى ارتفع رنين الهاتف ، فأسرع الخادم يجيب ، ثم قال :

ـ إنه (إبراهيم) بك يا سيِّدى .

مطَّ (حسين) شفتيه ، وابتسم قائلًا :

ـ معذرة .. لا يمكن تجاهل مكالمة كهذه .

سألته فى دهشة :

ـ أهو (إبراهيم مكى) ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يتجه نحو الهاتف ، فقالت مستنكرة :

ـ كيف يمكنك أن تتعامل معه ، بعد كل صراعاتكما السابقة ؟

التقط الهاتف وهو يجيبها :

ـ عملنا لا يعرف الأحقاد الشخصية .

مطّت شفتيها بعدم اقتناع ، فى حين وضع هو الهاتف على أذنه ، قائلًا :

ـ أنا (حسين) يا (إبراهيم) ، ثرى ما الـ ...

قاطعه صوت (إبراهيم) ، بكل ما يحمله من لهفة وتوتر ، وهو يهتف :

ـ لقد تحقّق ما ذكره الرئيس بالضبط يا (حسين) .. الإسرائيليون هاجموا كل مطاراتنا .

وانتفض جسد (حسين) فى عنف ..

لقد كانت هذه الأنباء مفجعة ..

بل كانت كارثة ..

كارثة فى تاريخ (مصر) بأكمله .

* * *

٣١ ـ النكسة ..

لا أحد كان يتوقع ما حدث أبدًا ..

خطب الرئيس القوية الواثقة ، كانت تمنح الشعب كله انطباعًا بأننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط ، وأننا ، مع أوّل مواجهة عسكرية ، سنلقى (إسرائيل) ، ومن وراء (إسرائيل) فى البحر ..

وعندما بدأت الحرب ، فى صباح الخامس من يونيو ، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ، راحت وسائل الإعلام تطلق البيانات الحماسية ، وتعلن أننا نسقط الطائرات كالذباب ، حتى بلغ عدد ما أسقطته البيانات مائة طائرة ..

وشمل الحماس الشعب كله ، وتصوّر الجميع أن جيشنا صار قاب قوسين أو أدنى من (تل أبيب) ..

وفى القرية ، راح شيخ الخفراء (بسيونى) يرقص طربًا ، وهو يهتف :

ـ انتصرنا .. انتصرنا على الإسرائيليين أخيرًا .

ولكن أحد الجالسين على مقهى (جودة) ، قال فى قلق :

ـ ولكن الإذاعة الإسرائيلية تؤكد العكس تمامًا ، وتقول : إن مطاراتنا الحربية كلها لم تعد صالحة للاستعمال ، وإن أكثر من نصف طائراتنا المقاتلة تم تدميرها على الأرض ، وأننا ننسحب من (سيناء) بشكل عشوائى .

رمقه الحاضرون بنظرة غضب ، وصاح به أحدهم :

ـ هل جننت يا رجل ؟.. أتعترف علانية بأنك تستمع إلى الإذاعة الإسرائيلية ؟!..

ثم من ينبغى أن تصدّق ؟.. إذاعتنا أم إذاعتهم .

شحب وجه الرجل ، وهو يقول مدافعًا عن نفسه :

ـ إذاعتنا بالطبع .. لقد استمعت إلى إذاعتهم مصادفة ، وأنا أدير مؤشر الراديو .

كان الحماس هو الشعور الغالب على الجميع ، وخاصة مع مانشيتات الصحف ، يوم السادس والسابع والثامن من يونيو ، والتى أشارت إلى فداحة خسائر العدو ، وإلى معارك الدبابات والمدرعات العنيفة ، التى تدور فى قلب (سيناء) ، و ...

ولم يكن من الممكن أن يستمر الزيف طويلًا ..

لقد انهارت الأقنعة كلها ، وانكشف المستور ، وعرف الشعب كله أننا انهزمنا هزيمة منكرة ، وأن جيشنا قد اندحر عن آخره ، فى قلب (سيناء) ..

وكانت الصدمة قاسية وعنيفة ..

وانهار (مفيد) باكيًا فى مرارة ، وهو يعضّ شفتيه قهرًا وغيظًا ، فمصمصت (فاطمة) شفتيها ، وقالت :

ـ عشنا ورأينا الرجال يبكون هكذا .

صاحت بها (شريفة) فى غضب :

ـ ألا يمكنك تقدير الموقف أبدًا ؟.. (مصر) انهزمت أمام (إسرائيل) .. ألا يكفى هذا سببًا للبكاء ؟

أجابتها (فاطمة) فى خشونة :

ـ بل يكفى لأن نتماسك ، ونحاول لم شملنا ، واستعادة قوتنا ،

لنهزمها فى المعركة القادمة ، ولو أننا استهلكنا قوتنا فى البكاء ، فلن تقوم لنا قائمة بعد الآن .

اخترقت كلماتها قلب (مفيد) كخنجر مسموم ، وانفجرت فى عقله كألف قنبلة ..

من أين أتت (فاطمة) بكل هذه الحكمة ؟..

كيف توصّل عقلها البسيط إلى هذا القول ؟..

إنها على حق تمامًا ..

الموقف لم يعد يصلح لهذا ..

البكاء لن يعيد الشهداء ، ولن يوقف الدماء المسفوكة ..

وفى حسم ، مسح دموعه ، قائلًا فى مرارة :

ـ (مصر) انهزمت يا (فاطمة) .

مطّت شفتيها الغليظتين ، قائلة :

ـ أمر طبيعى ، مادام كل قادتها من طراز شقيقك (حسين) بك .

صاحت بها (شريفة) :

ـ ماذا تقصدين أيتها الحقيرة ؟

لوّحت (فاطمة) بكفها ، قائلة فى سخط :

ـ لست أقصد شيئًا .. سأعود إلى حجرتى .. هيا يا (طارق) .

تردّد (طارق) لحظة ، ثم ربّت على كتف (مفيد) ، قائلًا :

ـ اطمئن يا عمى .. لو أن (إسرائيل) هزمتنا اليوم ، فسنسعى لنهزمها نحن غدًا .. الدنيا لا تدوم لأحد .

ثم اندفع للحاق بأمه فى حجرتها الوحيدة ، تاركًا (مفيد) خلفه ، يتابعه فى صمت ، وهو يقول لنفسه فى أعماقه :

ـ صدقت يا (طارق) .. الدنيا لا تدوم لأحد .. لا تدوم أبدًا .

★ ★ ★

، الرئيس أعلن تنحيه عن الحكم .. ،

شحب وجه (حسين) فى شدة ، عندما ألقى (إبراهيم) هذه العبارة ، وانهار على أقرب مقعد إليه ، قائلًا فى ارتياع :

ـ يتنحّى ؟!.. مستحيل !

أجابه (إبراهيم) فى توتر واضح :

ـ ولكنه أقدم على هذا بالفعل .. لقد أعلن تنحيه عن الحكم ، وتولية (زكريا محيى الدين) بدلًا منه .

اتسعت عينا (حسين) فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ (زكريا محيى الدين) .. هل تدرك ما يعنيه هذا ؟

أومأ (إبراهيم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع .. إنها رسالة موجّهة إلى السوفيت والأمريكيين ، فالجميع يعرفون ميل (زكريا) للأمريكيين ، والرئيس يريد أن يعلن أن السير فى ركب السوفيت قد أدى إلى الهزيمة ، وأنه مستعد للتنحى ، ووضع شخص أمريكى النزعة بدلًا منه .

قال (حسين) :

ـ بل إنه ينتقى الشخص المتناقض معه تمامًا ، وكأنه يضع الشعب كله أمام خيار عسير ، ومفاضلة لن تأتى حتمًا فى صالح (زكريا) .

انعقد حاجبا (إبراهيم) فى شدة ، وهو يقول :

ـ هل تريد رأيى يا (حسين) ؟.. إننى أعتقد أن الرئيس لا ينوى التنحّى بالفعل ، وأن كل هذا مجرّد مناورة مدروسة .

سأله (حسين) فى دهشة :

ـ ولماذا يلجأ الرئيس إلى هذا ؟

أشار بيده ، قائلًا :

ـ إنه يدرك تعلّق الشعب الشديد به ، ويعلم أن (مصر) كلها لن تحتمل فكرة تنحيه عن الحكم ، فى مثل هذه الظروف ، وأراهنك على أن شعبيته ستتضاعف فى الأيام القادمة ، على الرغم من الهزيمة .

بدت الحيرة على وجه (حسين) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ حديثك يبدو كالألغاز اليوم يا (إبراهيم) .

ارتسمت على شفتى (إبراهيم) ابتسامة خبيثة محنّكة ، وهو يقول :

ـ غدًا ستدرك ما كنت أقصده .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى اقتحم (مراد صقر) الحجرة ، وتألّقت عيناه فى شماتة ، وهو يقول لـ (حسين) :

ـ هل سمعت آخر الأخبار ؟

لاذ (حسين) بالصمت التام ، وهو يتطلّع إليه متوترًا ، فتابع متشفيًا :

ـ الرئيس (جمال) تنحّى ، وما هو إلا يوم أو يومان ، وتتغيّر أمور كثيرة فى (مصر) ، وعندئذ ..

لم يتم عبارته ، ولكن بريق عينيه ، وتلك الابتسامة الشرسة الشامتة على شفتيه ، أعلنا ما يقصده بالضبط ..

وانتفض قلب (حسين) فى ارتياع هلع ..

لقد فهم ما يعنيه (مراد صقر) بالضبط ..

لقد فقد مصدر قوته ، ولم يعد هناك من يحميه من مخالب أعدائه ..

ولا أحد يدرى ما الذى سيأتى به الغد ..

★ ★ ★

(مصر) كلها خرجت تهتف بحياة الزعيم (جمال عبد الناصر)، وتنادى ببقائه فى الحكم، على الرغم من الهزيمة الرهيبة، التى لحقت بجيشنا كله ..

وفى التاسع والعاشر من يونيو، أعلن الشعب كله تمسّكه بقيادته، وإصراره على تحدّى الهزيمة، ومواصلة المسيرة مع الرئيس (جمال) ..

ثم أعلن الرئيس تراجعه عن قرار التنحّى ..

وعلى شاشات التليفزيون، رأت (مصر) كلها أحد نواب مجلس الأمة، وهو يرقص طربًا، مع عودة الرئيس ..

ولم يعد (مفيد) يفهم كيف تسير الأمور ..

شعب انهزم شر هزيمة، واندحر أسوأ اندحار، ولكنه يتمسّك بقادة الهزيمة فى استماتة، ويرقص طربًا لبقائهم فى الحكم ..

أما (طارق)، فقد تهلّلت أساريره، وراح يهتف فى سعادة :

ـ بابا (جمال) لن يترك الحكم يا عمى .

تنهّد (مفيد)، وقال :

ـ هذا صحيح يا (طارق)، وأعتقد أن (مصر) هى الدولة الوحيدة، فى العالم أجمع، التى يمكن أن يحدث فيها هذا .

هتفت (فاطمة) :

ـ وهل يمكننا العيش دون الرئيس (جمال عبد الناصر) ؟

ابتسم (مفيد) فى مرارة، وقال :

ـ القبور مليئة بأولئك، الذين ظنوا أن الحياة لن تسير بدونهم .

ارتسمت الحيرة على وجهها، وهى تقول فى دهشة :

ـ وما الذى يعنيه هذا ؟

أجابتها (شريفة) فى مقت :

ـ الجهلاء أمثالك لا يمكنهم فهم أى شىء ..

قالت (فاطمة) فى غضب :

ـ منك نستفيد يا أستاذة الأساتذة .

صرخت (شريفة)، وهى تشير إلى (حافظ) :

ـ هل ستتركها تفعل بى هذا يا (حافظ) ؟

خفض (حافظ) عينيه، ولاذ بالصمت فى انكسار، فصاحت (شريفة) :

ـ آه .. كيف نسيت هذا .. إنك مجرّد ظل رجل .

قالت (فاطمة) فى حدة خشنة :

ـ بل هو رجل وسيّد الرجال أيضًا، ولكن كيف أشرح هذا لمن تجهل معنى الزواج .

صرخت (شريفة) :

ـ ماذا تقولين أيتها الحقيرة ؟

لم يحتمل (مفيد) هذا التشاحن المتواصل، فى مثل هذه الظروف، فتسلّل خارجًا، وترك قدميه تحملانه إلى حيث تشاء، وهو يحاول مقاومة تلك الغصة فى حلقه ..

إذن فقد انهزمت (مصر) ..

(مصر) التى يعشقها حتى النخاع، خسرت خير شبابها فى حرب سريعة، إن دلّت على شىء، فإنما تدلّ على استهتار وفساد القائمين على الحكم ..

ولكن من يفهم هذا ؟..

(فاطمة) وحدها لمست لبّ الحقيقة بفطرتها وبساطتها ..

(فاطمة) وحدها عرفت أسباب الهزيمة ..

كان يسير على غير هدى ، عندما وجد نفسه أمام مقهى (جودة) ، الذى استقبله بابتسامة واسعة ، وهو يهتف فى حماس :

ـ (مفيد) بك ، زميل الكفاح .. أهلًا أهلًا .. شرّفت المقهى يا زينة شباب القرية .. تفضّل .. تفضّل .

جلس (مفيد) عند ماندة خالية ، وسأله فى خفوت :

ـ هل عدت لمزاولة نشاطك يا (جودة) ؟

فرك (جوده) كفيه ، وهو يقول :

ـ بالطبع يا (مفيد) بك .. عمر الشقى بقى .

ازدرد (مفيد) لعابه ، وهو يسأله :

ـ كل نشاطك ..

فهم (جودة) مغزى السؤال على الفور ، فابتسم فى خبث ، وانحنى يهمس :

ـ أنا رهن إشارتك يا (مفيد) بك .. هل أتحفك بتحفة جديدة ؟

ابتسم (مفيد) فى توتر ، وهو يسأله :

ـ ماذا أطلقتم عليها هذه المرة ؟

قهقه (جودة) ضاحكًا ، وناوله قطعة من المخدرات ، داخل ورقة سيلوفان رقيقة ، وهو يغمز بعينه ، قائلًا :

ـ النكسـة .

تطلّع (مفيد) إلى قطعة المخدّر فى يد (جودة) ، ودار فى عقله صراع عنيف ..

صراع يحتاج إلى قرار ..

قرار قد يؤثّر على مصيره إلى الأبد ..

★ ★ ★

توتر (مراد صقر) فى عصبية شديدة ، وهو يتطلّع إلى (حسين) ، الذى دلف إلى مكتبه بابتسامة شامتة متشفية ، ووقف صامتًا ، ينظر إليه بنظرة ظافرة ، جعلته يقول فى حدة :

ـ كنت أنتظرك .

ابتسم (حسين) فى سخرية ، قائلًا :

ـ أعلم هذا .

لملم (مراد) بعض الأوراق من فوق مكتبه ، ولكن (حسين) أشار إليه ، قائلًا :

ـ الأوامر تحتم ترك كل شىء فى مكانه .

مطّ (مراد) شفتيه ، واعتدل فى عصبية ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يسأل :

ـ هل تحوى القائمة اسمى وحدى ، أم أنها تتضمّن (صلاح) و (إبراهيم) أيضًا ؟

أجابه (حسين) :

ـ إنها تحوى أسماء عديدة ، ولكن ليس من بينها (صلاح) أو (إبراهيم) .. وبالمناسبة .. (صلاح) أخبرنى عن حكم كنت قد أصدرته ضدى ، وطلبت منه تنفيذه .

انعقد حاجبا (مراد صقر) ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى ، فالفئران أوّل من يغادر السفينة قبل غرقها .

لم يحاول (حسين) إخفاء شماتته ، وهو يجذبه من ذراعه ، قائلًا :

ـ هذا صحيح ، ولكن القطط هى التى تدفع الثمن .

رمقه (مراد) بنظرة غاضبة ، تفيض بالمقت والكراهية ، وهو يقول :

ـ الدنيا لا تدوم لأحد يا (حسين) بك .. وغدًا ستعلم أننى على حق .. غدًا قد تتبدّل الأمور ، وآتى أنا لاعتقالك .

دفعه (حسين) أمامه فى قسوة متعمّدة ، وهو يقول :

ـ فليكن .. دعنا ننتظر حتى يأتى هذا الغد .

وكان يشعر لحظتها بالظفر والقوة ..

كل القوة ..

★ ★ ★

« إذن فقد انتحر المشير .. »

قالتها (عايدة) فى دهشة ، وهى تجلس مع (حسين) فى شرفة منزله ، حول مائدة صغيرة ، يتوسّطها شمعدان أنيق ، وتتناول معه طعام العشاء ، تحت أضواء (القاهرة) ونيلها الساحر ، فابتسم (حسين) ، وهو يقول :

ـ كان هذا أفضل ما يفعله ، فى مثل هذه الظروف ، فالرئيس (جمال) طبّق سياسة الاستفادة من الكوارث بأذكى ما يمكن ، حتى أننى أشهد له بالعبقرية المطلقة .. لقد انهزم الجيش فى المعركة ، وخرج الشعب كله يؤيّد الرئيس ، وكان هذا المدّ الشعبى هو المفجّر ، الذى كان ينتظره ، لانتزاع السلاح الذى يمنح المشير القوة ، واعتقال كل معارضيه .. ولم يكن من السهل أن يتقبّل المشير هذا الموقف ، ولقد قاتل وثار ، وأحاط نفسه بعدد من مؤيديه ورجال قريته ، ولكن هيهات .. لقد حطّمت الهزيمة قوة هؤلاء الرجال تمامًا ، وضاعفت من قوة الرئيس (جمال) ، مما ساعده على السيطرة على

الموقف كله ، وإحكام قبضته على الجيش والشعب فى آن واحد ، ولم يعد أمام المشير إلا أن يتعرّض للمحاكمة والإدانة ، أو أن ينتحر ، ويفرّ من الموقف كله .

هزّت رأسها فى حيرة ، قائلة :

ـ لن أفهم دهاليز السياسة قط .. وخاصة فى (مصر) .

ضحك قائلًا :

ـ لا تحاولى فهمها .. يكفيك جنونك الطبيعى .

هتفت فى مرح :

ـ يا لوقاحتك !

ثم مالت نحوه ، تسأله فى فضول :

ـ ولكن ماذا عنك ؟.. ألم تستفد من الكارثة بدورك ؟

انتفخت أوداجه زهوًا ، وهو يقول :

ـ ماذا تسمين ما حدث إذن ؟.. لقد حصلت على ترقية استثنائية ، وأصبحت مدير شئون رياسة الجمهورية ، وتخلّصت من (مراد صقر) ، ومن شقيق (فؤاد) ، ومصنع النسيج ، الذى أمتلك ثلثه ، حصل على حق إمداد الجيش بالقماش اللازم لصنع الخيام .. ماذا تريدين أفضل من هذا ؟

ابتسمت قائلة :

ـ وماذا عن عائلة (البنهاوى) ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ أعتقد أن كل شىء سيسير على ما يرام ، فـ (مفيد) لم يعد يناقش السياسات وعواقبها ، و (فؤاد) لن يجرؤ على الإساءة لـ (ناهد) ، و (شريفة) لم تعد تعارض فى شدة أمر زواجها من

(عبد الحكيم) ، وأعتقد أنها بدأت تعيد دراسة الموقف .. باختصار ، لم يعد هناك ما يمكن أن يقلقنى .

ثم تطلّع إليها مبتسمًا ، قبل أن يستطرد :

ـ وهل تعلمين ؟.. إننى أفكّر فى دعوتك لحضور حفل عيد ميلاد (طارق) القادم ، حتى تتعرفى أفراد الأسرة مباشرة .

هزّت كتفيها ، وهى تقول فى دلال :

ـ وبأية صفة ستقدّمنى لهم ؟

فهم ما ترمى إليه ، فضحك ضحكة طويلة ، وقال :

ـ دعينا نترك هذا لوقته ..

وكانت المفارقة عجيبة بالفعل ، تحت أضواء (القاهرة) .. (مصر) انهزمت هزيمة منكرة ، و (حسين البنهاوى) انتصر انتصارًا ساحقًا ..

(مصر) ذاقت مرارة الهوان ، وهو يلعق عسل النصر ..

ولكن من يدرى ما الذى يمكن أن تأتى به الأيام القادمة ؟!..

من يدرى ؟!

* * *

[نهاية الجزء الثالث]

أرزاق

رواية اجتماعية طويلة

... وتتوالى الأحداث على عائلة (البنهاوى)، عبر تلك المرحلة الحرجة من تاريخ (مصر)، ومع التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العنيفة، والصراعات التى تدور داخل العائلة وخارجها ..

وعلى الرغم من كل هذا، يعلو نجم العائلة أكثر وأكثر، متخطيا كل العقبات والتحديات، وتولد قصص الحب وتموت، مع شروق الشمس وهطول الأمطار ..

ويتطور المجتمع، ويتشكل فى سرعة، دون أن يتوقف لحظة ليسأل نفسه: إلى أين يقوده هذا؟ وكيف ستحاسبه الأجيال القادمة على كل ما حققه من انتصارات، وهزائم من أجل الثورة و ...

ومن أجل (مصر) ..

د. نبيل فاروق

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم